وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية الثانية

المدخل إلى تاريخ الحضارة

الدكتور حسان عبد الحق
أستاذ دكتور في قسم التاريخ
جامعة دمشق

الدكتور عباس فرج
مدرِّس في قسم التاريخ
جامعة دمشق–فرع السويداء

الدكتورة سوزان اسماعيل
مدرِّسة في قسم التاريخ
جامعة دمشق– فرع السويداء

جامعة دمشق
١٤٤٥– ١٤٤٦ هـ
٢٠٢٤– ٢٠٢٥م

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفهرس:

المقدمة:.....١٩

الفصل الأول: الحضارة شروطها ومظاهرها:

أولاً- تعريف الحضارة.....٢١

ثانياً- شروط قيام الحضارة.....٢٥

ثالثاً- نظريات نشوء الحضارة:.....٢٧

١- نظرية جيوفاني باتيستا فيكو.....٢٧

٢- نظرية أوزولد شبنغلر.....٢٨

٣- نظرية أرنولد جوزيف تونبي.....٢٨

رابعاً- مظاهر الحضارة:.....٣٠

١- المظهر السياسي.....٣٠

٢- المظهر الاقتصادي.....٣٢

٣- المظهر الاجتماعي.....٣٣

٤- المظهر الفكري:.....٣٤

أ- المعتقدات الدينية.....٣٤

ب- الآداب.....٣٥

ج- العلوم.....٣٦

٥- المظهر الفني.....٣٦

خامساً- الكتابة:.....٣٨

أ- الاكتشاف.....٤٠

ب - ابتكار الكتابة الأولى.....٤٦

ج- الكتابة المسمارية (شكلها ومواد كتابتها).....٤٩

د- الثقافة المسمارية.....٥١

هـ- مراحل تطور الكتابة المسمارية.....٥٢

سادساً- المجموعات اللغوية العالمية المعروفة.....٥٤

سابعاً- التأريخ ٥٧

الفصل الثاني: الحضارة السورية القديمة:

أولاً- سورية جغرافياً.....٥٩

ثانياً-عصر ما قبل الكتابة/التاريخ.....٦٠

ثالثاً: فجر الحضارة وظهور المستوطنات الأولى في سورية:.....٦٣

١-تل حموكار.....٦٣
٢-تل براك.....٦٣
٣- تل البيدر.....٦٤
٤-تل موزان.....٦٤
٥-تل فخيرية.....٦٥
رابعاً- العصور التاريخية.....٦٥
خامساً-الإدارة ونظام الحكم.....٦٩
سادساً-الحياة الاقتصادية.....٧٤
سابعاً-الحياة الاجتماعية.....٨٠
ثامناً- الحياة الدينية.....٨٤
تاسعاً- اللغة والكتابة.....٨٧
عاشراً-العمارة والفنون.....٩٠

الفصل الثالث: حضارة بلاد الرافدين:
أولا- بلاد الرافدين جغرافياً ٩٥
ثانياً-تاريخ بلاد الرافدين.....٩٧
ثالثاً-الإدارة ونظام الحكم:.....١٠٢

١-الملك.....١٠٣
٢-حكام المقاطعات.....١٠٦
رابعاً-الحياة الاقتصادية:.....١٠٨
١-الزراعة.....١٠٨
٢-الصناعة.....١١٠
٣-التجارة.....١١٣
خامساً-الحياة الدينية:.....١١٦
١-الآلهة.....١١٦
٢-المعابد والطقوس الدينية.....١٢١
سادساً- اللغة والكتابة:.....١٢٣
سابعاً-العلوم:.....١٢٣
١-الطب.....١٢٣
٢-الرياضيات.....١٢٥
٣- الفلك.....١٢٦
٤-الجغرافيا.....١٢٩
ثامناً-القوانين:.....١٣٠
١-قانون أورنامو.....١٣١
٢-قانون ليبيت عشتار.....١٣١
٣-قانون إشنونا.....١٣٢
٤-قانون حمورابي.....١٣٣

الفصل الرابع: الحضارة المصرية:

أولاً- مصر جغرافياً.....١٣٥

ثانياً–تاريخ مصر.....١٣٧
ثالثا–الإدارة ونظام الحكم:.....١٤١
١–الملك.....١٤١
٢–الوزير.....١٤٢
٣–حكام الأقاليم.....١٤٤
رابعاً–الحياة الاقتصادية:.....١٤٥
١–الزراعة وتربية الحيوانات.....١٤٥
٢–الصناعة.....١٤٧
٣–التجارة.....١٤٨
خامساً–الحياة الدينية:.....١٥٠
١–الآلهة.....١٥٠
٢–المعابد ١٥٣
سادساً– اللغة والكتابة.....١٥٤
سابعاً–العلوم:.....١٥٦
١–الطب.....١٥٦
٢–الرياضيات ١٥٧
٣–الفلك.....١٥٨

الفصل الخامس: الحضارة الحثية:
أولاً– بلاد الأناضول جغرافياً.....١٦١
ثانياً–أصل الحثيين.....١٦١
ثانياً–تاريخ الحثيين.....١٦٢
ثالثاً– نظام الحكم والإدارة عند الحثيين.....١٦٥

رابعاً- الحياة الاقتصادية:.....١٦٨
١-الزراعة وتربية الحيوانات.....١٦٨
٢-الصناعة.....١٧١
٣- التجارة.....١٧٣
خامساً- الحياة الدينية.....١٧٤
سادساً- اللغة والكتابة.....١٧٧

الفصل السادس: الحضارة الإيرانية (الفارسية):
أولاً- بلاد فارس جغرافياً، وبدايات الاستقرار الأولى.....١٧٩
ثانياً- تاريخ بلاد فارس.....١٨٠
ثالثاً: نظام الحكم والإدارة.....١٨٥
رابعاً: الحياة الاقتصادية:.....١٨٨
١- الزراعة.....١٨٨
٢- الحرف والصناعات اليدوية.....١٩٠
٣- التجارة.....١٩٠
خامساً: الحياة الدينية:.....١٩٢
١- الآلهة.....١٩٢
٢- الديانة الزرادشتية.....١٩٣
٣-الديانة المانوية.....١٩٥
سادساً: اللغة والكتابة.....١٩٦
سابعاً: العمارة والفنون.....١٩٨

الفصل السابع: الحضارة الإغريقية:

أولاً- بلاد الإغريق جغرافياً.....٢٠١
ثانياً-تاريخ الإغريق.....٢٠٢
ثالثاً-نظام الحكم:.....٢٠٤
١-نظام الحكم في الحضارة المينوية (حضارة كريت) والحضارة الموكينية.....٢٠٤
٢-نظام الحكم في الألف الأول ق.م (عصر دولة المدينة)..... ٢٠٦
أ-نظام الحكم الديمقراطي في أثينا.....٢٠٦
ب-نظام الحكم في أسبارطة.....٢٠٧
رابعاً-الحياة الاقتصادية:.....٢٠٩
أ-الزراعة والثروة الحيوانية.....٢٠٩
ب-الصناعة.....٢١٠
ج-التجارة.....٢١١
خامساً-الحياة الدينية:.....٢١٤
١- الآلهة الإغريقية.....٢١٤
٢-الطقوس الدينية.....٢١٦
سادساً- اللغة والكتابة.....٢١٨
سابعاً-العلوم:.....٢١٩
١- الفلسفة.....٢٢٠
٢-الفلك والتنجيم.....٢٢٤
٣-الطب.....٢٢٦
٤-العلوم الرياضية.....٢٢٦

الفصل الثامن: الحضارة الرومانية:

أولاً– روما جغرافياً.....٢٢٩
ثانياً– لمحة تاريخية:.....٢٣١
١– العهد الملكي:.....٢٣٣
٢– العهد الجمهوري:.....٢٣٣
٣– العهد الإمبراطوري:.....٢٣٤
ثالثاً– الحياة السياسية والإدارية:.....٢٣٤
أ– العهد الملكي:.....٢٣٤
١– الملك.....٢٣٥
٢– مجلس الشيوخ.....٢٣٥
٣– مجلس الجماعات.....٢٣٦
ب– العهد الجمهوري:.....٢٣٧
١– القناصل.....٢٣٧
٢– الدكتاتور.....٢٣٧
٣– مجلس الشيوخ.....٢٣٨
٤– مجلس الجماعات.....٢٣٨
٥– المجلس المئوي.....٢٣٨
ج– العهد الإمبراطوري.....٢٣٩
رابعاً– الجيش.....٢٣٩
خامساً: القانون والحياة الاجتماعية.....٢٤٤
سادساً: الحياة الاقتصادية.....٢٤٨
سابعاً: الحياة الدينية.....٢٥٠
ثامناً: الحياة العلمية والثقافية.....٢٥٢
تاسعاً: العمارة والفنون.....٢٥٣

الفصل التاسع: الحضارة الهندية القديمة:

أولاً- الهند جغرافياً.....٢٥٧
ثانياً-حضارة هارابا وموهنجودارو.....٢٥٨
ثالثاً-الآريون.....٢٦٢
رابعاً-عصر الفيدا (١٥٠٠ – ١٠٠٠ ق.م).....٢٦٣
خامساً-حضارة عصر البطولة (١٠٠٠ – ٥٠٠ ق.م).....٢٦٧
سادساً-الجاينية والبوذية في الهند.....٢٦٩
سابعاً- اللغة والآداب والعلوم والفن.....٢٧٣

الفصل العاشر: الحضارة الصينية القديمة:

أولا- الصين جغرافياً.....٢٧٧
ثانياً- تاريخ الصين.....٢٧٨
ثالثاً- الحياة السياسة والإدارية.....٢٨٣
رابعاً- الحياة الاقتصادية:.....٢٨٤
١-الزراعة.....٢٨٤
٢- الحِرَف.....٢٨٦
٣- التجارة.....٢٨٧
خامساً-الحياة الاجتماعية.....٢٨٧
سادساً- الحياة الدينية.....٢٨٩
سابعاً- اللغة والكتابة.....٢٩٠
ثامناً – العلوم.....٢٩١
تاسعاً-الفلسفة الصينية:.....٢٩٣
١- المدرسة الكونفوشيوسية.....٢٩٣

٢- المدرسة الطاوية..... ٢٥٩
٣- الفلسفة الشرعية.....٢٩٧
٤- الفلسفة الموهية.....٢٩٧
٥- الفلسفة الطبيعية.....٢٩٧

الفصل الحادي عشر: معالم حضارات إفريقيا القديمة:

أولاً-إفريقيا جغرافياً.....٢٩٩
ثانياً-التسمية.....٣٠٠
ثالثاً- الاكتشاف.....٣٠١
رابعاً-الممالك الإفريقية القديمة.....٣٠٣
١-مملكة أكسوم "إثيوبيا".....٣٠٣
أ- أكسوم جغرافياً.....٣٠٣
ب-التسمية.....٣٠٤
ج-الاكتشاف.....٣٠٤
د-تاريخ أكسوم القديم.....٣٠٥
هـ-المظاهر الحضارية.....٣٠٦
١- الإدارة ونظام الحكم.....٣٠٦
٢- الحياة الاقتصادية.....٣٠٧
أ- الزراعة.....٣٠٧
ب-الصناعة.....٣٠٧
ج- التجارة.....٣٠٧
٣- الحياة الدينية.....٣٠٨
٤- اللغة.....٣٠٩

٥- العمارة والنحت.....٣١٠
و-نهاية مملكة أكسوم.....٣١١
٢-مملكة "كوش".....٣١٢
أ- كوش جغرافياً.....٣١٢
ب-التسمية.....٣١٢
ج-الاكتشاف.....٣١٣
د-تاريخ مملكة كوش.....٣١٤
هـ-المظاهر الحضارية.....٣١٥
٣-حضارة "مروى".....٣١٧
أ- مروى جغرافياً.....٣١٧
ب-المظاهر الحضارية.....٣١٧
٤-حضارة مملكتي "مقرة" و"علوة".....٣٢٠
أ- المملكتان جغرافياً.....٣٢٠
ب-تاريخ المملكتين.....٣٢٠
ج- المظاهر الحضارية.....٣٢٠
٥-حضارة "زمبابوي".....٣٢٢
أ- المملكة جغرافياً.....٣٢٢
ب-التسمية.....٣٢٢
ج-اكتشاف المملكة.....٣٢٢
٦- ممالك إفريقيا الغربية:.....٣٢٤
أ- ملكة "غانا".....٣٢٤
ب-ملكة "كانيم بورنو".....٣٢٥
ج-"مملكة مالي".....٣٢٥

د- "مملكة سونغاي".....٣٢٥

الفصل الثاني عشر: معالم حضارات أمريكا القديمة:

أولاً-حضارة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية.....٣٢٧
ثانياً- حضارات الهنود الحمر في أمريكا الوسطى:.....٣٢٨
أ- حضارة الأولميك.....٣٣٠
ب-حضارة المايا:.....٣٣١
١- نبذة تاريخية.....٣٣١
٢- الحياة السياسية والإدارية.....٣٣٢
٣-الحياة الاقتصادية.....٣٣٢
٤- الحياة الاجتماعية.....٣٣٣
٥- الحياة الدينية.....٣٣٤
٦- الحياة العلمية والثقافية.....٣٣٥
٧- العمارة والفنون.....٣٣٦
جـ- حضارة الأزتيك:.....٣٣٧
١-نبذة تاريخية ٣٣٧
٢- الحياة السياسية والإدارية ٣٣٧
٣- الحياة الاقتصادية.....٣٣٨
٤- الحياة العسكرية.....٣٣٩
٥-الحياة الدينية.....٣٤٠
٦- الحياة الاجتماعية.....٣٤١
٧-الفنون والعلوم واللغة.....٣٤٢
ثالثاً- حضارة الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية (حضارة الإنكا):٣٤٣

١-نبذة تاريخية.....٣٤٤
٢- الحياة السياسية والإدارية.....٣٤٥
٣-الحياة الاقتصادية:.....٣٤٦
أ-الزراعة.....٣٤٦
ب- الحِرف والحِرفيون:.....٣٤٧
-الفخاريات.....٣٤٧
- المنسوجات (الأقمشة النسيجية).....٣٤٨
-المعادن والتعدين.....٣٤٩
ج-التجارة.....٣٤٩
٤- الحياة العسكرية.....٣٤٩
٥- الحياة الاجتماعية.....٣٥٠
٦-الحياة الدينية.....٣٥١
٧- العلوم واللغة.....٣٥٣
٨- العمارة.....٣٥٤
المصادر والمراجع.....٣٥٥

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المقدِّمة:

تحدَّى الإنسان الطبيعة في مختلف أنحاء العالم القديم، وتمخَّض عن ذلك تأسيس حضارات كثيرة، أبهرت العالم بإنجازاتها الفكرية، وتقدمها على المستويات السياسية والإدارية والعسكرية والدينية والاقتصادية، اختلفت هذه الحضارات بأصالة منجزاتها، مثل الكتابة التي تُعدُّ أحد المنجزات الأصيلة في حضارتي بلاد الرافدين ومصر، والفلسفة التي أول ما ظهرت في الحضارة الإغريقية، والأبجدية التي تُعدُّ إبداعاً أوجاريتياً سورياً، لكن هذه المنجزات الحضارية لم تكن حكراً على الحضارات التي نشأت فيها، بل انتقلت إلى الحضارات الأخرى، مما يؤكِّد عدم تقوقعها، وتفاعلها فيما بينها.

تتناول موضوعات كتاب المدخل إلى تاريخ الحضارة مختلف الحضارات القديمة موزَّعة على اثني عشر فصلاً، وقد تصدَّى كل مؤلِّف من مؤلِّفي الكتاب الثلاثة لمجموعة من الفصول، فالدكتور حسَّان عبد الحق تصدَّى للحضارات الرافدية، والمصرية، والحثية، والإغريقية، والهندية، في حين تصدَّى الدكتور عبَّاس فرج للحضارات السورية، والفارسية، والرومانية، والصينية، وحضارات أمريكا القديمة، أما الدكتورة سوزان إسماعيل فقد أنجزت فصل الحضارة: شروطها ومظاهرها، وحضارات إفريقيا القديمة.

ستُدرَس كل حضارة على حدة، ابتداء بموقعها الجغرافي وتاريخها، وصولاً إلى إنجازاتها الحضارية، ومن خلال دراسة هذه النقاط سنتمكَّن من وضع كل حضارة ضمن إطارها التاريخي والجغرافي لما لهاتين النقطتين من أهمية كبرى، فمن خلالهما نتعرَّف إلى الحقب التي عرفتها

الحضارات، والمحيط الجغرافي الذي نشأت فيه هذه الحضارة أو تلك، ومدى تأثير هذا المحيط في نشأتها، فعلى سبيل المثال ساعد موقع أوجاريت والمدن الفينيقية على البحر المتوسط في نشوء هذه المدن وازدهارها، إذ هيَّأ البحر المتوسط الاتصال بحضارات أخرى تقع على سواحله، مثل مصر واليونان، وازدهر التبادل التجاري بين الطرفين، ولا سيما أن التجارة تُعدُّ سبباً من أسباب استمرار حضارة هذه المدن وغيرها من الحضارات، وازدهارها. وكذلك هيَّأ وقوعُ بلاد الرافدين في منطقة جغرافية غنية بماء الأنهار الأسبابَ لنشوء المدن الرافدية على ضفافها، وتُعدُّ هذه المدن – بما أنجزته من منجزات– أساس الحضارة الرافدية في عصورها المختلفة.

ستمهِّد هذه المعلومات للانتقال إلى المعلومات الجوهرية المتعلِّقة بالإنجازات التي حقَّقتها الحضارات على مختلف الصعد، وستساعد هذه الدراسة في معرفة درجة تطور الحضارات، ومدى تأثر هذه الحضارة بتلك. ونودُّ أن ننبِّه إلى أن معالجة كل حضارة ستكون مختصرة، لعدم توفر مساحة كافية في الكتاب تسمح بتقديم معالجة تفصيلية وغزيرة عن كل حضارة.

في المجمل، يسرُّ مؤلِّفي الكتاب، انطلاقاً من واجبهم العلمي والمهني، خوض تجربة تأليفه، لتوفير مُؤلَّف يناسب المستوى الثقافي للطلاب المستجدين في قسم التاريخ، فكان من دواعي سرورهم أن يقدِّم الكتاب معلومات سلسة ومفهومة بالنسبة إليهم، يستطيعون من خلالها التعرف إلى حضارات العالم القديم.

أ.د حسَّان عبد الحقّ د. عبَّاس فرج د. سوزان اسماعيل

الفصل الأول

الحضارة شروطها ومظاهرها

أولاً- تعريف الحضارة:

الحَضارة لغةً: هي الإقامة في الحضر، والحَضارة: التمدُّن، عكس البداوة، وهي مرحلة سابقة من مراحل التطور الإنسانيّ.

ويُعرِّف "ابن خلدون [1]" الحضارة بأنها: "نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألَّف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنُّظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحرَّرت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفكُّ الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضيّ في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها".

ويقول "ألبرت اشفيتسر Albert Schweitzer: "إن الحضارة، بكل بساطة، معناها بذل المجهود، بوصفنا كائنات إنسانية، من أجل استمرار النوع الإنساني وتحقيق التقدم من أي نوع كان في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي، وهذا الموقف العقلي يتضمَّن استعداداً مزدوجاً، فيجب أولاً أن نكون متأهِّبين للعمل إيجابياً في العالم والحياة، ويجب

---

[1] ابن خلدون (و١٣٣٢، ت١٤٠٦): عالم موسوعي متعدِّد المعارف والعلوم، يُعدُّ مؤسِّس علم الاجتماع الحديث وأبا التاريخ والاقتصاد. انظر: معجم علم الأخلاق، إشراف: ايغور كون، ترجمة: توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٤، ص٦.

ثانياً أن نكون أخلاقيين"[١].

ومما لا شك فيه أن هناك من عرّف الحضارة أيضاً غير ابن خلدون وألبرت مثل: "فؤاد زكريا [٢]"، و"حسين مؤنس [٣]"، ويمكن تعريف الحضارة استناداً إلى تعاريفهم:

بأنها تشمل كلاً من النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والعلمية والأدبية والدينية التي تتعلَّق بالسلوك البشري.

تتقاطع الحضارة مع مفهومي المدينة والثقافة وتقترب منهما، ذلك أن كلمة "Civilization" مشتقة من المدنية "Civitas"، أي ما يتعلَّق بساكن المدينة، حيث استقرَّ الإنسان منذ البداية في قرى صغيرة، ومع التطور ومرور الزمن تحوَّلت تلك القرى إلى مدن نتيجة تجمع الثروات والصناعات والإمكانات والنشاطات المادية والفكرية فيها، وقد نقل ول ديورانت عن ابن خلدون قوله: "نعم إن المدنية تبدأ في كوخ الفلَّاح، لكنها لا تزدهر إلا في المدن"[٤]، فالخلاصة أن المدنية هي نوع راقٍ

---

[١] فلسفة الحضارة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٠، ص٥.

[٢] فؤاد زكريا (و١٩٢٧، ت ٢٠١٠): أكاديمي مصري، وعلم من أعلام الفكر العربي المعاصر، تتلمذ على يد الفيلسوف د. زكريا نجيب محمود. انظر: زكريا، فؤاد، التفكير العلمي، عالم المعرفة، العدد٣، الكويت، ١٩٧٨، ص٢٥٩.

[٣] حسين مؤنس (و١٩١١، ت١٩٩٦) كاتب ومؤرِّخ مصري مهم، يُعدُّ أحد أهم مؤرِّخي العرب المحدثين، كتب في عصور مختلفة وحقب متنوعة. انظر: مؤنس، حسين، الحضارة، عالم المعرفة، العدد١، الكويت، ١٩٧٨، ص٣٥٣. وانظر أيضاً: رمضان، شيرين، السيرة الذاتية لـِ د.حسين مؤنس، مكتبة الإسكندرية– قطاع المكتبات، د. ت، ص١.

(٤) ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، الجزء الأول، د.ت،

من حياة الاستقرار والتحضر.

أما الثقافة فهي في اللغة العربية من فعل: ثقف، و"ثَقِفَ" تعني: ظفر، وجد، تمكَّن منه، حذق، فطن، فهم. وفي اللغات الأوربية Culture تعني: الثقافة والتهذيب، وكذلك تعني الثقافة: مجموعة العادات والمعلومات وأساليب المعيشة.

ومما لا شك فيه أن الحضارة صفة خاصة بالمجتمع الإنساني تميِّزه عن الحيوان، ولكل شعب على وجه الأرض نصيب من الحضارة، ومما يسوِّغ التقدم الحضاري بين الشعوب، ويبيِّن درجة التفاوت في حضارتها، كون الشعوب تتفاوت في نصيبها من الحضارة، وفيما اكتسبته من علوم وخبرات وقدرات، فهناك ظروف اجتماعية معينة، أو مادية طبيعية، قد حالت دون اتصال بعض الشعوب بسواها، فبقيت حضارة بعضها محدودة، ومقيدة بإمكاناتها وخبراتها الخاصة.

وبعد تعريف الحضارة عامة، ينبغي الإشارة إلى بداية ظهورها; إذ تبلورت فكرة الحضارة في أوروبا خلال القرن الثامن عشر في إطار علم جديد هو التاريخ "الفلسفي" أو "البرهاني"، الذي يهدف إلى تعليل الاختلاف بين المجتمعات "البرية"، ومجتمعات أوروبا الغربية بعبارات التباعد التاريخي، وقد ظهر اسم هذا العلم في فرنسا قرابة ١٧٧٠م، وهو يدلُّ على مرحلة معينة من التطور، أي مجمل المكتسبات التقنية والاجتماعية والفكرية التي أتاح التقدم للفكر تكديسها. قامت المسيرة التاريخية وحيدة الخط، التي تؤدِّي إلى هذه المرحلة على منوال تكوين الفرد، وانطوت على تحديد مسافة عن معطيات الطبيعة أو البيئة،

ص:٥. ديورانت هو ويليام جيمس ديورانت (و١٨٨٥، ت١٩٨١م)، وهو فيلسوف ومؤرِّخ وكاتب أمريكي، أشهر مؤلَّفاته كتاب قصة الحضارة.

فمثلما تتيح التربية للإنسان أن يتحرَّر من طبيعته الحيوانية، ومن الأفكار التي يتلقَّاها من بيئته، كذلك تسمح سيرورة الحضارة للمجتمعات بالتحرر من سيطرة العادات الخاصة بحالة الهمجية. فالحضارة، إذن، هي نتيجة، ولكنها أيضاً – إذا أخذنا الكمال البشري بعين الاعتبار– أفق لا يكفُّ عن التراجع، من هنا كانت الازدواجية الخاصة بهذه العبارة، التي قد تتخذ معنى مختلفاً جداً، وحتى متناقضاً، حسب استعمالها بصيغة المفرد أو الجمع، إذ نحن نقيّم الحضارات (تشكيلات تاريخية فريدة) باسم الحضارة (كمثال)، ثم ازدادت هذه الازدواجية لاحقاً، فكلما اتسعت الحضارة وأصبحت نسبية، كان الغرب دائماً على نحوٍ واضح أو مضمر النموذج الأوضح لها، لكن منذ نهاية القرن الثامن عشر، بلغت الصين والهند رتبة الحضارة، وقد سبق أن تحدَّث "أ. ب. تايلور Edward Burnett Tylor"[1] عام ١٨٧١ عن "حضارة الشعوب الدنيا" أو المجتمعات البدائية.

وهكذا باتت الحضارة (الجامعة) مرادفة للثقافة (بالمعنى التقني للعبارة)، وبهذا المعنى يستمرُّ علماء الآثار باستخدامها، بينما يميل "الإثنولوجيون"[2] إلى تجنبها مفضّلين عبارة الثقافة. إن هذا الاختلاف

---

[1] مؤسّس علم الأنثروبولوجيا الثقافية، أهم كتبه "الثقافة البدائية" ١٨٧١م، طُبع في جزأين: الأول عن أصول الثقافة، والثاني عن الدين في الثقافة البدائية، ومن خلاله عرض مذهب التطور الثقافي في القرن التاسع عشر. للاطلاع:
John , London, Two Volumes, Primitive culture,Tylor Edward B W.1920, Albemarle Street,Murray

[2] الإثنولوجيا: أصلها يوناني، وتعني: دراسة الشعوب وخصائصها اللغوية والثقافية والسلالية، أي دراسة الصفات والخصائص المميزة لأجناس الإنسان، أو الأجناس البشرية. انظر: لومبار، جاك، مدخل إلى الأثنولوجية، ترجمة: حسن قبيسي، ط١،

في الاستعمال بين العلوم المتقاربة يعلَّل، بسهولة، بالتوجه التاريخي والتكنولوجي الواضح نحو الأولى، و"السوسيولوجي"[1] والتزامني نحو الثانية [2].

ثانياً- شروط قيام الحضارة:

يذكر "ول ديورانت" أنه لابد من توفر شروط مناسبة من أجل قيام أية حضارة، فهناك شروط تؤثّر فيها وتساعد على نشوئها وازدهارها، أو تقودها إلى الانحطاط [3]، وهذه الشروط هي:

أ- العوامل الجيولوجية: للعوامل الجيولوجية دور في المحافظة على الحضارة أو طمسها، فقد يعود تيار الجليد إلى الأرض، ويغمرها ويغيّر معالمها، وربما يتحرَّك الزلزال فجأة، ويدمِّر حضارة الإنسان وينهيها.

ب- الشروط الجغرافية: إن وجود التربة الخصبة، والمياه الوفيرة، والموقع الجغرافي على طرق برية أو بحرية أو نهرية، والمناخ المناسب في بيئة طبيعية لمنطقة ما، يساعد على قيام الحضارة فيها، والعكس صحيح إذ يؤدّي انعدام هذه العوامل إلى انهيار حضارتها.

المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٧. وانظر أيضاً: الأخرس، محمد صفوح، الإتنولوجية، الموسوعة العربية، المجلد الأول، دمشق، ١٩٨١م، ص ٢٨٨.

[1] السوسيولوجيا: علم يدرس المجتمعات الإنسانية، والمجموعات البشرية، وظواهرها الاجتماعية. انظر: الأخرس، محمد صفوح، علم الاجتماع، الموسوعة العربية، المجلد الأول، دمشق، ١٩٨١م، ص٣٧٩.

[2] بونت، بيار، وإيزار، ميشال وآخرون، معجم الأثنولوجيا والأنتروبولوجيا، تر: مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع "مجد"، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١١، ص ٤٤٦-٤٤٧.

[3] ديورانت، ول، المرجع السابق، الجزء الأول، ص٣-٨.

ج – الشـروط الاقتصـادية: إن الشـروط الاقتصـادية أساسـية لنشـوء الحضـارة وتقدمها، فالإنسان لا يمكن أن ينتقل إلـى مرحلـة الحضـارة إلا بالاستقرار أولاً، ومن ثم ممارسة الزراعة، وفيما بعد الحِرف والتجارة.

د– الشــروط السياســية: لا تكفـي الشـروط السـابقة وحـدها لتكـوين حضـارة، بـل لابـد مـن تـوفر شـروط سياسـية، مثـل وجـود نظـام سياسـي يحمي الجماعة، ويضمن لهم حياة آمنة، ويضع حداً للفوضى.

هـ – الشروط الأخلاقيـة: يجب توفر مجموعة من النُظم الأخلاقية والفكرية أيضاً، كي توجِّه الناس في شؤون حياتهم عن طريق التربية والتعليم واللغة.

لكن ليست هناك شروط عرقية للحضارة، إذ يمكن أن تظهر في أية قارة، وفي أي عرق، وقد ظهرت الحضارات عند كل الشعوب، وفي مختلف بقاع العالم، لأن الحضارة هي التي تميّز الجماعة بصفات خاصة تختلف بها عن بقية الجماعات الإنسانية [1].

وبناء على ما سبق، يمكن أن نقول: إن الحضارة تنشأ إذا ما توفَّرت الشروط المناسبة لها، والدليل على ذلك أنها ظهرت في عصور مختلفة، وفي أماكن مختلفة في مصر وسورية وبلاد الرافدين وإيران والهند والصين.

الخلاصة: الحضارة ليست من صنع عرق معين، وليس لها وطن محدَّد، وإنما هي نتاج متكامل للشعوب كلها، تتجمَّع مع الزمن، وتتخذ أشكالاً أرقى من التي كانت سائدة من قبل، فحضارة كل شعب تعتمد على حضارات الشعوب السابقة، وتضيف إليها، ليعلو بذلك صرح

---

[1] بيضون، جميل وعودات، أحمد والناطور، شحادة، مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية والإسلامية، دار الأمل، إربد، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص١٢.

الحضارة الإنسانية [1].

ثالثاً- نظريات نشوء الحضارة:

قدَّم كثير من العلماء والمفكِّرين والباحثين في قضية نشوء الحضارة ونموها وتطورها، عدداً من النظريات تناولت هذه الفكرة، يمكن أن نذكر أبرز تلك النظريات على النحو الآتي:

١- نظرية "جيوفاني باتيستا فيكو Giovanni Battista Vico" [2]:

تُلخَّص نظرية "الدورات التاريخية" للفيلسوف "جيوفاني"، في مسألة نشوء الحضارة، التي عرضها في كتابه "العلم الجديد"، بعد أن انتهى من دراسته للحضارات القديمة مثل اليونانية والرومانية: "بأن كل الشعوب تمرُّ بثلاث مراحل هي: ١- المرحلة الإلهية، ٢- المرحلة البطولية، ٣- المرحلة البشرية، وأن المجتمعات البشرية تمرُّ بسلسلة من المراحل، تبدأ بالهمجية، وتنتهي بالحضارة، ثم تعود إلى الهمجية من جديد". وأكَّد أن قانون المراحل الثلاث يمكن اعتباره مسلَّمة من مسلَّمات العقل البشري، لأنه حقيقة تاريخية أكدَّها استقراؤه للتاريخ، إذ حدَّد منهج علم التاريخ الذي اتبعه بالنسبة لمناهج العلوم الأخرى مثل الرياضيات والعلوم الطبيعية، بالمنهج الاستقرائي. وقد بحث فيكو في نشأة المجتمعات الإنسانية وتطورها، ودرس تاريخها من خلال اعتماده على ما تركته من

---

[1] عبد الله، فيصل، ومرعي، عيد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، جامعة دمشق، ٢٠٠٧، ص٣٠.

[2] مؤرِّخ وفيلسوف إيطالي وُلِد في نابولي ١٦٦٨م، وتُوفِّي عام ١٧٤٤م، يُعدُّ المؤسِّس الحقيقي لفلسفة التاريخ في الفكر الفلسفي الغربي، ومكانته في التراث الغربي تماثل مكانة ابن خلدون في التراث العربي. أبو السعود، عطيات، فلسفة التاريخ عند فيكو، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢١م، ص١٥.

بقايا آثارها، مثل القطع الصغيرة من نقود وحلي وأوسمة وغيرها (علماً أن الاهتمام بالتنقيبات والمكتشفات الأثرية قد بدأ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأخذ يزداد مع الوقت)، إضافة إلى وثائقها في الأدب والشعر والأساطير.

كما أشار فيكو إلى أن نشأة الدين هي نشأة طبيعية فطرية في الإنسان، وإلى أن الخوف أول دافع لخلق الآلهة على الأرض، وأن الإنسان هو صانع الدين مثلما هو صانع تاريخه.

لقد جعل فيكو الإنسان محور الدائرة ومركزها، فإذا كان الله هو خالق الطبيعة، فإن الإنسان هو صانع التاريخ، والإنسان هو موضوع المعرفة وهدفها، وموضوع التاريخ وهدفه[١].

٢- نظرية "أوزولد شبنغلر Oswald Arnold Spengler"[٢]:

تُلخَّص نظرية "دورة الحياة" للفيلسوف "شبنغلر" في شرح تاريخ الحضارة الإنسانية: بأن كل حضارة تملك "روحاً" خاصة كالكائن الحي، وتمرُّ بمراحل: ١- الولادة، ٢- النمو، ٣- الشباب، ٤- النضج، ٥- الانحطاط.

وبناء عليه لا تسير الحضارة في خط يتقدَّم إلى ما لا نهاية.

٣- نظرية أرنولد جوزيف توينبي A.J.Toynbee [٣]:

---

[١] أبو السعود، عطيات، المرجع السابق، ص١٩٧.

[٢] فيلسوف ألماني (وُلِد عام ١٨٨٠ في إقليم هارتز، وتُوفِّي عام ١٩٣٦ في ميونخ)، درّس الرياضيات، ثم استقال ليُعدَّ مؤلفه الكبير "أفول الغرب" الذي قال فيه: إن الحضارة الغربية في طريق الانحطاط، وستظهر فيما بعد حضارات أخرى. طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة، الطليعة للطباعة والنشر، ط٣، بيروت، ٢٠٠٦، ص٣٨٩.

تُلخَّص نظرية "التحدي والاستجابة" للفيلسوف توينبي من خلال كتابه "دراسة التاريخ"، الذي درس فيه وقارن بين ست وعشرين حضارة من حضارات التاريخ البشري، ووضَّح فيه كيفية نشأة الحضارات، وبيّن أن الظروف الصعبة التي تواجه الإنسان أثناء تحضره تستثير همته وقوى التميز والإبداع لديه; إذ إنه يقوم بتحديها ومواجهتها، فإذا نجح في ذلك واستجاب، نشأت الحضارة، ذلك أن عملية الاستجابة تلك هي التي تهدف إلى ارتقاء روحي وفكري للمجتمع، وأن التاريخ البشري هو سلسلة من التحديات والاستجابات.

بعد العرض السابق والمختصر لأبرز نظريات نشوء الحضارة، يمكن القول: إن للحضارات فجراً، وهو عصر بداياتها الأولى، يتبعه عصر من الازدهار حين يسمو العقل البشري، ليأتي بعده عصر الانهيار والاضمحلال الذي يقترن بعدم القدرة على الإبداع والابتكار، فهناك حضارات سادت ثم بادت.

ويخطر في الذهن التساؤل الآتي: هل يمكن أن تتصل حضارة ما بحضارة أخرى؟

نعم يمكن أن تتصل الحضارات ببعضها بعضاً، أو أن تنتقل من مكان إلى آخر، إما بطرق سلمية كالتجارة، وإما بطرق حربية مثل الغزو والحملات العسكرية، فيكون لها تأثير مدمِّر للحضارة، مثل هجوم

---

(٣) مؤرِّخ ومفكر وفيلسوف بريطاني (وُلِد في لندن عام ١٨٨٩، وتُوفِّي عام ١٩٧٥)، تُعدُّ نظريته "التحدي والاستجابة" من أهم النظريات المعاصرة في فلسفة التاريخ، ومما جعل لها هذه القيمة، هو تقويمه الموضوعي لجميع الحضارات، ودراسته بإمعان لكل حضارات العالم قديمها وحديثها. النجم، زياد، توينبي ونظريته التحدي والاستجابة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠٠٩، ص٢٨-٢٩.

المغول على بغداد في القرن الثالث عشر الميلادي، وقد يكون لها تأثير إيجابي، مثل الفتوحات العربية الإسلامية التي انتشرت في بقاع كثيرة من العالم.

رابعاً- مظاهر الحضارة:

تتجلَّى الحضارة في مظاهر عدّة، يمكن ذكرها على النحو الآتي:

١ - المظهر السياسي:

يتضمَّن دراسة نوع الحكم، أهو ملكي أم جمهوري، دستوري أم مطلق، ديمقراطي أم دكتاتوري، برلماني أم غير برلماني، ودراسة نوع الإدارة الحكومية، أهي مركزية أم غير مركزية، ومؤسّساتها المختلفة.

قال "أرسطو": الإنسان حيوان سياسي، أما "ديورانت" فيرى أن الإنسان ليس حيواناً سياسياً عن رغبة منه، وإنما عن اضطرار، لأن العزلة تعرضه للخطر، والإنسان بطبيعته يخشى العزلة ويميل إلى التجمع، إلا أنه يكره القيود، فالمجتمعات البدائية لم يكن يتعاون أفرادها إلا في حالات خاصة، مثل الصيد المشترك أو مجابهة عدو ما، ولما كان الإنسان يتمرَّد على قيود الدولة، فقد ظهرت نظريات عدة حول أصل الدولة، أبرزها:

أ- نظرية الأصل العسكري: التي قوامها أن الحرب تُوجِد الدولة، وتنشئ الزعيم والملك، لأنه عند وقوع الحرب يختار المقاتلون أشجعهم وأكثرهم خبرة وحنكة فيما بينهم لتولي القيادة، أما في زمن السلم فيمارس السلطة الكاهن أو الساحر [١].

ويؤيِّد هذه النظرية "شبنغلر"، الذي يرى أن اجتماع المحاربين في قبيلة أو جنس أو خليط من الشعب بقصد مواجهة قوة خارجية معادية،

---

[١] عبد الله، فيصل، مرعي، عيد، المرجع السابق، ص٣٧.

هو البذرة الأولى للدولة، وبناء عليه فإن الأصل في الدولة هو الحرب، ويلتقي شبنغلر مع "نيتشه"[١] في اعتباره الدولة دولة قوة، إذ يرى أنه من الوظائف الأساسية للدولة القيام بالحروب، والحروب حسب اعتقاده هي التي تحافظ على حيوية وحدة الجماعة، فيقول: "الحرب هي الخالقة لكل ما هو عظيم، وأن كل ما له معنى في تيار الحياة قد وُلِد عن النصر والهزيمة"[٢].

ب- النظرية الاقتصادية النفعية: هي ضرورة في أصل الدولة، لأن العمل في بعض الأماكن مثل وديان الأنهار، لا يمكن أن يكون فردياً بما أنه يتطلَّب إقامة السدود وحفر الأقنية المائية، بل هو عمل جماعي تحت إشراف هيئة تنظِّم العمل، وهذه الهيئة هي الدولة، وهذا ما أدَّى إلى نشوء الحضارة في جنوب بلاد ما بين النهرين، وفي وادي النيل.

ج- نظرية العقد الاجتماعي: شرحها "جان جاك رسو Jean Jacques Rousseau"[٣] في كتابه "العقد الاجتماعي"، فقال: "إن الأفراد تنازلوا عن حقوقهم الطبيعية للمجتمع بوجه الإجمال، وأنه بهذا

---

[١] فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠م) فيلسوف لا عقلاني ألماني، وهو من دعاة "فلسفة الحياة"، من مؤلَّفاته: "هكذا تكلَّم زارادشت"، و"ما وراء الخير والشر"، و"في أصل الأخلاق". معجم علم الأخلاق، المرجع السابق، ص٤٠١-٤٠٢.

[٢] شبنغلر، أسوالد، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيباني، ج١، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص٦-٢٧. ورد اسم "أوزولد شبنغلر" سابقاً أثناء الحديث عن نظريات نشوء الحضارة، وقد أوردناه هنا "أسوالد" التزاماً بعنوان الكتاب.

[٣] جان جاك رسو (١٧١٢-١٧٧٨م) أديب وفيلسوف فرنسي، أثَّرت آراؤه في النظريات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية لرجالات الثورة الفرنسية. معجم علم الأخلاق، المرجع السابق، ص٢١٢- ٢١٤- ٢١٣.

التنازل تشكلت سلطة سياسية في الدول، على أن الأفراد بقوا مشاركين في السيادة، واستردوا تحت حماية الدولة تلك الحقوق التي تنازلوا عنها. فالعقد هو اتفاق متبادل بين الفرد والدولة يربط الفرد من جهة بسائر الأفراد، ومن جهة أخرى بالدولة، ولذلك فإن رغبة الأكثرية أو رغبة المجموع هي مظهر السيادة"[1].

د- نظرية الأصل التاريخي: مفادها أن الدولة نشأت عن طريق اتحاد جماعات وقرى ومستوطنات متفرّقة على نحو تدريجي، تطوَّرت إلى قرى، ومن ثم اتَّحدت مع بعضها بعضاً، وكوَّنت الممالك الأولى.

هـ- نظرية الأصل الديني: تقول هذه النظرية: "إن الدولة نشأت بفعل سلطة دينية نظَّمتها وأوجدتها القوانين، وادَّعت أنها سماوية، ثم وطَّدت حكمها".

و- نظرية العصبية القبلية: نادى بها ابن خلدون; الذي رأى أن الدولة تحدث بالقبلية والعصبية.

٢- المظهر الاقتصادي:

يهتمّ بدراسة مصادر الثروة، ووسائل الإنتاج الزراعي والصناعي، وتبادل المنتَجات، إضافة لعلاقتها بالإنسان وأساليب معيشته، وتأثيرها في مختلف نواحي حياته، سواء أكانت اجتماعية أم فكرية أم فنية. ولابد من الإشارة إلى التطور الذي حصل بانتقال الإنسان من مرحلة جمع القوت والصيد، إلى مرحلة الاستقرار، إلى ممارسة الزراعة وتربية الحيوان، إلى اختراع المحراث واكتشاف النار، وصناعة الكثير من الأدوات المصنوعة من الحجارة والفخار، ثم معرفة المعادن (النحاس

---

[1] حداد، جورج، المدخل إلى تاريخ الحضارة، مطبعة الجامعة السورية، دمشق،١٩٥٣، ص٢٩.

والبرونز والحديد)، ثم إيجاد وسائل النقل وأساليب التبادل التجاري، إضافة إلى اختراع الدولاب والسفن. وكان من نتائج هذا التطور ظهور الفروقات بين الناس، فالزراعة ولَّدت الملكية الخاصة والعبودية، وأوجدت الفقراء والأغنياء، مما أدَّى إلى صراع الطبقات الذي بدوره تطلَّب قيام الدولة من أجل تنظيم طبقات المجتمع وحماية الملكية.

٣- المظهر الاجتماعي:

يتناول المظهر الاجتماعي دراسة تكوين المجتمع ونُظُمه ومؤسساته وطبقاته، ومكانة المرأة والآداب والأخلاق الاجتماعية، وحياة المجتمع ومختلف العوامل التي تؤثّر فيه، فكما أن التنظيم الاقتصادي يهتم بالحاجات المادية للإنسان، كذلك يهتم التنظيم الاجتماعي بالحاجات الروحية والجنسية. يعتقد بعض الباحثين أن الإنسان في المجتمع البدائي في مرحلة الصيد، كان يعيش ضمن جماعات، وليس عائلات، إلى أن ظهرت القبيلة التي تطوَّرت إلى العائلة، وحلَّت محلَّها عندما ظهرت الدولة التي اهتمت بالأمن والنظام، بينما اهتمت العائلة بالمحافظة على استمرار النسل.

أما دور المرأة، فيبدو أن دورها كان رئيساً في حياة العائلة في المراحل البدائية، إذ اهتمت برعاية الأولاد، وفي مرحلة الصيد كانت تقوم بسائر الأعمال، لكن مع التقدم الزراعي وتربية الماشية أخذ الرجل الدور الرئيس، وهكذا تبادلا الأدوار، إذ تطلبت تلك المرحلة ذلك التبادل، إضافة إلى أن الآلهة المؤنَّثة أصبحت مذكَّرة، وصارت المرأة تابعة للرجل، وبدا الزواج مظهراً من مظاهر الملكية، وأصبحت الأسرة الأبوية هي الوحدة الاقتصادية والسياسية والأخلاقية في المجتمع. أما من جهة النظم والقوانين الاجتماعية، فإن هنالك موروثاً من العادات والتقاليد

تتناقله الأجيال عن بعضها، إضافة إلى المبادئ الأخلاقية التي تنظِّم تصرفات الفرد وتمثِّل رادعاً له.

٤- المظهر الفكري:

يهتمُّ المظهر الفكري بدراسة كل ما يتعلَّق بالفكر والإنتاج الفكري من حيث النواحي الدينية والفلسفية والعلمية والأدبية:

أ- **المعتقدات الدينية:** ظهرت المعتقدات الدينية منذ بداية وجود الإنسان، ولعلَّ من أهم أسباب تدين الإنسان الأول هو الخوف، أي الخوف من الموت، ومن ظواهر ليس بمقدوره تعليل حدوثها، وقد اعتقد الإنسان الأول أن هناك روحاً في كل كائن حي تنفصل عن الجسد في حالات المرض والنوم والموت. وقد اتخذت الشعوب القديمة من الأرض والبحر والجو آلهة، وأطلقت عليها أسماء مختلفة، وعبدتها وقدَّستها، إضافة إلى عبادة أشياء كثيرة سماوية وأرضية وبشرية وحيوانية ونباتية، مثل القمر والشمس والأرض والأنهار والجبال والأشجار [١]، وكذلك قُدِّسَ الحيوان، فقد سمَّت بعض القبائل الهندية حيوانها المقدَّس الطوطم "Totem"، ومنه ظهرت كلمة "الطوطمية[٢]"، التي

---

[١] هناك بعض الشعوب البدائية تُؤمن بتجسيد الآلهة في الشجر، لذا يقدِّسونها، للاطلاع أكثر: فريزر، جيمس، الغصن الذهبي المصور- دراسة في السحر والدين، تر: محمد كبة، ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ٢٠١١، ص٢٢١.

[٢] للاطلاع أكثر على الطوطمية داخل بعض القبائل الأسترالية انظر: دوركهايم، إميل، الأشكال الأولية للحياة الدينية- المنظومة الطوطمية في أستراليا، تر: رندة بعث، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، بيروت، ط١، ٢٠١٩، ص٥٩٣.

وصفها دوركهايم[١] بأنها دين أولي. انتشرت الطوطمية بين القبائل الأصلية في أستراليا وأمريكا الشمالية وغيرها، وهي نظام القانون والعادات التي تدور حول الطوطم، بوصفها قوانين وشرائع اجتماعية ودينية، وهي من أقدم أشكال الديانات في المجتمع المشاعي البدائي التي عرفها تاريخ البشرية. فالطوطمية تعني تقديس شيء مثل الحيوان (وأحياناً النبات) لدى جماعة أو قبيلة أو جنس من الشعوب البدائية، ويرمز للجماعة ويحميها[٢].

ب- الآداب: الأدب هو التعبير الفني عن فكر الإنسان وعواطفه ووصف نواحي حياته، ومن فروعه الشعر والنثر وعلوم اللغة والتاريخ بما فيه من حوليات وتراجم ومدوَّنات، والجغرافيا بما فيها من أدب الرحلات، ووصف الأقاليم، وتقاويم البلدان، والفلسفة بمذاهبها ومدارسها، وعلم النفس والاجتماع والأخلاق والمنطق، وتُطلَق كلمة "أدب" أحياناً على المادة العلمية عندما يُعبَّر عنها بطريقة فنية.

يعتقد "ديورانت" أن الأدب نشأ بصورة أغانٍ دينية، أو تعاويذ سحرية يتلوها الكُهَّان أو تنتقل بصورة شفهية [٣]، ثم مع الزمن أخذ الشاعر يتميَّز عن الخطيب وعن المؤرِّخ وعن الفيلسوف، فاتخذَّ كلٌّ منهم خطاً

---

[١] إميل دوركهايم (١٨٥٨-١٩١٧) أحد روّاد علم الاجتماع والأنتروبولوجيا، من مؤسِّسي المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع. انظر: عرابي، بلال، (دوركهايم)، الموسوعة العربية، المجلد التاسع، دمشق، ١٩٨١م، ص:٤٢٩.

[٢] الصالح، عبد الحميد، الموسوعة العربية، المجلد الثاني عشر، دمشق، ص٦٤٦ وللاطلاع أكثر: فرويد، سيغموند، الطوطم والتابو، تر: بو علي ياسين، ط١، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٨٣، ص١٩٤.

[٣] حداد، جورج، المرجع السابق، ص٤٦.

مختلفاً عن الآخر.

ج- العلـوم: تُقسَـم العلـوم إلـى أنـواع عـدة، فهنـاك العلـوم الطبيعيـة، والعلوم الرياضية، والعلوم الفيزيائية، والعلوم الطبية وغيرها، كما تُقسَم إلى علوم نظرية مثل الرياضيات، وعلوم تطبيقية مثل الطب والهندسة.

ويظهر، كما قال "هربرت سبنسر Herbert Spencer [1]، "أن العلوم بدأت كما بدأ الأدب عند الكُهَّان، وأن من أصولها تلك الملاحظات الفلكية المتعلقة بالأعياد الدينية، وأنها كانت تُحفَظ أولاً في المعابد، ثم انتقلت إلى الأجيال"[2]، وهكذا انتقلت عبر الزمن بوصفها جزءاً من التراث الديني، ونتيجة للحاجة العلمية إليها.

٥- المظهر الفني:

يشمل دراسة الفنون بأنواعها المختلفة، مثل العمارة والرسم والنحت والغناء والموسيقا وغيرها، وقد كان الفن منذ بداياته الأولى لخدمة الآلهة والكهنة والمعتقدات الدينية، ثم استُثمِر لخدمة الملك والحاكم، ولم يسلك منحىً مستقلاً إلا في العصور الحديثة. ويمكن القول: إن الإنسان يرى الشيء جميلاً إذا أشبع رغباته وحاجاته، وكما قال ديورانت: "إن الشيء

---

[1] هربرت سبنسر (و١٨٢٠- ت ١٩٠٣): فيلسوف وعالم اجتماع إنكليزي، وهو أحد واضعي أساسيات المذهب الموضوعي، وصاحب عبارة: "البقاء للأصلح" التي تصف خاصة من خصائص التطور في الكائنات الحية والمجتمعات. لمزيد من المعلومات عن مذهب سبنسر ومؤلفاته انظر: متس، رودلف، الفلسفة الإنجليزية في مائة عام، ترجمة فؤاد زكريا، مراجعة زكي نجيب محمود، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٤م، ص٨٦،٨٧. صدر كتاب "الفلسفة الإنكليزية في مائة عام" باللغة الألمانية عام ١٩٣٥م، أما النسخة المترجمة فصدرت عام ١٩٦٣م. وانظر أيضاً: معجم علم الأخلاق، المرجع السابق، ص٢٢١-٢٢٢.

[2] حداد، جورج: المرجع السابق، ص٤٩.

لا يرضي الإنسان أو يسرُّه لأنه جميل، بل إن الإنسان يُسمِّيه جميلاً، لأنه يُسَرُّ ويُعجَبُ به". وقد بدأ الفن من منطلق تمجيد الإنسان لجسمه، أو جسم المرأة التي يميل إليها، كذلك تصبح الطبيعة جميلة إذا اقترنت بمشاعر الإنسان وذكرياته، يقول جورج حداد: " فالفن إذاً هو خلق الجمال والتعبير عن الشعور والفكر بشكل يظهر جميلاً أو رفيعاً، وهذا الشكل الجميل يمكن أن يسرَّنا بانطباقه على ما نشعر به في أنفسنا أو فيما حولنا من تغير، وقد يسرُّنا هذا الشكل لما فيه من تناظر، أو بلونه، أو بواقعيته وتقليده للأشياء بصورة صادقة. من هذه المصادر تأتي مظاهر الفن المختلفة من رسم وبناء، وغناء وموسيقا، ورقص وتمثيل وغير ذلك[١]".

يبدو أن أول مصادر الفن بدأت عند ميل الإنسان إلى الاهتمام بلباسه وزخرفته، فالحلي والمجوهرات كانت من أقدم عناصر المدنية، وكذلك أصبح الخزف فناً قبل اختراع دولاب الخزف، وظهرت بدايات الرسم الأولى عند الإنسان القديم عندما بدأ يرسم صوراً لبعض الحيوانات على جدران الكهوف والصخور، ومن ثم على الأواني، وتبعه النحت الذي خدم مكنونات الإنسان في صنع الأشكال والتعاويذ والطوطم من الخزف، وقد عبَّر الإنسان عن الجمال أيضاً من خلال فن بناء المعابد، ومن ثم القصور. أما الغناء والرقص فقد عرف الإنسان الغناء قبل أن يتعلَّم الكلام، وغالباً ما رافق غناءه (فرحاً أو حزناً) الرقص، وصاحب ذلك العزف على أدوات معينة، وكذلك التمثيل بالشكل الإيحائي (في البدايات).

---

(١) حداد، جورج، المرجع السابق، ص ٥١.

مما سبق يمكن ملاحظة أن المظاهر الحضارية السابقة تؤثِّر في بعضها بعضاً، وأنها كانت موجودة عند الإنسان البدائي، باستثناء الكتابة والدولة، ولا شك أن هناك مراحل من التطور بين الإنسان البدائي والإنسان المتمدن، وأن الإنسان المعاصر مدين بهذه الحضارة للإنسان البدائي فيما ورثه عنه عبر الزمن من مظاهر، وبعد مراحل متعاقبة من التطور بدأت تثمر الإنجازات، التي كان من أبرزها "الكتابة"، التي مثَّلت منعطفاً مهماً في تاريخ البشرية.

خامساً- الكتابة:

بما أن الحضارة هي الثقافة والمعلومات التي يمكن نقلها، فإن الكتابة تُعدُّ من أهم وسائل النقل التي تتحدَّى المكان والزمان، فهي أهم وسيلة لحفظ حضارة الانسان، وحيثما وجدت الحضارة وجدت القراءة والكتابة، وأصبحت اللغة المكتوبة وسيلة للحضارة والعلم والتربية، وتُعدُّ الكتابة من أهم الإنجازات الحضارية للإنسانية; إذ بدأت على الطين، ثم على البردي، ثم على الورق، إلى أن وصلت في عصرنا الراهن إلى الكتابة الإلكترونية عبر مراحل زمنية متطورة.

إن الكتابة والحديث الشفوي- الكلام أو اللغة المنطوقة- يمثِّلان الأنواع الأساسية للتخاطب، ويمكن أن نضيف إليهما الحركات الإيمائية، لكن الفرق بينهما أن الحديث الشفوي (وسيلة التخاطب) يحمل طابعاً آنياً محدوداً في الزمان والمكان، لأنه يقتضي القرب المكاني بين المتحدِّث والمستمِع، ومن ثم فإن التخاطب ينتهي مباشرة بعد إنجاز الفعل، أما الكلمة المكتوبة فإنها تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتمتلك إمكانية البقاء لمدة طويلة، لذلك كانت الكتابة وسيلة للتخاطب تساعد

الإنسان على تجاوز الزمان والمكان [١].

كما أن الكتابة توفِّر للمعرفة البشرية صفة الدوام، وتُخبِرنا عن حضارة الشعوب، وعن هويتها وثقافتها، ومن هنا لابد أن نشير إلى أنه ظلت البراهين على حضارة الإنسان القديم قليلة، حتى اكتُشِف عصر الكتابة ووُضِعت الوثائق المكتوبة. ولهذا السبب اهتم القدماء بالكتابة فنسبها المصريون إلى الإله "تحوت Thoth"، الذي يُعدُّ مخترع جميع وسائل الثقافة، وفي بابل كان الإله "نبو Nebo" بن مردوخ إله الكتابة، وكذلك اعتقد "الصينيون القدماء" و"الهنود" وغيرهم بأصل إلهي للكتابة، وفي الأساطير اليونانية نُسِبَت الكتابة إلى "هرمس". في المجمل كان للكتابة مفعول سحري في الناس [٢].

ونظراً لأهمية اختراع الكتابة في تاريخ البشرية جُعِل زمن اختراعها حداً فاصلاً بين العصور التي سبقته، والعصور التي تلته، فالأولى سُمِّيت عصور ما قبل الكتابة أو ما قبل التاريخ، والثانية سُمِّيت العصور التاريخية. ارتبطت الكتابة بوصفها جزءاً من الثقافة ارتباطاً وثيقاً بالتطور الثقافي العام للإنسانية، ومثَّلت مهمة عظيمة في التاريخ المبكِّر للإنسانية إلى جانب المنجزات العظيمة الأخرى، وقد حظيت

---

[١] انظر: فريدريش، يوهانس، تاريخ الكتابة، ترجمة: سليمان الضاهر، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤، ص٣٣. إضافة إلى بارنز، هاري إلمر، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، تحقيق: سعيد عاشور، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ص٥٦٠.

Gelb, Ignace Jay, A Study of Writing, University of Chicago Press, 1963, p: 319.

[٢] حداد، جورج، المرجع السابق، ص٥٥.

ممالك الشرق الأدنى القديم من ناحية، والدول المتحضِّرة في جنوب أوروبا مثل اليونان وإيطاليا من ناحية أخرى، بأهمية خاصة سواء على مستوى تطور الثقافة الإنسانية، أو على مستوى تطور الكتابة أيضاً. قدَّم الشرق الأدنى القديم للعالم أول كتابتين مهمتين، وهما: ١- الكتابة المسمارية، ٢- الكتابة الهيروغليفية المصرية، وإضافة إلى ذلك نشأت في الشرق الأدنى الكتابة الأبجدية [١].

واستناداً إلى ما ورد سابقاً، وانطلاقاً من أهمية الكتابة ودورها في الحضارة الإنسانية علينا الإجابة عن التساؤلات الآتية: متى وكيف بدأ اكتشاف الكتابة، ومَن أول من ابتكرها؟ وما هي الكتابة المسمارية التي أصبحت فيما بعد ثقافة؟ وما مراحل تطورها؟ وما المجموعات اللغوية العالمية المعروفة؟

أ- **الاكتشاف:** بدأت الاستكشافات الأوروبية لحضارة بلاد الرافدين على يد المغامِر الرحَّالة "بنيامين الطليطلي"[٢]، في القرن الثاني عشر الميلادي، حين سافر إلى "الموصل" عبر "فلسطين" و"الصحراء السورية"، فكان الأوروبي الأول الذي شاهد التلَّين [٣] الكبيرَين عبر نهر

---

[١] فريدريش، يوهانس، المرجع السابق، ص٥٥.

[٢] حاخام يهودي وُلِد في فرنسا (القرن ١٢م)، وكان أول رحَّالة أوروبي يقترب من حدود الصين. انظر: مرعي، عيد، رحلة في عالم الآثار، مطبعة روافد للثقافة والفنون، دمشق، ٢٠١٠، ص٤٣.

[٣] في مدينة نينوى (العاصمة الآشورية) تلَّان أثريان كبيران، الأول هو تل التوبة (تل النبي يونس) في الجنوب، والتل الثاني تل قويونجيق في الشمال وهو الأكبر. انظر مرعي، عيد، المرجع نفسه، ص٢٨٣.

"دجلة" من "الموصل"، حيث "نينوى[١]" عاصمة "الدولة الآشورية".

ومن الجدير بالذكر أسبقية الجغرافيين العرب في العصور الوسطى في معرفة المدن القديمة في المنطقة، قبل الرحَّالة المغامر بنيامين، تلك المدن التي لم تكن معروفة له [٢]، ودليلنا على ذلك ما قدَّمه الجغرافيون العرب من كتب مازالت محفوظة حتى الآن، نذكر أبرز اثنين منهم "اليعقوبي"[٣]، الذي تيسَّر له تأليف كتابه الثمين في الجغرافيا "البلدان"، أو في الجغرافيا التاريخية، الذي تضمَّن معلومات قيمة عن الأمصار والمدن والقبائل والاقتصاد، وقد أثَّرت هذه المعلومات بوضوح في كتابه المسمَّى "تاريخ اليعقوبي"، وكان فهم اليعقوبي للتاريخ العالمي يتناول تاريخ الأنبياء وتاريخ الفرس والجاهلية وتواريخ الأمم الأخرى القديمة من آشورية وبابلية وهنود ويونان ورومان وفراعنة وبربر وحبش وزنج وترك [٤].

---

(١) أقدم وأشهر مدينة آشورية، تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة، مقابل مدينة الموصل الحديثة، كانت عاصمة الإمبراطورية الآشورية، شيَّد فيها سنحاريب وآشور بانيبال قصوراً زُيِّنت بألواح جدارية عظيمة. انظر: مرعي، عيد، المرجع السابق، ص ٢٨١.

(٢) الجبوري، علي ياسين، قاموس اللغة الأكدية – العربية، ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، دار الكتب الوطنية، ٢٠١٠، ص٧.

(٣) أحمد بن إسحق (أبو يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (...– بعد ٩٠٥م) مؤرِّخ جغرافي كثير الأسفار، من أهل بغداد. الزركلي، الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ج١، ٢٠٠٢، ص٩٥. وينظر أيضاً: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، ط١، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، م١، ٢٠١٠.

(٤) البيطار، عبد الرحمن، الموسوعة العربية، المجلد الثاني والعشرون، دمشق، ص٥٢٦.

والثاني: "المسعُودي"[١] الذي لا يقلُّ شأناً عن سابقه اليعقوبي، فقد جمع من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبق إليه أحد، وذلك في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، حيث وصف فيه الخليقة وقصص الأنبياء ووصف البحار والأرضين وما فيهما من العجائب وتواريخ الأمم القديمة من الفرس والسريان والرومان والإفرنج والعرب القدماء وأديانهم وعاداتهم ومذاهبهم وأوابدهم [٢].

ثم مرَّت قرون عدة على ملاحظات "بنيامين" إلى أن جاء رحَّالة آخر في القرن السابع عشر عام ١٦٢١م، وهو الإيطالي "بيترو ديلا فالي"[٣]، الذي حدَّد موقع "بابل" على نهر "الفرات" قرب مدينة "الحلة" جنوب "بغداد"، واستنسخ بعض "النصوص المسمارية"، وحملها إلى إيطاليا مع نسخ لنصوصٍ مسمارية أخرى من مدينة " بيرسيبوليس "[٤]،

---

[١] المسعودي (و٨٩٦– ت٩٥٧م) مؤرِّخ ورحَّالة وبحَّاثة من أهل بغداد، أقام بمصر وتُوفِّي فيها. الزركلي، الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، الجزء الرابع، بيروت، ٢٠٠٢، ص٢٧٧.

[٢] وضَّح المسعودي ذلك في باب "ذكر جوامع أغراض هذا الكتاب" من الجزء الأول في كتابه "مروج الذهب في معادن الجوهر"، ط١، المكتبة العصرية، الجزء الأول، بيروت، ٢٠٠٥، ص٩–١٠. وينظر أيضاً: الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط– تركي مصطفى، ط١، دار إحياء التراث العربي، الجزء الواحد والعشرون، بيروت، ٢٠٠٠، ص٦.

[٣] رحَّالة إيطالي سافر إلى بلاد فارس والهند، وُلِد في روما في ١١نيسان عام ١٥٨٦، وتُوفِّي فيها في ٢١ نيسان عام ١٦٥٢م. انظر: مرعي عيد، المرجع السابق، ص٣٢.

[٤] مدينة قديمة (تختي جمشيد) في شمال شرقي مدينة شيراز في منطقة فارس جنوب غربي إيران، على الرغم من اكتشاف آثار فيها تعود إلى عصور ما قبل التاريخ،

وقد ضَمّن "بيترو ديلا فالي" مذكراتِه هذه المستنسَخَات، لكن لم تسترعِ انتباه الباحثين إلا عام ١٦٧٤م، عندما نشر الفرنسي "ج. كاردن" نسخة واضحة من كتابات بيرسيبوليس، إذ أصبح واضحاً بأن هذه الكتابة مكوَّنة من علامات محفورة بشكل زاوية، فسُمِّيت "بالكتابة المسمارية" لشبهها بالمسامير. وفي عام ١٧٦١م ظهر نوع مختلف من الاكتشافات، حين جاءت أول رحلة علمية إلى غرب آسيا كان قد بعثها ملك الدانمارك، وكان من بين أعضاء الرحلة الخمسة "كارستن نيبور"، الذي عاد حياً، وكان دقيقاً في عمله، فاستنسخ عدداً كبيراً من النصوص المسمارية من بيرسيبوليس ومن مواقع أخرى في بلاد فارس، نشرها عام ١٧٨٨م.

في منتصف القرن التاسع عشر نُقِّبت تُلُول بلاد الرافدين، وقد قاد عملية التنقيب الفرنسي "بول إيميل بوتا"[١] في "نينوى" عام ١٨٤٢م، والإنكليزي "أوستن هنري لايارد" [٢]في كلخو (نمرود)[٣] عام ١٨٤٥م،

إلا أن النقوش تشير إلى أن بناء المدينة قد بدأ في عهد داريوس الأول الكبير. مرعي، عيد، المرجع السابق، ص١٤٦.

(١) عالم آثار ودبلوماسي فرنسي، عمل قنصلاً لفرنسا في الموصل عام ١٨٤٢م، حيث بحث عن المدن الآشورية البائدة، والتي عرفت آنذاك من خلال النصوص المسمارية. انظر: مرعي، عيد، المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٢) ولد عام ١٨١٧م في باريس، نقَّب في نمرود، وله الفضل في اكتشاف مدينة كلخو القديمة، والعثور على خمسة قصور آشورية، وعدد من المنحوتات الجدارية فيها، وتُوفّي عام ١٨٩٤م. انظر: مرعي، عيد، المرجع نفسه، ص٥٧.

(٣) مدينة آشورية، تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة، جنوب شرقي مدينة الموصل، كانت عاصمة الدولة الآشورية الحديثة في القرن التاسع قبل الميلاد. انظر: مرعي، عيد، المرجع نفسه، ص ٢٥٢.

وقد شحنا بعض القطع المختارة إلى كل من فرنسا وإنكلترا، حيث احتشدت الناس في المتاحف لرؤيتها، وهكذا شاهد الأوروبيون بأم أعينهم، ولأول مرة، التماثيل والمنحوتات الآشورية.

لقد لفت "نيبور" وزملاؤه انتباه الكثير من الباحثين في عدد من البلاد إلى "النصوص المسمارية" التي جُلِبت إلى أوروبا، وهكذا بدأ العمل لحل هذه الرموز. كما يعود الفضل إلى العالم الألماني "جورج فريدريش غروتيفيند[١]"، الذي أحدث تقدماً في هذا المجال منذ عام ١٨٠٢م، وكذلك إلى اللغوي البريطاني "هنري راولنسون[٢]"، الذي أفاد من تعيينه في "كرمنشاه" وسيطاً بين القبائل البختيارية وحكومة الشاه فيما يخصُّ الحدود التركية – الإيرانية; فقام بزيارة نقش صخري على حافة جبل "بهيستون" قرب "كرمنشاه"، يحتوي على أطول نقش يعود إلى الملك الأخميني "داريوس"، مدوَّناً بالخط المسماري، وبثلاث لغات هي: "الفارسية القديمة" و"العيلامية والبابلية".

وما بين عامي ١٨٣٥م – ١٨٣٧م نجح "راولنسون" باستنساخ كامل النص "الفارسي" و"العيلامي"، لكن لم يتمكَّن من إكمال "النص البابلي"، إلا أنه تمكَّن فيما بعد من معرفة أسماء الملوك الفرس بالخط الفارسي القديم، ومن استخدام قيم الحروف التي حصل عليها من تلك الأسماء، فوظَّفها في عمله، إلى أن توصَّل في النهاية إلى ترجمة النص، فقدَّمه

---

(١) لغوي ألماني يُعدُّ أول من فكَّ رموز الكتابة المسمارية، وُلِد في هانوفر ١٧٧٥م، درس اللغة اللاتينية والإغريقية، تُوفِّي ١٨٥٣م. انظر: مرعي، عيد، المرجع السابق، ص ٤٤.

(٢) دبلوماسي ولغوي بريطاني، له الفضل في فكّ رموز اللغة الفارسية القديمة. انظر: مرعي، عيد المرجع نفسه، ص٣٢-٣٣.

في عام ١٨٣٧م إلى "الجمعية الملكية الآسيوية".

فيما بعد أثمرت محاولات "راولنسون"، وقدَّم ترجمة للنص البابلي (وهو النص نفسه الذي لم يتمكَّن من ترجمته سابقاً) إلى "الجمعية الملكية الآسيوية" في عام ١٨٥٣م، فقرَّرت هذه الجمعية حينها أن تُجري اختباراً في عام ١٨٥٧م من أجل حل رموز الخط المسماري، واختيرت مجموعة باحثين، وأُرسِلت إليهم نسخ مكرَّرة من نص تاريخي للملك "تيجيلات بيليصر الأول"، كانت قد اكتُشِفت في "قلعة الشرقاط" (مدينة آشور) جنوب "الموصل"، فكانت النتيجة مقنعة مع فروقات بسيطة، وهكذا كُشِف عن سر هذه الكتابة، ومعها تأريخ بلاد الرافدين وحضارتها[1].

يمكن أن نستخلص مما سبق النقاط الآتية:

- "للجغرافيين العرب" سبق في معرفة المدن القديمة في منطقة بلاد الرافدين القديمة، منذ العصور الوسطى.
- كانت بداية الاستكشافات الأوروبية لحضارة بلاد الرافدين على يد الرحَّالة المغامر "بنيامين الطليطلي" في القرن الثاني عشر الميلادي.
- تمكَّن الرحَّالة الإيطالي "بيترو ديلا فالي"، في عام ١٦٢١م، من تحديد موقع مدينة "بابل"، ونسخ بعض النصوص المسمارية إضافة إلى نصوص من مدينة "بيرسيبوليس".
- نشر الفرنسي "ج. كاردن" في عام ١٦٧٤م نسخة واضحة من كتابات بيرسيبوليس ، التي سُمِّيت حينها "الكتابة المسمارية" لشبهها

---

[1] الجبوري، علي ياسين، المرجع السابق، ص٧-٨.

مرعي، عيد، تاريخ لغات المشرق العربي القديم: اللغات السامية، ط١، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١٩، ص٢٥-٢٨.

بالمسامير.

-انطلقت في عام ١٧٦١م أول رحلة علمية (نوع مختلف من الاكتشافات)، لم تكن مغامرة كما كان الأمر في البدايات، وبرز فيها "كارستن نيبور" الذي استنسخ عدداً كبيراً من النصوص بصورة دقيقة، ونشرها في عام ١٧٨٨م.

- نقَّب في تلال بلاد الرافدين بدقة متناهية كلٌّ من الفرنسي "بول إميل بوتا"، والإنكليزي "أوستن هنري لايارد"، وبفضلهما عُرِضت بعض القطع في متاحف فرنسا وإنكلترا، وتعرَّف الناس إلى تلك الحضارة القديمة.
- عمل العالم الألماني "جورج فريدريش غروتيفيند" منذ عام ١٨٠٢م على حل رموز الكتابة المسمارية، وقد أحدث تقدماً في ذلك المجال.
- تمكَّن البريطاني "هنري راولنسون" بعد عمل دقيق من ترجمة النص المسماري، الذي يعود إلى الملك الأخميني "داريوس"، ثم قدَّمه إلى "الجمعية الملكية الآسيوية" في عام ١٨٣٧م.
- تمكَّنت "الجمعية الملكية الآسيوية" في عام ١٨٥٧م من إجراء اختبار لمسألة حل رموز الخط المسماري، وكانت النتيجة الكشف عن سر هذه الكتابة، ومعها تاريخ بلاد الرافدين وحضارتها.

ب - **ابتكار الكتابة الأولى:**



الرموز من تل أسود

Schmandt– Besserat– Denise, The Earliest Uses of Clay in Syria, P. 31.

بيَّنت نظرية "الرموز Tokenism"[١] أن ابتكار الكتابة الأولى يعود إلى العصر الحجري الحديث، ومفاد هذه النظرية أنه قد ظهرت مواد طينية هندسية صغيرة (أُطلِق عليها اسم الرموز)، في عدد من المواقع السورية (المريبط وأبو هريرة وتل أسود وتل الغريفة والسويات الدنيا في رأس الشمرة وتل براك وتل حلف وغيرها)، وكذلك في بلاد الرافدين وفلسطين وإيران والأناضول[٢]، تعود زمنياً إلى الألف التاسع قبل الميلاد، استُعمِلت من أجل حالات التوثيق فيما يخص الشؤون العائلية والتجارية، وكانت تُحفَظ في أوعية أو سلال، أو تُثقَب وتُشدُّ بخيط

---

[١] يمكن الاطلاع على أهم المكتشفات من خلال دراسات الباحثة دينيس شماندت، ومقالة مراجعة ل هنري دي كونتسون عن كتابها De Contenson Henri, Denise Schmandt-Besserat How Writing came about [review], Syria. Archéologie, Art et histoire Year 1998,75, p: 335–336.

[٢] البني، عدنان، المدخل إلى قصة الكتابة في الشرق العربي القديم، دمشق، ٢٠١١، ص١١.

يجمعها، ومن ثم أصبحت تُحفَظ في كرات طينية مجوَّفة، وعندما يُراد الاطلاع على محتواها وقت تسليم المواد تُكسَر تلك الكرات، وفي مرحلة لاحقة أصبحت الكرات الطينية تحمل نقوشاً تمثِّل أعداد "الرموز" المحفوظة داخلها، وتدريجياً تطوَّرت هذه النقوش لتكون معبرة عن معنى "الرموز" داخل الكرة، أي المادة التي أُريد تحديد عددها من خلال "الرموز"، وذلك برسم الشكل المادي لما أريد توثيق عدده. وهكذا لم تعد النقوش على الغلاف أو الكرة الطينية مقتصرة على العدد، وإنما شملت المادة التي يرمز إليها العدد، وبذلك انتفت الحاجة لوجود "الرموز" داخل الكرات الطينية التي تحوَّلت بعد خلوها من "الرموز" المجسَّمة في داخلها إلى رُقُم طينية في المرحلة الأولى من تأريخ الكتابة، وهي المرحلة الصورية. وهكذا عُدَّت "الرموز" حسب هذه النظرية، تجسيداً لنظام واسع الانتشار قاد إلى ابتكار الكتابة في عصر أوروك الأخير في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد [١].

لم تكن الكتابة عندما بدأت في بلاد ما بين النهرين، كما كان يُعتقَد سابقاً، اختراعاً مفاجئاً وعفوياً، بل كانت نتيجة خبرة امتدت لآلاف السنين في التعامل مع الرموز.

وتأكيداً للنظرية السابقة، كانت هناك مكتشَفات مهمة في موقع الجرف الأحمر [٢] (الذي يقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات في سورية)،

---

[١] حنون، نائل، دراسات في علم الآثار واللغات القديمة، ٢ج، هيئة الموسوعة العربية، دمشق، ٢٠١١، ج١، ص١٨-١٩.

[2] يمكن الاطلاع على أهم المكتشفات من خلال دراسات الباحث دانييل ستوردور عن موقع الجرف الأحمر Stordeur, Danielle, New Discoveries in Architecture and Symbolism at Jerf el Ahmar (Syria), 1997-1999، p:1-4. F. Abb_es a, L. Bellot-Gurlet b, M.-C. Cauvin c

أبرزها وجود قطع صغيرة من الحجارة البازلتية، عليها نقوش ورسوم مختلفة تمثِّل محاولة لتدوين الأفكار من العصر الحجري الحديث، ولما كان الموقع يعود إلى الألف العاشر قبل الميلاد، فإن ابتكار الكتابة كان متأصلاً في سورية أيضاً.



رموز ونقوش حجرية من الجرف الأحمر. عمار عبد الرحمن، الموسوعة العربية، م٤

ج- الكتابة المسمارية (شكلها ومواد كتابتها):

تُعدُّ الكتابة المسمارية مبتكَرة، لا يمكن إرجاعها إلى أية كتابة

S. Delerue d, S. DubernetG. Poupeau d,*, D. Stordeur, Provenance of the Jerf el Ahmar (Middle Euphrates Valley, Syria) obsidians, Journal of Non-Crystalline Solids 323 (2003), p: 162–166.

وانظر أيضاً: ستوردور، دانييل، ولوكس، جورج، الجرف الأحمر (حلب)، تاريخ سورية في مئة موقع أثري، إعداد يوسف كنجو واكيرا تسونيكي، تعريب يوسف كنجو، ط٢، مؤسسة الصالحاني، دمشق، ٢٠١٨، ص٥٠-٥٣.

أخرى، لأنها تطوَّرت برموزها الخاصة بها، بينما الكتابة اللاتينية ليست مستقلة من حيث الأصل، لأنها نشأت تقليداً للكتابة اليونانية في إيطاليا القديمة، ومن هنا تُعدُّ الكتابة اللاتينية كتابة موروثة أو مقتبَسة.

دُوِّنت الكتابة المسمارية على ألواح الطين (وهي المادة الأكثر شيوعاً والأسهل استخداماً منذ القديم)، كانت تُصنَع عجينة تلك الألواح الطينية من التراب النظيف الخالي من الشوائب والمواد العالقة، ثم يُضغَط عليها لتأخذ شكل لوح صغير، وهكذا يُحضَّر الرقيم الطيني (اللوح) الجاهز للكتابة.

ما الأداة التي اختيرت للكتابة؟

كانت في الغالب من القصب (المتوفِّر في البيئة المسكونة) أو من الخشب، وفي حالات قليلة كان يُستعمَل العظم أو المعدن، إذ كانت تُختار قطعة قصب قوية، ثم تُشذَّب نهايتها لتتخذ شكلاً مائلاً مناسباً للكتابة، وبعد ذلك يُضغَط بهذه القصبة المدبَّبة النهاية على اللوح الطيني الطري المراد الكتابة عليه، لكن يبدو أنه فيما بعد لم تعد هناك حاجة لقصبة مدبَّبة النهاية، بل اكتُفي بقطع منها عريضة النهاية، يكفي أن تُمسَك على نحوٍ مائل لينغرز جزء من طرفها في الطين، ويأخذ شكل مثلث، أما الطرف الثاني فينغرز بهدوء ليرتفع الطرف الأول، وبذلك يخلِّف شكل خط غائر قليلاً في اللوح الطيني، وفي النهاية يرسم ذلك القلم (القصبة) شكل مسمار مثلث الرأس على الرقيم الطيني، ومن هنا عُرِفت العلامات المغروزة في الطين بالكتابة بالمسمارية.

تجدر الإشارة إلى أنه استُعمِلت مواد أخرى للكتابة غير الألواح الطينية، وذلك تبعاً للزمان والمكان، حيث استُعمِل الحجر، والمعادن مثل الذهب والفضة والبرونز، والخشب، والبردي، والورق، كل ذلك من

أجل إنجاز عملية التدوين التي يتم عبرها نقل الإخبار اللغوي من حيز المسموع إلى حيز المرئي.

لقد استُخدِمت الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين وما حولها لأكثر من ثلاثة آلاف سنة، ثم بطل استخدامها، واختفت ألواحها عن الأنظار في بطون النصوص والمواقع الأثرية، حتى آن لها أن تظهر من جديد، وتُفكَّ رموزها في القرن التاسع عشر الميلادي من تاريخنا الحديث. لقد حفظت لنا عشرات الألوف من الكتابات المسمارية المكتشَفة حتى الآن علوم سكان بلاد الرافدين القدماء ومعارفهم، وعكست جوانب مهمة من حياتهم المادية والفكرية، وكشفت عن وجه حضارة عدّها الباحثون إحدى أقدم الحضارات البشرية وأكثرها أصالة، وكانت الكتابة المسمارية مظهراً من مظاهر وحدتها، ودليلاً على مدى قوتها ورسوخها وعمق تأثيرها فيما حولها من الحضارات المعاصرة لها واللاحقة بها.

في الخلاصة: تُعدُّ الكتابة المسمارية أهم طريقة خطية استُعمِلت طوال العهود القديمة في الشرق القديم، ويعود اسمها، كما مر سابقاً، إلى شكل العلامات التي ظهرت في النصوص التي تعرَّف إليها المستشرقون الأوائل، إذ كانت مركَّبة من عناصر على هيئة مسامير أو زوايا (من اللاتينية cuneus)، ومنذ ذلك أظهر لنا اكتشاف وثائق أقدم أن هذا المظهر من الكتابة لم يكن بدائياً، بل كان يمثِّل المرحلة الأخيرة من تطور هذه الكتابة، إلا أن الناس استمرت بإطلاق اسم "الكتابة المسمارية" على النظام بمجمله.

د- الثقافة المسمارية:

استخدمت "النظام الكتابي المسماري" شعوب وقبائل متنوعة ومتباعدة جاءت بعد مخترعيه، ولاسيما السومريين ثم الأكاديين

والعيلاميين والعموريين والحثيين والحوريين وغيرهم، مما يعني أن الكتابة المسمارية انتشرت على مساحة جغرافية تشمل العراق وسورية والأناضول وإيران وشبه الجزيرة العربية وخليجها ومصر. إذن، أفادت من هذا النظام الكتابي المسماري شعوب مختلفة ومتباعدة جغرافياً، ولغاتهم متنوعة ومختلفة كلياً عن بعضهم بعضاً، ويمكن القول: إنه تقبع خلف هذا التنوع والتباعد ظاهرة "الثقافة المسمارية"، أي ثقافة نظام الكتابة المسمارية الموحَّد، فكانت القاسم المشترك بين هذه الشعوب والبلدان خلال ثلاثة آلاف عام من التاريخ.

ومن المؤكد أن الشعوب الأخرى التي قدمت إلى المنطقة قد حملت معها تقاليدها الخاصة، إلا أنها كانت تتبنَّى دائماً ومن دون تحفظ تقريباً الثقافة والحضارة المكتوبة، والمدنية الموروثة من سابقيها، لتنتهي إلى الانخراط والذوبان في هذا القالب المشترك. هنا لا بد من تأكيد أن الكتابة المسمارية والتقاليد المرتبطة بها جميعاً قد وحّدت ونسّقت الحضارة في أرجاء المشرق القديم الغني والمتنوع.

هـ- مراحل تطور الكتابة المسمارية:

تُعدُّ الكتابة أهم من اللغة لأنها اختراع، بينما اللغة ميزة بشرية، وقد اندثرت لغات عدة، لا يُعرف عنها شيءٌ، لأنها لم تُدوَّن.

مرَّت الكتابة المسمارية خلال تاريخها الطويل بأربع مراحل من التطور هي:

أولاً: مرحلة الكتابة التصويرية Pictography:

وهي أولى مراحل الكتابة، حيث كان يُعبَّر عن الأشياء المراد ذكرها بالصور، فمثلاً كانت تُنقَش الدائرة لتُمثِّل الشمس، وتُرسَم السنبلة لتُمثِّل الحبوب، والنجم ليمثِّل الكواكب، وتمثِّل هذه المرحلة النصوص المكتشَفة

في مدينة أوروك (الطبقة الرابعة)، التي يعود تاريخها إلى نحو ٣٣٠٠ ق.م، وتجدر الإشارة إلى أن الكتابة التصويرية تختلف عن الرسوم، فهي تعبِّر عن شيء ما من خلال الصورة المرسومة.

ثانياً: مرحلة الكتابة الرمزية Ideography

تطوَّرت الصورة في هذه المرحلة إلى رموز أو إشارات مسمارية لا تعبِّر عن المعاني الأصلية للصور المرسومة فحسب، بل أكثر من ذلك، إذ أصبحت تعبِّر عن أفكار ومعانٍ لها علاقة بالمعنى الأصلي للشيء المرسوم، فالرمز الدال على الشمس تعدَّى ذلك، وأضحى يعبِّر عن ضوء النهار أو اليوم، وللتعبير عن معانٍ عدة صارت تُدمَج إشارتان أو أكثر للحصول على معنى جديد. مثل:

فم + خبز = يأكل

رجل+ كبير = ملك

وتُسمَّى الصور المستعمَلة هنا صوراً فكرية أو رمزية.

ثالثاً: مرحلة الكتابة المقطعية أو الصوتية Phonetics

أصبحت الرموز المستخدَمة في هذه المرحلة ذات قيمة صوتية تعبِّر عن كلمات، أو تمثِّل جزءاً من كلمة، فهناك مجموعة نصوص اكتُشِفت في مدينة أور، وتعود إلى ٢٨٠٠ ق.م، وهناك مثال آخر لهذه المرحلة هو الكتابة الصينية، التي ماتزال حتى الآن كتابة مقطعية خالصة.

رابعاً: مرحلة الكتابة الأبجدية Alphabet

تُعدّ هذه المرحلة تتويجاً للمراحل السابقة، إذ تمكَّن الإنسان الأوجاريتي من الاستفادة من نظامَي الكتابة المسماري الرافدي والهيروغليفي المصري، فاخترع أول أبجدية مؤلَّفة من ثلاثين حرفاً مسمارياً، يمثِّل الحرف الواحد فيها صوتاً لا مقطعاً، ويمكن أن يُستخدَم في كتابة لغات

عدة، وقد تم ذلك في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وبعد ذلك بأربعة قرون (أي في القرن العاشر قبل الميلاد) اختُرِع نظام أبجدي آخر في مدينة ساحلية أخرى، هي جُبيل، مؤلَّف من اثنين وعشرين حرفاً، ونتيجة سهولة استخدام هذا النظام فإنه انتشر شرقاً وغرباً، وكُتِبت به لغات عدة، وهكذا استُخدِمت وسيلة اتصال سهلة بين شعوب الأرض.

سادساً-المجموعات اللغوية العالمية المعروفة [1]:

تُقسَم اللغات التي عرفها الإنسان منذ نشأته على سطح الأرض إلى مجموعات، بناء على أوجه التشابه فيما بينها، وهذه المجموعات هي:

أ – مجموعة لغات المشرق العربي القديم: هي اللغات التي انتشرت في بلاد الرافدين وسورية القديمة وشبه الجزيرة العربية القديمة، مثل الأكادية والكنعانية والعربية والآرامية ...إلخ. وتُقسم لغات هذه المجموعة، حسب انتشارها الجغرافي كما اتضح في الأعلى، إلى ثلاث مجموعات هي:

١- المجموعة الشمالية الشرقية (اللغة الأكادية بلهجاتها المختلفة).

٢- المجموعة الشمالية الغربية (اللغات الأمورية والكنعانية بلهجاتها المختلفة، والآرامية بلهجاتها الكثيرة الشرقية والغربية)

٣- المجموعة الجنوبية الغربية، التي تضمُّ لغات العرب الشمالية (الصفوية والثمودية واللحيانية)، والجنوبية (المعينية والسبئية والقتبانية والحميرية)، ولغات الحبشة (الجعزية والتغرية والتغرينية والهررية والأمهرية).

---

[1] مرعي، عيد، تاريخ لغات المشرق العربي القديم: اللغات السامية، ص١٠.

ب – مجموعة اللغات الحامية: هي اللغات التي سادت في القارة الإفريقية في العصور القديمة، مثل المصرية والكوشية والصومالية والأمازيغية، وغيرها من لغات إفريقيا القديمة.

ج – مجموعة اللغات الهندو أوروبية: هي التي انتشرت في المنطقة الممتدة من الهند إلى أوروبا، مثل السنسكريتية، ولغات الهند القديمة، والفارسية، والحثية، والإغريقية، واللاتينية وغيرها.

د – مجموعة اللغات التركية – المغولية: هي تلك اللغات التي انتشرت في أواسط آسيا، وأشهرها التركية والمغولية.

هـ – مجموعة اللغات الصينية – التيبيتية: هي التي انتشرت في الصين وجنوب شرقي آسيا وما جاورهما، وأشهرها الصينية والتيبيتية والكورية.

و – مجموعة لغات الهنود الحُمر في أمريكا القديمة: أشهرها لغات المايا والإنكا والأزتيك.

– نظريات "اللغة السامية"، ومصطلح "لغات المشرق العربي القديم"، وأهم صفاتها:

من المفيد أن نشير إلى أمر في غاية الأهمية، وهو أن تسمية "اللغات السامية" قد شاعت بعد "شلوتسر[١]"، ولاقت قبولاً وانتشاراً بين المختصين في تاريخ الشرق القديم ولغاته، لكن المشكلة أنه لم يتمكَّن الباحثون من تحديد الموطن الأول للشعوب السامية، ولا مكان نشوء

---

(١) مؤرِّخ ألماني، وُلِد ١٧٣٥م، أطلق على لغات المشرق العربي القديم تسمية اللغات السامية من خلال مقالة له نشرها المؤرِّخ يوهان غوتفريد أيشهورن في دورية" الأدب التورتي والأدب الشرقي"– العدد الثامن الذي صدر في عام ١٨٧١م، تُوفِّي عام١٨٠٩. انظر: مرعي، عيد، تاريخ لغات المشرق العربي القديم، ص ١٣.

اللغة السامية الأولى، لذا تعدَّدت الآراء والنظريات، نذكرها باختصار:

١- نظرية الأصل الأرمني.

٢- نظرية الأصل الإفريقي.

٣- نظرية الأصل الرافدي.

٤- نظرية الأصل الجزيري[١].

وبناء على دراسات تحليلية معمَّقة، توصَّلنا إلى أن استخدام مصطلح "اللغات السامية" غير دقيق علمياً، وهو مبني على أساس غير واقعي، ويُفضَّل استخدام مصطلح "لغات المشرق العربي القديم" بدلاً منه بدليل أن هذه اللغات القديمة قد استُخدِمت في منطقة المشرق العربي منذ أقدم العصور، وتَرتبط بصلات قوية باللغة العربية، التي هي بمنزلة الوعاء الكبير الذي انصهرت في بوتقته هذه اللغات القديمة كلها.

وعطفاً على ما سبق ذكره، يمكن الإشارة إلى أن هناك مجموعة من الصفات تتميَّز بها هذه اللغات، وهي:

- معظم الكلمات مشتقة من جذر ثلاثي مكوَّن من ثلاثة أحرف.
- يأتي الفعل غالباً في بداية الجملة باستثناء الأكادية، التي يأتي في آخرها متأثِّرة في ذلك بالسومرية.
- الصفة تتبع الموصوف في حالات الإعراب جميعها.
- تعتمد الكلمات فيها على الحروف الساكنة.
- لا تعرف هذه اللغات إلا المذكَّر والمؤنَّث.
- العدد من ثلاثة إلى عشرة يخالف المعدود.
- فيها حروف حلقية.

---

(١) مرعي عيد، تاريخ لغات المشرق العربي القديم، ص١٥-٢٠.

- تتشابه فيما بينها في تكوين الاسم من حيث جنسه وعدده.
- تتشابه المفردات الدالة على أعضاء الجسم.
- تغير نطق بعض الحروف المتقاربة لفظاً، مثل الشين التي تصبح سيناً.
- تتشابه هذه اللغات في الضمائر المنفصلة والمتصلة، وضمائر الملكية، وفي طريقة اتصالها بالأسماء والأفعال والحروف، وكذلك في أسماء الإشارة، وأدوات الاستفهام، وفي المشتقات.
- يكون المؤنَّث فيها بإضافة تاء التأنيث إلى نهاية الاسم المذكَّر.

سابعاً- التأريخ Chronology:

انطلاقاً من تعريف الحضارة، نلحظ أن دراسة حضارات الشعوب بما أنجزته مادياً ولا مادياً يكون بالمعرفة التاريخية وعبر المراحل الزمنية[1]، فالزمن عنصر من التأريخ، لذلك نجد الصلة وثيقة بين الحضارة والتأريخ، ومن هنا وجب الحديث عن التأريخ منذ مراحله الأولى.

لقد اهتم الإنسان منذ نشأته بالتأريخ وحساب الزمن، وذلك استناداً إلى ظواهر طبيعية، مثل فيضان الأنهار أو حدوث كارثة أو حدوث زلزال، وفيما بعد تغيَّر التدوين ليصير تأريخاً للأحداث التي تجري خلال سنوات حكم الملوك، أو استناداً إلى سنوات حكم كبار شخصيات الدولة.

كان القمر أو الشهر الوحدة الأساسية في التقويم عند أغلب الشعوب، فهناك التقويم السلوقي الذي اعتمد العام ٣١٢ ق.م بداية التقويم; إذ إنه سيطر في هذا العام سلوقس الأول على بابل. بينما اعتمدت قبيلة حمير

---

[1] بروديل، فرنارد، تاريخ وقواعد الحضارات، ترجمة: حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٩.

عام ١١٥ ق.م بداية للتقويم الحميري; لأنها تسلَّمت في هذا العام الحكم في اليمن، أما في مصر فاعتُمِد التقويم الشمسي في عام ٤٥ ق.م، وهو العام الذي تبنَّاه يوليوس قيصر، ومن ثم طبَّقه في روما، وعُرِف باسم التقويم اليولياني، وأصبح فيما بعد أساس التقويم الميلادي الحالي، أما العرب قبل الإسلام فكانوا يؤرِّخون نسبة إلى الحوادث الكبرى في تاريخهم، مثل بناء الكعبة، وعام الفيل، ويوم ذي قار.

أما كلمة "تأريخ" فهي عربية، وتعود أصولها إلى الكلمة الأكادية والأوجاريتية: "وارخوم" أو "أرخوم" التي تعني: قمراً وشهراً.

الفصل الثاني

الحضارة السورية القديمة



الممالك السورية القديمة(١)

أولاً: سورية جغرافياً:

تُعدُّ سورية الطبيعية أو الكبرى Great Syria من أقدم حضارات المشرق العربي القديم، سمَّاها المؤرِّخون والجغرافيون العرب القدامى بلاد الشام، تمتدُّ من هضبة الأناضول وجبال طوروس في الشمال إلى خليج

(1)T. R. Bryc, The Routledge Handbook of the Peoples and Places of Ancient Western Asia, Map:7, p: xxx.

تم تعريب المصور من قبل الباحث.

العقبة وشبه جزيرة سيناء والأطراف الشمالية لشبه الجزيرة العربية في الجنوب، ومن سواحل البحر المتوسط الشرقية في الغرب إلى نهر الفرات في الشرق، وتضمُّ اليوم أربع دول هي: سورية ولبنان وفلسطين والأردن.

تتمتَّع سورية بموقع جغرافي يربط بين مناطق العالم القديم، وكانت تُعدُّ صلة الوصل بين بلاد الأناضول ووادي النيل، وبين بلاد الرافدين والبحر المتوسط ومصر، وبين بلاد الإغريق وبلاد الرافدين والهضبة الإيرانية، إضافة إلى غناها بالثروات الطبيعية من أخشاب وأحجار وحبوب وأشجار مثمرة، مما جعلها هدفاً للجيوش الغازية من مختلف الجهات على مر العصور.

ثانياً: عصر ما قبل الكتابة/التاريخ [1]:

تُعدُّ الحضارة السورية القديمة من أعرق الحضارات التي عرفتها البشرية، وأكثرها أصالة لما تميَّزت به من إنجازات في مختلف مجالات الحياة، وتعود بجذورها إلى عصور ما قبل الكتابة، فقد عاش الإنسان في سورية خلال العصر الحجري القديم (٢٠٠٠٠٠٠-١٢٠٠٠ق.م) (الهومو إريكتوس) Homo-Erectus، أي الإنسان المنتصِب القامة الذي صنع أدوات حجرية مختلفة، تأتي في مقدمتها المقاحف والفؤوس الحجرية الصوانية، عُثِر على مثل هذه الأدوات في مواقع ست مرخو، واللطامنة، والقرماشي، وبيرود، والكوم في سورية، وفي وادي الأزرق في الأردن، وجسر بنات يعقوب في فلسطين، وجب جنين في لبنان.

ثم في العصر الحجري الوسيط (١٢٠٠٠-٨٠٠٠ق.م) عرف الإنسان

---

(١) مرعي، عيد، تاريخ سورية القديم وآثارها وحضارتها، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٢١م، ص٤٣-٧٧.

السوري الأدوات الحجرية الصغيرة ذات الأشكال الهندسية، والتي كانت تُعلَّق بقطعة من الخشب أو قرن أو عظام، لتكوِّن أداة مثل السهم أو الرمح أو المنجل وبعض الأدوات البدائية، من أشهر **مواقعها مغارة الكبارة قرب حيفا ووادي النطوف في شمال غربي القدس، ومغاور يبرود وأبو هريرة والمربيط على الفرات الأوسط.**

ثم عرفت سورية الزراعة في العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠-٦٠٠٠ق.م)، وشملت المحاصيل المهمة مثل القمح والشعير والبقوليات، وأشجار الزيتون والعنب والجوز والتين والرمان والفستق الحلبي، ويُعدُّ موقع **تل أبو هريرة** في سورية، الذي يقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات الأوسط، من أقدم المواقع الأثرية العالمية التي عُثر فيها على آثار مزاولة الإنسان للزراعة، وقد كشفت الحفريات في هذا الموقع عن مستوطنتين مستقلتين، الأولى في الألف الرابع عشر قبل الميلاد، وكان سكانها جامعي قوت وصيَّادين يقتاتون على الحبوب البرية مثل القمح والشعير، وعلى صيد الحيوانات، ولاسيما الغزلان، ويعيشون في أكواخ دائرية من القصب والقش محفورة جزئياً تحت سطح الأرض.

أما المستوطنة الثانية، فيعود تاريخها إلى الألف العاشر وبدايات الألف التاسع قبل الميلاد، وقد مارس السكان فيها زراعة الحبوب وتربية الحيوانات، وقد أكدت الدراسات التي أُجريت في مكتشَفات هذه المستوطنات أن هذا التل يُعدُّ أقدم موقع عرف الإنسان فيه الزراعة والاستقرار الدائم.

ومن المواقع الأخرى التي عرف فيها الإنسان الزراعة والاستقرار الدائم في سورية، هو موقع **الجرف الأحمر** الواقع على ضفة الفرات الأوسط اليسرى قرب مدينة منبج، وموقع **المُربيط** على الضفة اليسرى لنهر

الفرات مقابل بلدة مسكنة (إيمار القديمة) على بعد نحو ٨٩ كم شرق حلب، وموقع **جعدة المغارة** الواقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات شرق مدينة منبج، وموقع **بقرص** على الفرات، **وتل أسود** في غوطة دمشق (٣٠ كم جنوب شرقي دمشق).

أما في العصر الحجري النحاسي (٦٠٠٠-٣٥٠٠ق.م) فقد نشأت ثقافات عدة سُمِّيت بأسماء المواقع التي اكتُشِفت آثارها فيها، واتصف هذا العصر بتطور المنجزات الحضارية مثل اختراع الفخار، وتشييد الأبنية والمستوطنات، وبروز تطورات اقتصادية واجتماعية ودينية واضحة تدل عليها آثار الثقافات التي ظهرت في سورية، وأهمها ثقافة **تل حلف** التي سميت نسبة إلى تل حلف الأثري الواقع في أقصى شمال شرقي سورية على نهر جرجب، أحد روافد نهر الخابور جنوب غربي بلدة رأس العين الحالية على ضفة نهر الخابور الغربية في محافظة الحسكة.

وقد كشفت التنقيبات الأثرية في الموقع الكثير من الصفات الجديدة والمميزة التي لم تُعرَف سابقاً، فالمستوطنات شوارعها مرصوفة، والبيوت دائرية مبنية من الطين المدكوك أو اللبن، والفخار المكتشَف من أجمل الفخار المصنوع في العالم القديم، فقد صُنِع باليد من طين مزجج قليلاً بالشوي، وأشكال المصنوعات منه متنوعة مثل الأباريق المدوَّرة ذات العنق الضخم الواسع، والجِرَار ذات الحواف المدوَّرة، والكؤوس ذات القواعد المرتفعة، والطاسات العميقة المزيَّنة برسوم وأشكال هندسية، أما الألوان المستخدَمة، فكانت متنوعة منها الأبيض والزهري والأسود والبني.

ثالثاً: فجر الحضارة وظهور المستوطنات الأولى في سورية [1]:

ظهر ابتكار الكتابة الذي أنهى ما عُرِف بعصور ما قبل التاريخ، وكان فاتحة لعصور جديدة هي العصور التاريخية، التي تميَّزت بظهور المصادر المكتوبة، وقد أظهرت الحفريات الأثرية المختلفة التي جرت في منطقة الجزيرة السورية وجود عدد من البلدات والمدن ومراكز الاستقرار في هذه المنطقة، في عصر فجر الحضارة أو فجر التاريخ في عدد من التلال أهمها:

١- **تل حموكار**: تلّ أثري في حوض الخابور (محافظة الحسكة)، أظهرت الحفريات أن هذا الموقع يضمّ آثار إحدى أقدم مدن العالم المعروفة، التي سُكِنت منذ النصف الأول من الألف الرابع قبل الميلاد (٤٠٠٠-٣٥٠٠ق.م)، واستمر استيطانها في العصور اللاحقة. تُظهر الآثار المنتشرة على سطح التل أن الموقع سُكِن لأول مرة في عصر حضارة حلف، وعُثِر على آثار مستوطنة من أواخر العصر الحجري النحاسي تبلغ مساحتها نحو ثلاثة عشر هكتاراً، وتضمّ مواقد للطهي، وأختاماً مسطَّحة، وطبعات أختام من الطين نُقشت عليها أشكال حيوانية وإنسانية، وسوراً دفاعياً من اللبن، وكسرات فخارية، وعظاماً بشرية، وخرزاً، وعدداً من التنانير.

٢- **تل براك**: هو أكبر التلال الأثرية في حوض نهر الخابور، أظهرت الحفريات أن هذا الموقع كان مسكوناً منذ العصر الحجري الحديث (٦٠٠٠ ق.م)، واستمر الاستيطان في العصرين البابلي القديم والميتاني (القرن السادس عشر قبل الميلاد). كشف التنقيب في الموقع عن سور كبير سماكته نحو عشرة أمتار، ومعبد اكتُشِفت فيه آلاف

---

(١) مرعي، عيد، تاريخ سورية القديم وآثارها وحضارتها، ص ٨٠-١٢٥.

التماثيل الحجرية الصغيرة ذات العيون الجاحظة، يُعرَف بمعبد العيون، ولوحان صغيران من الطين غير المشوي يحملان آثار بصمات أصابع، وقد رُسِم على كلٍّ منهما منظر جانبي لحيوان، يمثِّل الأول رأس ماعز، وربما الثاني رأس غنمة، وكُتِب إلى جانب كلٍّ منهما الرقم عشرة، كذلك عُثِر على سطح التل على كسرات فخار ملوَّنة، وبقايا قطع منحوتة صغيرة عُثِر بداخلها على كسرات فخارية مصنوعة بدقة.

٣- **تل البيدر**: تل أثري دائري الشكل، يقع شمال مدينة الحسكة غرب مثلث الخابور، أظهرت الحفريات الأثرية التي جرت في موقع التل مستوطنة أُسِّست في بداية الألف الثالث قبل الميلاد، تضمُّ قصراً يتألَّف من ثلاثة أجنحة، أبرز ما فيه قاعة ضخمة وباحة مركزية مرصوفة بالآجر، وقد بُني على مصطبة عالية، واكتُشِف فيه مئتان وثلاثون لوحاً مسمارياً تتناول مواضيع اقتصادية وإدارية وقانونية وتعليمية وأدبية، وتُعدُّ هذه الألواح أقدم الوثائق المكتوبة المكتشفة في منطقة الجزيرة السورية، وهي مكتوبة بالخط المسماري وباللغة الأكادية، كما ضمَّ القصر أربعة معابد ذات مساحة مركزية، ومزوَّدة بنظام صرف صحي متطور، كما عُثِر على بعض الأواني الفخارية، والأختام الأسطوانية، وأجزاء من بعض التماثيل الطينية.

٤- **تل موزان**: أحد أهم التلال الأثرية وأكبرها في الجزيرة السورية قرب مدينة القامشلي، يعود الاستيطان فيه إلى نحو ٥٠٠٠ ق.م، أظهرت الحفريات الأثرية التي تمت فيه، والفخار المكتشف الذي كان منتشراً على سطحه، إلى استمرار الاستيطان في العصور المتتالية.

كما أسفرت الحفريات عن اكتشاف الكثير من الآثار، أهمها القصور الملكية، ومعبد، ومقبرة، وسور، ومئات من طبعات الأختام الأسطوانية،

وبعض الكتابات المسمارية.

٥- **تل فخيرية:** يقع قرب تل حلف (جنوب بلدة رأس العين)، أظهرت الحفريات الأثرية الكشف عن عدد من الآثار، منها تمثال لرجل واقف منحوت من الحجر البازلتي.

وهناك الكثير من التلال الأثرية منها: **تل ليلان، تل مُنباقة، تل عجاجة، تل خويرة، تل البيعة، تلال كشكشوك، تل خزنة، حبوبة كبيرة الجنوبية، تل شَغَر باراز.**

رابعاً: العصور التاريخية:

تميَّز تاريخ سورية القديم بالغنى والتنوع وظهور عدد من المدن والممالك منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

وقد شهد النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد نشوء مملكة قوية في شمالي سورية، هي **مملكة إبلا**[١]، التي يُعرَف موقعها اليوم باسم تل مرديخ في منطقة سهلية قرب بلدة سراقب في محافظة إدلب.

بلغت مملكة إبلا أوج مجدها وازدهارها خلال عصرين هما:

١- عصر المحفوظات الملكية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد (٢٤٠٠-٢٢٤٠ق.م)، وقد دخلت إبلا في هذا الوقت في صراع مع الإمبراطورية الأكادية التي قامت في بلاد الرافدين، ووسَّعت سيطرتها لتشمل أجزاء واسعة من شمالي سورية، وانتهى هذا العصر بسقوط إبلا وتدميرها على يد الملك نارام سين الأكادي ٢٢٤٠ق.م.

٢- عصر الدول والممالك الأمورية في بدايات الألف الثاني قبل الميلاد (٢٠٠٠-١٦٠٠ق.م)، عادت فيه إبلا إلى النهوض من جديد

---

(١) مرعي، عيد، تاريخ مملكة إبلا وآثارها، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٥.

بعد تدميرها على أيدي ملوك أكاد في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، وأصبحت مركزاً تجارياً واقتصادياً، وقد عُثِر على عدد من الآثار التي تدل على ازدهار المدينة في هذه الحقبة، منها السور الضخم المزوَّد بأبراج دفاعية وأربع بوابات، لكنها ما لبثت أن لاقت المصير نفسه الذي لاقته ممالك شمالي سورية على أيدي الملوك الحثيين، الذين أخضعوا الشمال السوري كله للسيطرة الحثية، فسقطت كغيرها من الممالك، واختفى ذكرها كمدينة قروناً طويلة حتى أيقظتها فؤوس المنقبين في سبعينيات القرن العشرين كاشفة عن عظمة حضارة هذه المملكة وأهميتها التاريخية.

كما شهدت سورية، في أواخر الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد، قيام عدد من الممالك الأمورية بعد موجة هجرات كبيرة شهدتها سورية، حيث دخلت مجموعات بدوية أطلقت عليها المصادر السومرية اسم مارتو Martu، والمصادر الأكادية اسم أمورو Amurru[1]، وقد تمكَّنت هذه المجموعات من الاستقرار في سورية، وتبني مختلف المظاهر الحضارية بعد استيلائهم على مقاليد السلطة والحكم هناك، وظهرت سلالات أمورية كوَّنت دولاً حكمت سورية خلال الألف الثاني

---

(١)الأموريون: مجموعات بدوية دخلت إلى بلاد الرافدين وسورية، في أواخر الألف الثالث، وبداية الألف الثاني قبل الميلاد، على شكل موجات قادمة من بادية الشام، التي كانت موطناً للعديد من القبائل البدوية، على مر العصور المختلفة، تمكنوا من السيطرة على مقاليد السلطة والحكم، في بلاد الرافدين وسورية.

مرعي، عيد، تاريخ سورية القديم (٣٠٠٠-٣٣٣ق.م) منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٠، ص: ٧٧-٧٨ وما بعد.

قبل الميلاد، نذكر منها [1]:

١- **مملكة ماري:** (موقع تل الحريري على الضفة اليمنى لنهر الفرات على بعد أحد عشر كيلومتراً شمال غربي بلدة البو كمال الحالية)، فقد لفتت أهمية موقع ماري وغناها أنظار أعدائها من أجل السيطرة عليها، ولا سيما ملك آشور شمشي أدد، وحمورابي البابلي ملك بابل الذي كان ينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض عليها ونهب كنوزها، وقد سنحت الفرصة بعد أن قضى على خصومه في بلاد الرافدين، فاحتلها سنة ١٧٩٤ق.م.

٢- **مملكة يمحاض:** من الممالك الأمورية التي ازدهرت في سورية في الألف الثاني قبل الميلاد، كانت حلب عاصمتها، امتد نفوذها إلى مناطق رافدية تقع شرق نهر الفرات، وقد سقطت يمحاض بأيدي الحثيين في نهاية القرن السابع عشر قبل الميلاد.

٣- **مملكة ألالاخ** (موقع تل عطشانة الحالي) عند المجرى السفلي لنهر العاصي قرب مدينة أنطاكيا في لواء الإسكندرون، وقد سقطت ألالاخ بأيدي الحثيين في بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد.

٤- **مملكة قطنة:** تقع في محافظة حمص، في موقع تل المشرفة الحالي، (على بعد نحو ١٨ كم شمال شرقي حمص)، وقد دمَّرها الملك الحثي شوبيلوليوما الأول (١٣٥٠-١٣٢٠ق.م) أثناء إحدى الحملات على سورية، وكانت إحدى المدن السورية التي احتلَّها الحثيون ونهبوها ودمَّروها وهجَّروا سكانها.

٥- **مملكة أوجاريت:** يُعرف موقعها الحالي باسم رأس شمرة، على بعد نحو أحد عشر كيلو متراً شمال اللاذقية على ساحل البحر

---

(١) مرعي، عيد، تاريخ سورية القديم وآثارها وحضارتها، ص٢٤٣-٣٤٠.

المتوسط، مثَّلت مركزاً تجارياً، وأقامت علاقات مع الممالك الأمورية، منها كركميش وماري وبابل وألالاخ، وقد جاءت نهاية مملكة أوجاريت في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد على أيدي شعوب البحر.

ومن الممالك التي ازدهرت في سورية في الألف الثاني قبل الميلاد **مملكة كركميش** في منطقة الفرات الأعلى، شمال غربي ماري، وشرق يمحاض، في موقع بلدة جرابلس الحالي على الحدود السورية التركية.

كما شهدت سورية في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد صراعاً دولياً بين إمبراطوريات الشرق القديم الكبرى للسيطرة عليها، وهي: الإمبراطورية المصرية الحديثة، والإمبراطورية الحورية الميتانية، والإمبراطورية الحثية الحديثة، وبرزت خلال ذلك بعض القوى والممالك المحلية التي حاولت التخلص من سيطرة الإمبراطوريات الكبرى، مثل مملكة أمورو ومملكة قادش، لكن من دون جدوى. بعد ذلك تعرَّضت سورية في بدايات القرن الثاني عشر قبل الميلاد لهجمات مدمِّرة شنَّتها شعوب غير معروفة سابقاً هي شعوب البحر، وقد أدَّت إلى خراب شامل لمعظم المدن المزدهرة آنذاك، وإلى دخول المنطقة في حقبة مظلمة لا يُعرَف عنها شيء.

أما في الألف الأول قبل الميلاد فقد سادت في سورية مجموعتان بشريتان، هما الآراميون[1] والفينيقيون، استقرت الأولى في المناطق الداخلية، وأقامت ممالك ومدناً عدة، منها ممالك دمشق – حماة – شمآل – بيت يخياني – بيت عديني وغيرها، في حين استوطنت الثانية في المناطق الساحلية، وكان لها دور بارز في التجارة والملاحة البحريتين، وأسَّست ممالك على الساحل السوري، منها صيدا – صور –

(1) Niehr.H, The Aramaeans in Ancient Syria, Boston, 2014.

جبيل – أرواد، يُضاف إلى هاتين المجموعتين جماعات المؤابيين والأدوميين والعمونيين، التي أقامت في القسم الجنوبي من سورية (الأردن– فلسطين)، وكانت لهم ممالكهم الصغيرة الخاصة بهم.

خضعت سورية فيما بعد لسيطرة الآشوريين حتى سقوط إمبراطوراتهم سنة ٦١٢ ق.م، ثم وقعت تحت السيطرة البابلية الكلدية التي دام نفوذها حتى عام ٥٣٩ ق.م، لتخضع سورية بعدها للسيطرة الفارسية الأخمينية، فأصبحت سورية الولاية الخامسة وعاصمتها دمشق، وبقيت تحت السيادة الفارسية حتى سنة ٣٣٣ ق.م، وهو العام الذي انتصر فيه الإسكندر الكبير الملك المقدوني على داريوس الثالث ملك الفرس في معركة إسوس المشهورة، لتدخل سورية حقبة تاريخية جديدة، حيث استمرت تحت الحكم المقدوني حتى وفاة الإسكندر سنة ٣٢٣ق.م، ومن ثم خضعت للسلوقيين، واحتلها الرومان سنة ٦٤ق.م، فأصبحت حينها ولاية رومانية.

خامساً: الإدارة ونظام الحكم:

لم تعرف سورية القديمة خلال تاريخها قيام إمبراطوريات، كما هي الحال في بلاد الرافدين ومصر القديمة، لكنها شهدت قيام ممالك مدن وإمارات كان لها نظام سياسي يختلف من مملكة إلى أخرى.

فقد حكم مملكة إبلا حاكم يحمل اللقب السومري إن/En، الذي يعني السيد، ويقابله في اللغة الإبلوية لقب ملكو / malilku، بمعنى ملك [١].

كان النظام الملكي هو النظام السائد في إبلا، وغالباً ما كان الابن يرث أباه في سدة الحكم، وكان الملوك يُؤلَّهون بعد وفاتهم، وتُقدَّم لهم

---

(١) مرعي، عيد، تاريخ مملكة إبلا وآثارها، ص٣٧.

الأضاحي بانتظام [١].

كان الملك يقيم في قصر (بالسومرية Ē EN: بيت الملك)، هو بمنزلة دار سكن، ومركز للحكم وإدارة شؤون المملكة، ويضم كل قصر جناحاً إدارياً يدير الملك في رحابه شؤون مملكته.

وعرفت مملكة إبلا إلى جانب الملك مجلساً للشيوخ، يُعرَف في اللغة الإبلوية باسم Abbū، أي الآباء أو الشيوخ، وكان أعضاء هذا المجلس من زعماء العائلات الغنية والمتنفِّذة في إبلا ووجهائها، يشاركون الملك في اتخاذ القرارات الحاسمة والضرورية لحماية مصالح الملك في الداخل والخارج، وكان يُعتقَد أنه على الملك مراعاة مصالح هؤلاء الأعضاء، والأخذ برأيهم، وبالتالي فإنه لم يكن مطلق السلطات في إدارة شؤون المملكة وحكمها، وقد ذكرت النصوص الإدارية من المحفوظات الملكية مجلس الشيوخ إلى جانب الملك، وتبوأه مناصب عليا في المملكة بعد الملك مباشرة[٢].

كما ساعدت الملك في إدارة شؤون المملكة مجموعة من الموظَّفين الكبار، يحملون اللقب السومري لوجال، وقد ورد ذكرهم مع الملك في نحو أربعين وثيقة تتعلَّق بواردات القصر من دون تقديم أية معلومات عن وظائفهم الدقيقة، فعلى سبيل المثال: كان هناك شخص يحمل اللقب أدنوم Adanum (سيد) مسؤول عن إدارة الاقتصاد الإبلوي، يتبع له عدد من الموظَّفين الذين يعملون على تنفيذ أوامره وتوجيهاته[٣].

---

(1). Archi,A. Die ersten zhen Kőnige von Ebla, in: ZA 76(1968). S 213ff.

(٢) مرعي، عيد، تاريخ مملكة إبلا وآثارها، ص٤٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٤٤.

وكانت المملكة مقسَّمة إلى مقاطعات أو ولايات يحكم كلاً منها حاكم أو والٍ، وعلى رأس كل مدينة أو قرية شخص مسؤول عن إدارتها، يحمل اللقب السومري **أوجولا** UGULA، الذي يعني: والي، مشرف على، وغالباً ما كان هؤلاء الولاة أو المشرفون من أبناء العائلة المالكة، أو من المقرَّبين منها، أو من المتنفِّذين في المملكة [١].

لم يختلف النظام القائم (نظام الحكم) في الممالك الأمورية التي نشأت في سورية عن نظام الحكم الذي ساد في مملكة إبلا، فقد كان نظام الحكم ملكياً وراثياً، وقد دلت المحفوظات الملكية المكتشَفة في القسم الإداري من القصر الملكي في ماري على أن الملك هو صاحب السلطة العليا في المملكة، يصل إلى الحكم بمباركة الآلهة، ويدير شؤون المملكة في القصر، في جناح خاص بالإدارة، كما دلت اللوحة المكتشَفة في قصر الملك زمري ليم على طريقة تنصيب الملك، حيث عُثِر عليها في القاعة ١٠٦، التي يظهر فيها الملك زمري ليم واقفاً يتسلَّم بيده اليسرى الحلقة والصولجان رمزَي السلطة، من الإلهة عشتار التي تقف على ظهر الأسد حيوانها المقدَّس[٢].

وعادة ما يتم تنصيب الملوك في المعابد، حيث تقام بعض الطقوس الملكية الخاصة بتتويج الملك وانتصاره.

كانت مملكة ماري مقسَّمة إلى مقاطعات يحكم كلاً منها حاكم يلتزم بإرسال تقارير ورسائل دورية إلى الملك، يُخبره فيها عن سير الأمور في مقاطعته [٣].

---

(١) مرعي، عيد، تاريخ مملكة إبلا وآثارها، ص٤٥.

(٢) مرعي، عيد، تاريخ سورية القديم: ٣٠٠٠-٣٣٣ ق.م، ص٨٠.

(3) Heimple. W, Letters to the King of Mari: A New Translation,

وكان في القصر قاعة تُعرَف باسم قاعة العرش [١]، يستقبل فيها الملك كبار القادة والشخصيات القادمة من المدن الأخرى، ويُدير المملكة منها. [٢] من هنا كان القصر مؤسَّسة حكومية يتمّ فيها الإشراف على مختلف شؤون الدولة.

لم يختلف نظام الحكم في مملكة ماري الأمورية عن غيرها من الممالك الأمورية السورية الأخرى، مثل يمحاض وألالاخ وقطنة، فقد حمل ملوكها الألقاب الملكية، مثل ملوك ألالاخ الذين لُقِّبوا بالملوك العظام [٣]، وحمل ملك يمحاض أبو آل لقب محبوب الإله أدد، مما يدل على الدور الذي لعبته الآلهة في تنصيب الملوك على العرش.

عاش ملك ألالاخ في القصر مع زوجته وأبنائه، وقاد أعمال القصر موظَّفان كبيران، وأدار اقتصاد القصر وأملاكه موظَّف يُعرَف بوكيل الخرج، وكان يرافق كل فرد من أفراد البلاط وكيل خاص يُسمَّى جيرجيرسيكو Girgersequ، يهتم بأعمال الزراعة والتجارة لحساب سيده، وكان يعمل في خدمة القصر إداريون وحجَّاب وعبيد [٤].

---

with Historical Introduction, Notes, and Commentary, USA, 2003, p:8.

(١) عبد الحق، حسان، رحلة إلى ماري: دراسة أثرية لمدينة ماري، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٢٢، ص ١٨٢.

(٢) تُعدُّ قاعة العرش من أكبر القاعات في القصر، وتتميز بفخامتها ولاسيما أعمدتها التي تحمل السقف ومنصة العرش، وتتميز بتزييناتها التي ظهرت على هيئة محاريب تتوزع على واجهاتها الخارجية، انظر: عبد الحق، حسان، المرجع نفسه، ص١٨٣.

(٣) عبد الرحمن، عمار، مملكة ألالاخ: ألق التاريخ على العاصي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، مشق، ٢٠٠٨، ص ١١٠.

(٤)المرجع نفسه، ص٢١٣-٢٢٠.

وإذا انتقلنا إلى نظام الحكم عند الفينيقيين، نجد أن كل مدينة كانت تكوّن مملكة مستقلة يحكمها ملك، يشاركه في الحكم مجلس شيوخ يضمُّ ممثِّلي الأسر الغنية والمتنفذة، وكان الملك ينتسب إلى أغنى العائلات وأكثرها نفوذاً، وكان يستشير مجلس الشيوخ في القضايا التي تهم مملكته، وقد ذكر المؤرخ الإغريقي ديودوروس الصقلي أن عدد أعضاء مجلس الشّيوخ في صيدا كان مئة عضو(١)، وقد شُكِّلَ المجلس من أفراد طبقة النبلاء المقربة من عائلة الملك، وكان المجلس مسؤولاً عن اتخاذ القرارات عند غياب الملك، وقد نمت داخل المجلس مجموعة الطّبقات البرجوازيّة التي تسلمت السلطة في العصور اللاحقة(٢).

أما عند الآراميين فقد كان الملك رأس الهرم في مملكته، يستحوذ على السلطات كلها، ويدعي أنه ممثِّل الإله على الأرض، وأن الآلهة قد وهبته الملكية، وها هو ملك شمأل باناموا الأول يفتخر بأن الآلهة قد وهبته عصا الحكم، والملك بريراكب ادعى أن الإله ركب إيل هو من ثبَّته في الحكم، وأضفى عليه الشرعية (٣).

كان نظام الحكم عند الآراميين، إذن، ملكياً وراثياً، وحمل ملوكهم ألقاباً تدل على القوة والنفوذ والسطوة التي اتسموا بها.

---

(١) مرعي، عيد، تاريخ سورية القديم، ص ١٩٣.

(٢) مارتينز، فرناندو برادو، الفينيقيون من جبل لبنان إلى أعمدة هرقل، ترجمة: بشار مصطفى، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٢٣، ص٦٠.

(٣) فرج، عباس، شمأل مملكة آرامية سورية قديمة ١٠٠٠-٧٢٢ ق.م، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٢٠، ص٦٦، ٢٣٦.

سادساً: الحياة الاقتصادية:

أسهم الموقع الجغرافي لسورية القديمة في ازدهار الحياة الاقتصادية بمجالاتها الزراعية والحرفية والتجارية المختلفة، وشجَّعت البيئة المناسبة والتربة الخصبة الصالحة للزراعة والمناخ الجيد في زراعة أغلب المحاصيل، وفي تطور الزراعة وازدهارها. واهتم السوريون بالحرف المختلفة لتلبية حاجاتهم اليومية، وقد ساعد على تطورها وازدهارها وفرة المواد الأولية الخام اللازمة لهذه الحرف، ولاسيما في مناطق جبال طوروس وزغروس وهضبة الأناضول. أما التجارة فقد شجَّع موقع سورية على ساحل البحر المتوسط الاتصال بالعالم الخارجي، وازدهار التجارة فيها، ولاسيما موقعها وسيطرتها على الطرق التي تربط بين مناطق سورية الداخلية وبلاد الرافدين المتجهة إلى البحر المتوسط، وقربها من غابات الأمانوس الغنية بالأشجار الصنوبرية المطلوبة من الممالك المجاورة، ولاسيما مصر.

لقد كانت مملكة إبلا مملكة زراعية[1] بالدرجة الأولى، اعتمد اقتصادها على استغلال التربة الخصبة وتربية الحيوانات، وقد وفَّرت سهولها بيئة مناسبة للزراعة البعلية، أما المناطق القريبة من الهضاب والجبال فكانت مناسبة لزراعة الزيتون والعنب والأشجار المثمرة عامة.

كما عرف الإبلاويون دعامة مهمة للاقتصاد إلى جانب الزراعة، ألا وهي تربية المواشي، ولاسيما الأغنام في سهول البادية القريبة، حيث كان الغطاء النباتي في الماضي أفضل مما هو عليه حالياً، وكذلك تربية الأبقار في المرتفعات القريبة من المملكة، كما وفَّرت البادية

(١) مرعي، عيد، تاريخ مملكة إبلا وآثارها، ص ٥٦ وما بعد.

السورية مراعي مناسبة للحيوانات، مما ساعد سكانها على تربية أعداد ضخمة من الحيوانات، التي استفاد الإبلاويون منها في تأمين الغذاء (الحليب ومشتقاته واللحوم)، وفي الصناعات الحرفية (الجلود والصوف)، وفي العمليات الزراعية المختلفة (الثيران والأحصنة وغيرها).

لقد استنتج الباحثون، استناداً إلى نصوص إبلا، أن سكان مملكة إبلا والمناطق الخاضعة لنفوذها كان يقتنون نحو أربعمئة ألف رأس من البقر، ونحو ثلاثة ملايين ونصف مليون رأس من الغنم. (١)

كذلك اهتم الإبلاويون بالصناعة والحرف المختلفة لتلبية حاجاتهم اليومية، أو من أجل التصدير إلى الممالك المجاورة، وتُعدُّ صناعة الأنسجة من أهم الصناعات التي كانت تُوزَّع على الأسواق المنتِجة محلياً، وكان الكتان يُزرَع في مساحات واسعة في إبلا، ثم يجري تحويل هذه المادة إلى أنسجة متنوعة في بيت الصوف الذي كان بمنزلة مصنع للغزل يتبع لقصر المملكة. كذلك عرفت مملكة إبلا صناعة المفروشات الخشبية وزخرفتها وتطعيمها، وسبك المعادن والأحجار الكريمة وشبه الكريمة التي كانت تُستخدَم لصنع المجوهرات والحلي والتماثيل والأواني المختلفة.

كذلك كان للتجارة(٢) دور بارز في الحياة الاقتصادية الإبلوية، إذ مثَّلت ركناً مهماً من أركان الاقتصاد الإبلاوي، وقد ساعد على ازدهارها توفر زراعة متطورة تعتمد على الاستغلال الجيد للأراضي الزراعية، وتطور الصناعة وازدهارها، مما جعل إنتاجها يفوق حاجة السوق المحلية، والأهم من ذلك موقع إبلا الجغرافي المتميز في منطقة تقاطع

---

(١) مرعي، عيد، تاريخ مملكة إبلا وآثارها، ص٦١.

(٢) المرجع نفسه، ص٦٩ وما بعد.

طرق التجارة العالمية، إضافة إلى قربها من غابات الجبال الساحلية وجبال الأمانوس، تلك الغابات الغنية بالأشجار الصنوبرية المختلفة، مثل الصنوبر والسرو والأرز والسنديان وغيرها، كل ذلك مكَّن إبلا من جني أرباح كبيرة من ذلك، لأن أخشاب تلك الغابات كانت مرغوبة في وادي النيل وفي بلاد الرافدين، ولاسيما لبناء القصور والمعابد.

تنوَّعت أنشطة الحياة في العصر الأموري بين عيش البداوة والزراعة، وحياة المدن والتجارة والصناعات اليدوية والحرف، حيث كانت الزراعة وتربية الحيوانات أساس حياة هذه الشعوب، فقد عرفت مملكة ألالاخ الكثير من الزراعات، منها زراعة الشعير اللازم لإطعام الحيوانات، وزراعة القمح التي تأتي بالمرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد الشعير، وكذلك النوع الثالث المعروف بـ Kissanu، الذي يبدو أن المقصود به الكرسنة الذي يُستخدَم في تحضير الخبز[١].

كما شاعت زراعة الكمون الأسود، الذي استُخدِم عند الخبازين لتطعيم الخبز بنكهة مميزة، أما فيما يخص زراعة العنب والزيتون، فقد كانت من أهم الزراعات في ألالاخ، واستُخدِمت لإنتاج الزيت والنبيذ.

اهتم سكان ألالاخ أيضاً بتربية المواشي، وقد ذكرت نصوص ألالاخ أسماء مُربّي الحيوانات وصيَّادي الطيور، ورعاة القطعان، ومُربّي الأحصنة[٢].

ازدهرت في مملكة ماري التجارة أيضاً[٣]، نتيجة موقع المملكة المميز في منطقة الفرات الأوسط المتحكِّم بطرق المواصلات والتجارة

---

(1) Wiseman D.J: The Alalach toblets, London, 1953, p:15.
(2) Ibid, p:10.
(٣) مرعي، عيد، تاريخ سورية القديم وآثارها وحضارتها، ص ٢٨٢.

التي كانت تربط بين مناطق مختلفة في الشرق القديم، ووصلت علاقات ماري التجارية إلى حاصور شمالي فلسطين، وجزيرتي قبرص وكريت في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، والمستوطَنة التجارية الآشورية كاروم كانيش الواقعة وسط هضبة الأناضول، وجزيرة دلمون (البحرين) في الخليج العربي، وعيلام جنوب غرب إيران، وتحدَّثت النصوص عن تجار وقوافل تجارية وبعثات كانت تقصد ماري أو تعبرها إلى مدن أخرى، مثل حلب وقطنة وإيمار وجبيل وحاصور وأوجاريت في سورية، وآشنونا وبابل وآشور وشوياط إيليل وغيرها في بلاد الرافدين، ومن الجدير بالذكر أن التجارة في ماري كانت حكراً ملكياً، فالقوافل والمراكب التجارية لا تتحرَّك إلا بإذن الملك، وهو الذي يفرض الرسوم والمكوس عليها، وهو المسؤول عن حمايتها وتوفير الأمن لها خارج حدود مملكته من خلال المعاهدات والاتفاقات مع المدن والممالك الأخرى.

كما برع الكنعانيون (الفينيقيون) في الألف الأول قبل الميلاد في التجارة البحرية[1]، ساعدهم على ذلك وقوع بلادهم على شاطئ البحر المتوسط، حيث أقاموا شبكة من المحطات التجارية في حوض البحر المتوسط لتسهيل المبادلات التجارية مع البلدان المختلفة المطلة عليها، فبنوا بعضها في قبرص وصقلية والبحر المتوسط الغربي، وكان الهدف من بنائها تأمين المبادلات التجارية مع البلدان والمناطق المختلفة، وحماية الطرق التجارية المؤدية إليها.

وتاجر الكنعانيون (الفينيقيون) بالأنسجة المصبوغة باللون الأحمر الأرجواني، واشتُهِروا بذلك، كما تاجروا بالزجاج والقطع العاجية

(١) مارتينز، فرناندو برادو، المرجع السابق، ص١٢٠ وما بعد.

المنحوتة، التي عُثِر على قطع كبيرة منها في عدد من المدن السورية والرافدية، مثل كلخو وأرسلان طاش ودمشق وغيرها.

واستوردوا مقابل صادراتهم المعادن المختلفة بالدرجة الأولى، مثل النحاس من قبرص، والفضة من إسبانيا، والذهب من المغرب، والقصدير والزجاج من جزر القصدير الواقعة جنوب غربي بريطانيا، واستُخدِم الذهب والفضة وسيلة للدفع ولتحديد قيمة البضائع في منطقة حوض البحر المتوسط كلها [١].

شهد العصر الآرامي نهضة كبيرة على المستوى الاقتصادي، فقد اهتموا بالزراعة وتربية المواشي، وكان المصدر الأهم في حياتهم وتأمين سبل معيشتهم.

وقد وصفت الحوليات الآشورية اقتصاداً مختلَطاً من تربية المواشي والزراعة والرعي لدى السكان، وذكرت أعداداً كبيرة من الثيران والأغنام التي كان الآشوريون يحصلون عليها من الممالك الآرامية.

كانت الزراعة تعتمد على قطاعين: الزراعة البعلية التي تعتمد على مياه الأمطار، والزراعة المروية، التي استخدمت الأقنية الموجودة في أغلب الأحواض المائية، وبعض القنوات الصناعية [٢].

من أهم الزراعات زراعة الحبوب، وعلى رأسها القمح والشعير، وزراعة الزيتون والكرمة والنخيل والثوم قرب أودية الأنهار، إذ تحتاج هذه الزراعة إلى كميات كبيرة من المياه.

أما فيما يتعلَّق بالصناعة والحرف، فقد عرفت الممالك الآرامية بعض

---

(١) مرعي، عيد، تاريخ سورية القديم، ص٢٠٣.

(٢) حمود، محمود، الممالك الآرامية السورية، روافد للثقافة والفنون، دمشق، ٢٠٠٨، ص٩٤.

الحرف، مثل غزل النسيج وتصنيع الأثاث المطعَّم بالعاج وتصنيع المعادن والأدوات المعدنية، وكانت مزاولة هذه الحرف في أماكن مخصَّصة لها، وضمن مشاغل عمل، وقد ساعدت البيئة السورية في توفير المواد الخام لهذه الصناعات، مثل زراعة الكتان في مملكة شمأل التي ساعدت في صناعة الألبسة الكتانية والصوفية المصبوغة باللون الأرجواني.

وكان غزل النسيج يتمُّ في مشاغل خاصة بدليل العثور في المنطقة الخامسة من المدينة السفلى، أثناء التنقيبات في موقع مملكة شمأل القديم، على أدوات ووسائل استُخدِمت لهذه المهنة، منها ثلاث سنانير برونزية، وأبر برونزية، ومغازل صغيرة مصنوعة من العظام، ومكاكيك مغزلية مصنوعة من الحجر، بلغ عددها تسعة وعشرين مكوكاً مستخدَمة لغزل الألياف على مغزل خشبي. (١)

مثَّلت التجارة ركناً مهماً من أركان الاقتصاد الآرامي، ساعد على قيامها توفر زراعة وطرق متنوعة تسدُّ حاجات السوق المحلية، وتسمح بتصدير الفائض منها. وكانت بين الممالك الآرامية وممالك منطقة الشرق القديم روابط تجارية، فمورست عمليات التبادل التجاري عن طريق المقايضة بالسلع، أو التعامل بسبائك الذهب والفضة، وقد شارك الآراميون خبراتهم مع الممالك المجاورة، واستُخدِمت معايير وأوزان ثابتة للتجارة، وكذلك أنظمة عدة، ولاسيما استخدام العملة المعدنية بوصفها معياراً للقيمة، مما سهَّل عملية التبادل التجاري (٢).

---

(١) فرج، عباس، المرجع السابق، ص٩٨-٩٩.

(2) Lipinski, E. The Aramaeans: their Ancient History, Culture, Religion‹, Louvan, 2000, p:543.

سابعاً: الحياة الاجتماعية:

مثّلت الأسرة أساس الحياة الاجتماعية في سورية القديمة، والخلفية الاجتماعية المحورية في النظام الاجتماعي والسياسي السائد، وأظهرت الوثائق والنصوص والمنحوتات أهميتها، كان ربّ الأسرة (الرجل) يقضي وقته في الأعمال الزراعية أو مزاولة المهن الأخرى لتوفير حاجات أسرته، وهو المسؤول عن الأسرة، ويمتلك جميع السلطات المتعلقة بتدبير شؤون العائلة، وإعالتها، واحترام الواجبات التي لا ينبغي تجاوزها، في حين لعبت المرأة دوراً مهماً إلى جانب الرجل في مختلف مجالات الحياة.

كان الزوج يعمل خارج البيت، بينما تقوم زوجته بالأعمال المنزلية، وقد عُثِر في مملكة ماري على عدد من القطع الفنية مصنوعة من الصدف تصوّر مواضيع من الحياة اليومية، وتجسّد نساءً كنَّ يقمنَ ببعض الأنشطة المنزلية، منها قطعة تمثِّل امرأة واثقة ترتدي ثوباً طويلاً تمدُّ ذراعيها إلى الأمام، وتحمل مغزلاً بيديها [1].

مثَّلت الأسرة في ظل الاقتصاد المنزلي مؤسَّسة اجتماعية واقتصادية، تُمثِّل المرأة فيها إلى جانب الرجل عاملاً اقتصادياً فعالاً ومهماً، وقد قدَّم المجتمع الآرامي عرضاً لأدوار الرجال والنساء، إذ كان يجب على الرجل مغادرة المنزل دائماً في سبيل الحصول على الدخل المطلوب لإعالة أسرته، بينما ينبغي على النساء القيام بالنشاطات الأنثوية الأساسية المعهودة، التي تتمحور حول العناية بالأطفال، وجرش الحبوب، وتحضير الخبز والطعام للأسرة، وكنَّ يشاركن الرجل أيضاً في أعمال الزراعة في الحقول والبساتين، إضافة إلى ممارستهن لأعمال

(١) عبد الحق، حسان، المرجع السابق، ص٣١٢-٣١٣.

الحياكة والغزل وصنع الملابس وغيرها.

يُظهِر الوضع القانوني للمرأة في المجتمع السوري مساواة بينها وبين الرجل، يبدو ذلك واضحاً من خلال عقود الزواج، حيث مارست المرأة دورها، وظهرت إلى جانب الرجل بوصفها شريكاً مساوياً في العقود والاتفاقيات.

أما في المجتمع الفينيقي، فقد كان الرجل هو ربّ الأسرة، الذي يحتلُّ الدور الأول والأهم، بينما لم تكن المرأة في الدرجة نفسها من الأهمية، وإنما جاءت في المرتبة الثانية بعد الرجل الذي كان مسؤولاً عن زوجته وأولاده، وملزَماً بتقديم كل شيء في الحياة.

كان البيت محور الحياة الأسرية، ففي مملكة ماري كان شكل البيت شبه منحرف، مساحته نحو ٣٩م٢، يتكوَّن من أربع غرف: غرفة المدخل التي تقود إلى الفناء الأكبر عبر باب وحيد يربط بينهما، يلج الزائر منها إلى غرفتين صغيرتين يدخل إليهما عبر بابين (١).

أما في مملكة شمأل الآرامية، فقد بُنِيت البيوت من حجر الآجر (اللِبن المشوي)، واستُخدِم الخشب في الأسقف عوارضَ لدعم السقف وحمايته من السقوط، وقد ضمَّت البيوت عدة غرف مرصوفة بالحجارة، منها غرفة للمعيشة، ومطبخ، وغرفة تخزين، وقد تلحق بها أحياناً غرفة للخدم في البيوت التي يكون مالكها من الأسر الغنية (٢).

كانت هذه البيوت متفاوتة الحجم، من حيث مساحتها وعدد غرفها، تبعاً لوضع مالك البيت الاجتماعي والاقتصادي، وقد عُرِفت الأسر الغنية بما احتوته بيوتها من مقتنيات، إذ امتلأت بالمواد غالية الثمن،

---

(١) عبد الحق، حسان، المرجع السابق، ص٢٦٤.

(٢) فرج، عباس، المرجع السابق، ص١١٠-١١١.

ولاسيما الأواني المعدنية، والأثاث المطعَّم بالعاج الذي يغطِّي الأسرّة والكراسي.

تمحورت حياة أغلب السكان حول ممارسة النشاطات الزراعية والحرفية والتجارية والخدمية في القصور والمعابد، واختلفت سلوكات كل فئة اجتماعية تبعاً للنشاط الذي تمارسه، ومدى نفوذها وتأثيرها في المجتمع السياسي، فكان هناك عمال المهن، والمزارعون، وأصحاب المواشي، وكانت الزراعة والنشاطات المتعلِّقة بها من أهم ما يمكن ملاحظته في حياة الناس اليومية، فلم تكن تخلو أسرة من فلاحين أو مزارعين أو من يعمل منهم في مجال يتصل بالزراعة، إضافة إلى وجود مظاهر للصيد والرعي [١].

عرف المجتمع السوري القديم عدداً من الأعياد وما يرافقها من طقوس خاصة بها، فمملكة إيمار [٢] مارست أنواعاً مختلفة من الأعياد، منها عيد الذكر الذي يتم الاحتفال به سنوياً أثناء ظهور القمر بدراً، وكانت تُمارَس خلال هذا العيد مجموعة من الشعائر الدينية، تُقدَّم فيها الأضاحي والنذور للآلهة التي كانت تُعبَد في ذلك الوقت، إضافة إلى تناول الطعام والشراب، وكان السكان يشاركون في هذا العيد جميعاً، وتجرى طقوسه في الهواء الطلق خارج أسوار المدينة، وكانت لهذا العيد طقوس رمزية، إذ يمثِّل دورة فصول السنة، وتقديم الولاء والخضوع لسلطة الآلهة.

---

(١) حمود، محمود، المرجع السابق، ص٢٧٥.

(٢) مملكة سورية قديمة تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات، اكتُشِفت عام ١٩٧٢ على يد بعثة المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، وهي معروفة باسم مدينة مسكنة اليوم.

والعيد الثاني الذي عُرِف في إيمار هو عيد العرش، الذي سُخِّرت طقوسه للآلهة أيضاً، وذُبِحت فيه الأضاحي والنذور وقُدِّمت للآلهة، وظهرت فيه الطاعة والولاء للملك والأسرة الحاكمة [١].

في الختام لابد من الحديث عن الطبقات الاجتماعية السائدة في المجتمع السوري القديم، حيث شمل، مثله مثل غيره، عدداً من الطبقات والفئات الاجتماعية المتباينة من حيث الحقوق والامتيازات، ففي مملكة ألالاخ ظهرت الفئات الاجتماعية الآتية [٢]:

١- الخبشو Hupŝe: استوطنت أفراد هذه الفئة في الأرياف، وكانت مهتمة بالأمور الزراعية، امتلك أفرادها كروماً وبيوتاً ومواشي، وكانوا يعملون في خدمة الملوك، وقد اختلفت آراء الباحثين والمؤرّخين حول فئة هذه الطبقة، إن كانوا عبيداً أو أحراراً، وكانوا يمثّلون النسبة الكبرى من سكان ألالاخ، حيث بلغ عددهم ثمانية أضعاف الفئات الأخرى.

٢- الخانياخو: Haniahhe : ذكرتهم نصوص مملكة ماري بوصفهم أنصاف بدو، عملوا بالزراعة والرعي والاهتمام بالمواشي، وذُكِروا في نصوص ألالاخ باسم الخانياخو، كان بعضهم يمارس أعمالاً حرفية خاصة، مثل مهنة المغني أو البستاني.

٣- الإخيل Ehele: هي طبقة السادة، يمتلك أصحابها الإقطاعات والأراضي، وتمثّل الطبقة الحرة، ويُقسَم أفرادها إلى قسمين: الأول يضمُّ الأحرار وأعضاء مجالس القرى، والثاني يضمُّ رجال الملك والبلاط الملكي.

---

(١) جاموس، بسام، مملكة إيمار في عصر البرونز الحديث: ١٦٠٠-١٢٠٠ ق.م، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ٢٠٠٤، ص:٧-٧٥.

(٢) عبد الرحمن، عمار، المرجع السابق، ص ١٨٠ وما بعد.

٤- الماريانو Mariannu: تعني طبقة الفرسان أصحاب العربات، الذين كانوا على صلة بالقصر والبلاط الملكي، وكانوا يمارسون أيضاً أعمال التجارة والنشاط الاقتصادي، وكانوا يملكون قطاعات من الأراضي.

٥- العبيد: تُقسَم طبقة العبيد إلى قسمين: الأول يضمُّ العبيد الدائمين الذين يعملون في القصر، والثاني يضمُّ العبيد الذين يعملون لدى الدائن، وكان هؤلاء العبيد من أسرى الحروب والمفلسين.

كذلك ظهرت في مجتمع شمأل طبقتان من السكان هما [١]:

- طبقة الموشكاييم Mušḳbm: التي تشير إلى عامة الشعب، وكانت تعيش أوضاعاً سيئة، عانى أفرادها من الفقر والاضطهاد، وضمّت الفلاحين الذين يعملون في الأرض التي تمتلكها الطبقة الغنية.

- طبقة البعرريم B'rrm: تمثِّل فئة الحكام الآراميين، أو فئة السادة الأغنياء، تمتَّعت هذه الفئة بالقوة والنفوذ والامتيازات.

ثامناً: الحياة الدينية:

مارس المجتمع السوري منذ القديم العقائد والطقوس الدينية، وكانت سورية القديمة مهداً لأول المعتقدات الدينية بفعل التنوع الحضاري والتراكم الثقافي المستمر، وقد اعتمدت الحياة الدينية في سورية على تعدد الآلهة التي كان لها دور في مجالات الحياة المختلفة، إذ رأى الإنسان السوري الأول في هذه الآلهة ملاذاً تحميه من الخوف وشرور الحياة، أو فهم ما ليس بمقدوره فهمه من مصاعب الحياة، أو فهم أسبابها، مثل كسوف الشمس وخسوف القمر وفيضانات الأنهار.

استُخدِمت مجموعة من النجوم والكواكب رموزاً للآلهة، فكان من بينها

---

(١) فرج، عباس، المرجع السابق، ص١٠٧وما بعد.

القمر (سين)، والشمس (شمش)، ونجمة الصباح (عشتار).

انعكس تأسيس المدن وتطور العلاقات الاجتماعية بقوة على معتقدات السكان، إذ اعتقدوا أن الإنسان خُلِق كي يعبد الآلهة، ويقيم لها المعابد والطقوس الواجبة.

لقد عبد سكان مملكة إبلا وماري وقطنة وألالاخ ويمحاض وصيدا وصور وشمأل ودمشق وحماة وغيرها من الممالك السورية القديمة آلهة عدة، وبُنِيت في تلك الممالك معابد كثيرة.

قُدِّر عدد الآلهة وفقاً لمحفوظات مملكة إبلا في المجتمع الإلهي الإبلوي بنحو مئة إله، ومن هذه الآلهة نيداكول الإله الذي قُدِّمت له الأضاحي، والإله كور إله القسم، وكان له معبد رئيس في إبلا، والإله دامو وهو الإله الحامي للأسرة المالكة في إبلا، وإيل وعشتار وكاميش وغيرهم، والإله هدد إله الجو والعواصف والرعود والبروق والخصوبة، وكانت حلب مركزاً لعبادة هذا الإله، وقد حمل ملوك يمحاض لقب محبوب أدد، وبنوا له معبداً في مملكتهم [1].

جرت طقوس عبادة هذه الآلهة في إبلا في معابد مخصَّصة لها، يُشرف عليها كهنة لهم مراتب محدَّدة في السلم الكهنوتي، وفي ماري سادت عبادة الآلهة التي كانت سائدة في معظم مدن الشرق القديم وممالكه، منها الإله داجان أحد آلهة الخصب المعروفة، كانت له معابد عدة في مناطق الفرات الأوسط، والإلهة عشتار إلهة الحب والحرب والخصب، والإله شماش إله الشمس، وقد بُنِيت لهم معابد خاصة في المدينة، وبما أن ماري حكمتها في بداية الألف الثاني قبل الميلاد سلالات أمورية، فقد حظي الإله الأموري الرئيس المدعو "ليم" بتقديس

---

(١) مرعي، عيد، مملكة إبلا وآثارها، ص ١٤٦ وما بعد.

كبير، وظهر في أسماء ملوك هذه السلالات: (يجيد ليم – يخدون ليم – زمري ليم)، وفي أسماء أمورية أخرى من يمحاض وألالاخ، ومن مدن وممالك أخرى (ياريم ليم)، وكان لهذا الإله معبد في مملكة يمحاض، حيث حظي بتقديس سكانها وعبادتهم إياه.

كذلك ذكرت نصوص مملكة أوجاريت ما يقارب ٢٣٤ اسماً للآلهة، عُرِف منها ١٧٨ إلهاً من خلال نصوص الأضاحي الدينية، من أشهر هذه الآلهة إيل وبعل، اللذان سادت عبادتهما أيضاً عند الفينيقيين، وإضافة إلى ذلك عبد الفينيقيون الإله إشمون إله مدينة صيدا الرئيس، الذي كان مسؤولاً عن الشفاء والطب، وانتشرت عبادته في مختلف المدن الفينيقية منذ بدايات القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ومن الآلهة الفينيقية أيضاً بعلة جبيل وأدونيس.

أما الآراميون فقد عبدوا، شأنهم في ذلك شأن باقي شعوب الشرق القديم، قوى الطبيعة المتمثِّلة في آلهة عدة، أهمها بعل شاميم (شامين)، والإله هدد الذي حمل الكثير من ملوك دمشق اسمه، مثل برهدد: أي هدد، وذلك للتبرك وإظهار الورع والتقوى، وإله القمر بصفة شين المحرَّرة عن سين المعروف في بلاد الرافدين منذ العصر الأكادي، والإله راكب إيل الذي حمل اسمه بعض ملوك شمأل، مثل بررراكب الذي يعني: ابن راكب، والإلهة كوبابا[1] التي عُبِدت عند الآراميين والحثيين على حدٍ سواء.

اتسمت الحياة الدينية في سورية القديمة بالتأثر والتمازج والتوافق بين المعتقدات المتنوعة السائدة آنذاك، وقد شاعت في سورية العبادات المعروفة في بلاد الرافدين، إضافة إلى اعتماد رموز الآلهة الرافدية

(١) فرج، عباس، المرجع السابق، ص١٢١.

نفسها، وسارت العبادة فيها على منوال العبادة في الممالك المجاورة الأخرى، مثل تقديم الأضاحي للآلهة في معابد خاصة بها بهدف التقرب منها، وإقامة الصلوات والطقوس الدينية الخاصة بها.

تاسعاً: اللغة والكتابة:

استخدم السوريون لغات وكتابات عدة في ممالكهم، فعُرِفت في مملكة إبلا في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد اللغة الإبلاوية، التي تُعدُّ أقدم لغة معروفة في سورية القديمة حتى الآن، وقد عاصرت اللغة الأكادية التي ظهرت في بلاد الرافدين منذ الألف الثالث قبل الميلاد، واشتركت مع لغات المشرق العربي القديم، مثل الأوجاريتية والفينيقية والأمورية والعبرية والآرامية والعربية، بصفات كثيرة تشير إلى جذورها المشتركة الواحدة(١).

استخدم سكان إبلا الكتابة المسمارية على نحو يناسب خصائص لغتهم وصفاتها، كما هي الحال حالياً في استخدام الخط العربي لكتابة اللغة الفارسية، وكذلك استخدام الحرف اللاتيني لتدوين معظم اللغات الأوروبية الحديثة على نحو يناسب قواعد تلك اللغات وصفاتها.

كذلك استخدمت القبائل الأمورية التي انتشرت في بلاد الرافدين وسورية في نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد اللغة الأكادية، لأن هذه القبائل لم تستخدم لغتها للتدوين، فهي لم تكن مدوَّنة.

وفي الألف الأول قبل الميلاد استخدم الفينيقيون إحدى اللهجات الكنعانية، التي استُخدِمت في سورية القديمة في الألف الأول قبل الميلاد، فسطَّروا نقوشهم وكتاباتهم بها.

---

(١) مرعي، عيد، تاريخ لغات المشرق العربي القديم: اللغات السامية، ص١٣٩.

قُسِّم تاريخ اللغة الفينيقية إلى ثلاث مراحل رئيسة هي:

١- الفينيقية المبكِّرة: من القرن الحادي عشر إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

٢- الفينيقية الوسطى: امتدت من القرن الثامن إلى القرن السادس قبل الميلاد.

٣- الفينيقية المتأخِّرة: امتدت من القرن الخامس إلى القرن الأول قبل الميلاد، وقد كُتِبت اللغة الفينيقية بكتابة ألفبائية، تُعدُّ أعظم إنجاز حضاري قدّمه الكنعانيون الفينيقيون للبشرية.

تُعدُّ اللغة الأوجاريتية[١] المكتشَفة نصوصها في أوجاريت أول أبجدية مكتشَفة في العالم، وهي أبجدية مسمارية مؤلَّفة من ثلاثين حرفاً، وكانت تُكتَب على ألواح من الطين، من اليسار إلى اليمين، ويُعدُّ اختراع الأبجدية أعظم اختراع عرفته البشرية بعد ابتكار الكتابة أواخر الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد.

ثم اختُزِلت فيما بعد هذه الحروف في جبيل إلى اثنين وعشرين حرفاً ساكناً، تُكتَب من اليمين إلى اليسار، وقد أخذ الإغريق والرومان وغيرهم من شعوب العالم القديم هذه الأبجدية عن الفينيقيين[٢]، واستخدموها في تدوين لغاتهم المختلفة.

تُصنَّف لغة أوجاريت ضمن الفرع الشمالي الغربي من لغات المشرق العربي القديم، وهي لهجة كنعانية انتشرت في أوجاريت وجوارها، وتُوصَف بأنها لغة معربة تشبه في قواعدها اللغات العربية والأكادية

---

(١) مرعي، عيد، تاريخ لغات المشرق العربي القديم: اللغات السامية، ص١٤٤.

(٢) جاكسون، دونالد، تاريخ الكتابة، ترجمة: محمد علام خضر، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ٢٠٠٧، ص ٣٩ وما بعد.

والآرامية والفينيقية وغيرها من لغات المشرق القديم.

أما الآراميون فقد دوَّنوا نقوشهم وسطَّروا كتاباتهم باللغة الآرامية، التي تُصنَّف مع اللغة الكنعانية بلهجاتها المتنوعة ضمن الفرع الشمالي الغربي من لغات المشرق العربي القديم، وقد أصبحت هذه اللغة في عهد الفرس لغة التجارة والدبلوماسية في الشرق القديم.

مرت اللغة الآرامية[1] بمراحل عدة، وتطوَّرت حتى تفرَّعت منها لهجات كثيرة نتيجة انتشارها في مناطق واسعة، هذه المراحل هي:

١- الآرامية القديمة المبكِّرة:

هي لغة الممالك الآرامية الأقدم، التي قامت بين القرنين الحادي عشر والثامن عشر قبل الميلاد، ومنها نقوش السفيرة المدوَّنة على ثلاث نُصُب عُثِر عليها في موقع السفيرة جنوب شرقي حلب.

٢- الآرامية القديمة المتأخِّرة: هي لغة سادت وكُتِبت بها النصوص في المدة الممتدة من القرن الثامن إلى القرن السادس قبل الميلاد، منها رسالة مؤرَّخة ما بين ٧٣٥ – ٧٣٢ ق.م، كتبها ملك صور الفينيقي باللغة الآرامية إلى الملك الآشوري تيجلات بيليصر الثالث.

٣- الآرامية الإمبراطورية: ما بين ٥٥٥-٣٣١ ق.م، استُعمِلت لغة رسمية في الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، ولا سيما في مقاطعاتها الواقعة في بلاد الرافدين وسورية ومصر، حيث كان أغلب السكان يتكلَّمون الآرامية.

٤- الآرامية التوراتية: هي اللهجة التي كُتِبت بها أجزاء كبيرة من بعض أسفار العهد القديم (سفر عزرا – سفر دنيال)، ثم انقسمت

---

(١) مرعي، عيد، تاريخ لغات المشرق العربي القديم: اللغات السامية، ص٢٠٧.

اللغة الآرامية فيما بعد (أواخر القرن الأول قبل الميلاد) إلى لهجتين رئيستين هما:

- الآرامية الشرقية: انتشرت في بلاد الرافدين والمناطق الواقعة إلى الشرق منها، وشملت اللهجات الآتية: السريانية والمنداعية وتلموذ بابل وآرامية الحضر.
- الآرامية الغربية: انتشرت في سورية، ووصلت إلى مناطق شمال غربي شبه الجزيرة العربية، وضمَّت التدمرية والنبطية واليهودية الفلسطينية والفلسطينية المسيحية وآرامية السامرة.

عاشراً: العمارة والفنون:

العمارة هي فن بناء الأبنية متنوعة النشاطات، التي تحقّق المنفعة المرادة من إقامتها، ولاسيما المنفعة المادية سواء أكانت لأغراض سكنية أو إدارية أو دينية.

وقد أبدع الفنانون في تقديم أعمال فنية حاكت واقع الممالك السورية القديمة، فقد زُيّنت الأبنية من معابد وقصور بلوحات منقوشة، وأُحيطت البوابات بالمنحوتات المزخرَفة.

تدلُّ العمارة السكنية في بعض المواقع السورية القديمة على التخطيط والتنظيم الملفت، ففي مملكة إبلا عُثِر على بقايا قصر ملكي [1]، يقع على المنحدر الغربي للتل المركزي (المدينة العليا)، وهو مبنى ضخم يعود للألف الثالث قبل الميلاد، بُنِي باللبن، وحُفِظت جدرانه على ارتفاع ٧ أمتار.

---

(١) دياب، أحمد، التونسي، علا، تموم، جمال، آثار بلاد الشام، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١٥-٢٠١٦، ص٨٦-٨٧.

يتألَّف القسم الرئيس في القصر من باحة الاستقبال المربَّعة، وهي مزوَّقة من الجهتين الشمالية والشرقية، ومجهَّزة بمصطبة من اللبن (الرواق الشمالي) ملاصقة للجدار الشمالي للباحة، يُعتقَد أنها قاعدة العرش الملكي.

وهناك عدد من الغرف في الطابق العلوي، يتم الوصول إليها بواسطة درج في زاوية الباحة الشمالية الشرقية، وهناك شمال باحة الاستقبال جناح للتخزين مؤلَّف من غرف عدة.

أما في الجزء الشرقي من باحة الاستقبال، فهناك درج ضخم من البازلت يعلو منحدر الأكربول (نحو ٦م) إلى غرف في الأعلى، أما الجناح الإداري للقصر فيقع إلى الجنوب من الدرج الضخم.

إذا انتقلنا إلى وصف المنازل السكنية، فيمكننا أن نسوق أمثلة عليها من مملكة ألالاخ، حيث بُنِيت هذه المنازل وفق مخطَّطات ذات تصاميم معمارية منتظمة، تحتوي على ممر مؤلَّف من عدة غرف، حيث تصطف الغرف الصغيرة متعامدة مع غرف أخرى كبيرة واقعة على محور البناء الطولي، وتختلف مساحتها باختلاف وظائفها، جدرانها مبنية من الحجر، وأرضياتها مرصوفة بالجص، وفيها حمامات تخرج منها قنوات التصريف، وتدلّ مخطَّطاتها المنتظمة وجودة بنيانها على أنها لم تكن أبنية سكن عادية [١].

تختلف مساحات المنازل من موقع لآخر، وتؤلِّف المساحة الداخلية من ٤٠ – ٧٠ % من المساحة الخارجية، التي يبلغ متوسطها في جميع الأبنية ١٣٥م٢.

كما يمكن أن نسوق مثالاً عن الأبنية الدينية، من خلال ما ظهر في

---

(١) عبد الرحمن، عمار، المرجع السابق، ص٤٩–٥٢.

مملكة ماري، حيث خُصِّص حي من أحياء المدينة للمعابد التي خصِّصت لعبادة الآلهة التي لها قيمة كبيرة في نفوس الناس، يقع هذا الحي في مركز التل، ويضمّ المعابد الآتية: مجمع الكتلة الحمراء– معبد نينخورساج – معبد عشتارت – معبد شماس – معبد نيني زازا[١]. يمكننا أن نفصِّل الحديث أكثر حول طريقة بناء معبد شماس، الذي خُصِّص لعبادة إله الشمس "شماش" على النحو الآتي:

يتكوَّن المعبد من مخطَّط بسيط يضمّ المكان المقدّس، فهو فناء ذو شكل مربَّع، يبلغ طول ضلعه ١٥م، مزوَّد برواق يمتد على طول جداريه الجنوبي والشرقي، يؤكِّد ذلك ظهور قواعد الأعمدة التي كانت تحمل سقف هذا الرواق التي تظهر بوضوح على المخطَّط، وفي الجهة الشمالية من المعبد ترتكز قاعدة متطاولة تمثِّل حرم المعبد، أو ما يُسمَّى قدس الأقداس، لها طول ضلع الفناء نفسه، وهناك درج يربط بين المكان المقدَّس وقدس الأقداس يشغل جزءاً من الواجهة الشمالية للفناء المربَّع، وينفتح مباشرة على القاعة المستطيلة[٢]، يضمُّ بناء المعبد أيضاً حجرات أخرى تتوزَّع على الجهتين الجنوبية الغربية والشمالية الشرقية منه.

أما في الألف الأول قبل الميلاد فقد بُنِيت الممالك الفينيقية والآرامية وفق مخططات معمارية، نسوق مثالاً عليها مملكة شمأل الآرامية، التي بُنِيت وفق مخطط بيضوي (شبه دائري)، وكان لها ثلاث بوابات: جنوبية، غربية، شمالية شرقية، تبتعد هذه البوابات عن بعضها بعضاً مسافة منتظمة، وتُعدُّ البوابة الجنوبية البوابة الرئيسة والمميزة معمارياً وزخرفياً بين البوابات الأخرى، وقد زُوِّدت بأبراج دفاعية، وزُيِّنت

(١) عبد الحق، حسان، المرجع السابق، ص١٩٠–٢٢١.

(٢) المرجع نفسه ص٢١٠.

بمنحوتات حجرية ضخمة، وأُحيطت المدينة بسور دائري مزدوج متحد المركز، يتراوح طول قطره ما بين ٧٢٠ – ٨٠٠ م، ويبلغ طوله ٢٢٠٠م، وقد بُني من الحجارة الصغيرة والكبيرة. تضمَّن المخطَّط قسمين، المدينة العليا التي تتوسّط المملكة، وتضمُّ أبنية سكنية وإدارية وتحصينات وساحات وقصور، والمدينة السفلى التي تضمُّ بيوتاً سكنية وساحات ونظام شوارع متحد المركز مرصوفة بالحجارة، ويحيط بهذه الساحات المنشآت المعمارية والأبنية التي تتميز بغرفها المستطيلة، فمثلاً يضمّ أحد الأبنية فناء مركزياً مربَّع الشكل، تحيط به من جوانبه الأربعة غرف مبنية من الحجارة المتوفرة في المنطقة، أراضيها مرصوفة بحجارة ذات سطح أملس [١].

أما فيما يتعلَّق بالفنون فقد عُثِر على الكثير من الأعمال الفنية في عواصم الممالك السورية القديمة، منها الرسوم الجدارية في قصر الملك زمري ليم، التي تمثِّل تسلم الملك الخاتم والصولجان، وهما من رموز السلطة من الآلهة عشتار آلهة الحب والحرب، وهنالك لوحة تصوِّر حلقة دينية يقف فيها زمري ليم أمام عشتار.

كذلك استعمل سكان ماري العاج في أعمالهم الفنية، فقد عُثِر على عدد كبير من القطع الصدفية والعاجية المبعثرة، والتي يبلغ عددها أكثر من ٥٠٠ قطعة، من بينها رسوم إنسانية في أوضاع مختلفة، منها الجالس والواقف والحاني والعاري والمحارب والأسير، ومنها تمثال امرأة عارية تضع عصابة على رأسها، وترفع ثدييها بيديها، عيناها مطعَّمتان بالصدف واللازورد، وسرتها وأجزاء من ثدييها مذهبة [٢].

---

(١) فرج، عباس، المرجع السابق، ص ٢٧٧–٢٧٨.

(٢) عبد الحق، حسان، المرجع السابق، ص٤٠٩.

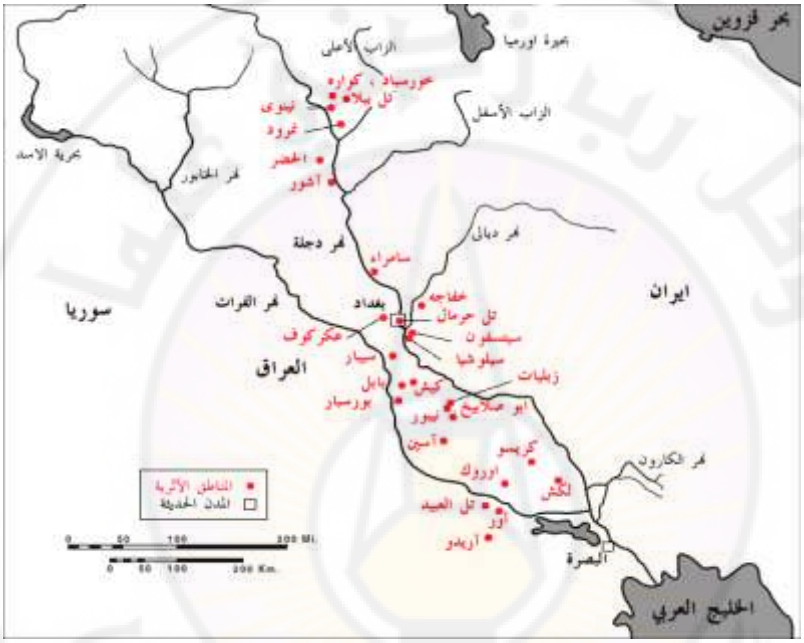
كما عُثِر في مملكة شمأل [1]على لوحات نقشية جميلة من حيث أشكالها ومواضيعها، كان قد زيَّن بها ملوك شمأل بوابات مدينتهم ومداخل قصورهم وواجهاتها المزيَّنة بمنحوتات حجرية منقوشة، منها ما يصوِّر حياة الإنسان اليومية، ومنها مشاهد خيالية تمثِّل حيوانات خرافية (لها رأس إنسان وأجسام حيوانات برية ووحشية)، ومنها ما يصوِّر مشاهد حربية تُظهِر محارباً يرمي السهام وهو على الأرض، أو فوق عربة حربية يجرُّها حصان، ومنها ما يصوِّر مشاهد صيد لرامي قوس إلى جانب إبل وغزال، ومنها ما يضمُّ مشاهد تصوِّر الآلهة.

كذلك عُثِر في مملكة شمأل على مجموعة من المنحوتات العاجية، هي قطع من كراسٍ ومقاعد وكرسي عرش مزخرَف بأشكال عدة، معظمها بشري وحيواني، وتضمُّ هذه اللوحات العاجية أيضاً مشاهد أسد يفترس ثوراً.

(١) فرج، عباس، المرجع السابق، ص٣٢١ وما بعد.

الفصل الثالث

حضارة بلاد الرافدين



أولا- بلاد الرافدين جغرافياً:

تمثِّل بلاد الرافدين أحد أقاليم الشرق الأدنى القديم، ويُستخدَم هذا المصطلح للدلالة على المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، ويُكوِّن العراق بحدوده الحالية الجزء الأكبر منها، تمتد بلاد الرافدين من هضبة أرمينيا شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً، ومن الفرات غرباً إلى دجلة شرقاً[1]. أول من استخدم هذا المصطلح هم اليونانيون، إذ لم يكن

(١) هبو، أحمد ارحيم، تاريخ الشرق القديم ٢، بلاد ما بين النهرين (العراق)، دار الحكمة اليمانية، ط١، صنعاء، ١٩٩٦، ص١٤.

متداولاً لدى القدماء في هذه المنطقة، بل كانوا يتداولون أسماء لمناطق تنتمي إلى بلاد الرافدين، مثل سومر وأكاد وبابل وآشور[١].

يقسِّم البعض بلاد الرافدين إلى المناطق الآتية:

١-المنطقة الشمالية: عُرِفت بلاد هذه المنطقة باسم بلاد آشور نسبة إلى مدينة آشور، وأُطلِق على سكانها اسم الآشوريين، تمتد هذه المنطقة من شمالي بلاد بابل على طول المجرى الأوسط لنهر دجلة إلى سفوح الجبال شمالي مدينة الموصل، وتتميز بزراعتها البعلية لكثرة أمطارها، ولأن نهر دجلة يخترقها هو ورافداه: الزاب الأعلى والزاب الأسفل.

أسَّس الآشوريون ممالكهم في هذه المنطقة في الألف الثاني والألف الأول ق.م، وحقَّقوا إنجازات كثيرة على الصعيدين السياسي والحضاري.

٢- المنطقة الجنوبية (بلاد بابل): أُطلِق على هذه المنطقة اسم بلاد بابل نسبة إلى مدينة بابل، التي كانت من أشهر المدن الرافدية عند تأسيس الدولة البابلية القديمة، وعاصمة لمملكة بسطت سيطرتها على بلاد الرافدين كلها، تضمُّ هذه المنطقة سومر وأكاد وبابل، وتمتد من بغداد حتى مصب نهري دجلة والفرات في الخليج العربي، تقع سومر في منطقة الدلتا التي تمثِّل التقاء نهري دجلة والفرات في أقصى جنوبي بلاد الرافدين، نشأت فيها المدن الرافدية الأولى في زمن فجر الحضارة والسلالات الباكرة، وقد ساعد على ذلك نشوء زراعة ناجحة فيها، نتيجة توفر التربة الخصبة، وتوفر المياه، وموقع الكثير من المدن على طرق

---

(١) رو، جورج، العراق القديم، ترجمة وتعليق حسين علوان حسين، مراجعة فاضل عبد الواحد علي، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ٢٠١٩، ص٢١.

تجارية. أما بالنسبة لأكاد فتقع شمالي سومر، استوطن فيها الأكاديون الذين أخضعوا السومريين، وقضوا على سلطتهم في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م، وأنشؤوا مدينة أكاد التي اتخذوها عاصمة لهم، ثم ظهر البابليون على المسرح السياسي في النصف الأول من الألف الثاني ق.م، وازدهرت مدينة بابل، وأُطلِق على هذه المنطقة اسم بلاد بابل، تميَّزت منطقة الجنوب بقلة أمطارها وارتفاع درجة حرارتها، مما دفع سكانها إلى شق القنوات وبناء السدود لري أراضيهم، واستغنوا بهذه التقنيات عن الزراعة البعلية التي لا تلائم منطقتهم.

٣-القسم الشمالي الغربي: تُسمَّى هذه المنطقة الجزيرة العليا، وتضمّ الجزيرة السورية، التي تمثِّل جزءاً من الجمهورية العربية السورية بحدودها الحالية، تحدُّها من جهة الشمال جبال طوروس، ومن الغرب نهر الفرات، وهي منطقة خصبة غنية بالمياه، ففضلاً عن نهر الفرات كان يخترقها نهرا البليخ والخابور، اللذان كانا يرفدان نهر الفرات، وكذلك غنية بالينابيع، وتهطل فيها كميات كبيرة من الأمطار[١]، تُعدُّ هذه المنطقة منطقة التوسع الأولى للآشوريين، حيث احتلوا بعض مدنها، التي كانت مراكز أساسية في مملكتهم.

ثانياً-تاريخ بلاد الرافدين

حكمت بلاد الرافدين خلال تاريخها الطويل سلالات ذات أصول مختلفة، وأسَّست دولاً كان لها تأثير واضح في تاريخ هذه المنطقة، وتاريخ المناطق المجاورة. يُعدُّ السومريون أول شعب ظهر على المسرح

(١) هبو، أحمد ارحيم، المرجع السابق، ص١٧.

السياسي خلال العصور التاريخية في بلاد الرافدين، فأصلهم غير معروف حتى الآن، وكل ما هو معروف أنهم هاجروا إلى بلاد الرافدين من منطقة تقع شرقي بلاد الرافدين، ثم أسَّسوا سلالات حاكمة حكمت مدن بلاد سومر، التي تقع جنوب بلاد الرافدين، وأُطلِق على هذه المدن اسم دويلات المدن، منها أوروك وأور ولاجاش وأوما، ولم يستطع السومريون تأسيس مملكة واحدة تتحد فيها هذه الدويلات. ينقسم عصر السلالات الباكرة إلى ثلاثة عصور هي: (عصر السلالات الباكرة الأول ٢٩٠٠ – ٢٧٥٠ ق.م، وعصر السلالات الباكرة الثاني ٢٧٥٠ – ٢٦٥٠ ق.م، وعصر السلالات الباكرة الثالث ٢٦٥٠ – ٢٣٥٠ ق.م).

أنهى شاروكين الأكادي الحكم السومري عام ٢٣٥٠، وقتل آخر ملك سومري لوجال زاجيزي ملك أوروك، واحتل المدن السومرية واحدة تلو الأخرى، وأسَّس الإمبراطورية الأكادية، التي أُديرت من عاصمتها أكاد، التي لم يُعثر عليها حتى الآن، وضمّت هذه الإمبراطورية بلاد الرافدين، وشمال سورية، وأجزاء من إيران المطلة على الخليج العربي، ومناطق من جنوب شرقي الأناضول، خلَفَ شاروكين عدد من الملوك، من أهمهم وأقواهم نارام سين (حفيد شاروكين)، الذي أعاد للإمبراطورية الأكادية هيبتها وقوتها، وقضى على الثورات التي كادت تعصف بها، وأخيراً وصلت الإمبراطورية الأكادية في آخر أيامها إلى درجة كبيرة من الضعف، مما جعل الكوتيين، الذين كانوا يستوطنون في جبال زاغروس المجاورة لبلاد الرافدين، يهاجمون أكاد ويدمِّرونها عام ٢١٥٩ ق.م، وهكذا سقطت الإمبراطورية الأكادية. ينتمي الكوتيون إلى الهندو أوروبيين، وبعد القضاء على الحكم الأكادي، اقتصر نفوذهم على منطقة قريبة من أدب، وفي منطقة أكاد، وحكم السلالة الكوتية ٢١

ملكاً، وانتهى حكمها في ٢١١٦ ق.م، وقد وصفتهم المصادر بالبرابرة، لأنهم قاموا بأعمال تخريب وقتل في بلاد الرافدين، ووُصِف عهدهم بأنه من الحقب المظلمة في تاريخ بلاد الرافدين.

في نهاية الألف الثالث ق.م عرفت بلاد الرافدين ما يُسمَّى بعصر الإحياء السومري، الذي انبعثت خلاله اللغة والثقافة السومرية، وظهرت في هذا العصر سلالتان، الأولى هي سلالة لاجاش الثانية، وهناك من يرى أن هذه السلالة أُسِّست على يدي أوربابا (٢١٦٤ – ٢١٤٤ ق.م)، وهناك فريق آخر يرجِّح أن تكون قد أُسِّست في أواخر عهد نارام سين الأكادي على يدي ملك آخر يُدعى لوجال أو شمجال، بصرف النظر عن هوية الملك المؤسِّس، يُعدُّ أوربابا ملكاً قوياً، استطاع التوسع في مدن مجاورة مثل أور، وعيَّن ابنته كاهنة عليا في معبد نانا إله القمر في هذه المدينة، وأنجز مشاريع عمرانية في مملكته، مثل بناء المعابد ومشاريع الري، وزوَّج إحدى بناته لجوديا الذي خلفه في حكم لاجاش، واستمرت مدة حكمه من ٢١٤٣ إلى ٢١٢١ ق.م. ويُعدُّ جوديا أهم ملوك سلالة لاجاش الثانية، إذ أنجز مشاريع عمرانية، وحفر الأقنية، فزادت مساحة الأرض المزروعة، وارتبط مع الممالك المجاورة بعلاقات تجارية. يبدو من خلال تاريخ حكام سلالة لاجاش الثانية أن هذه السلالة عاصرت الكوتيين، الذين احتلوا أجزاءً من بلاد الرافدين.

أما السلالة الثانية فهي سلالة أور الثالثة (٢١١٢ – ٢٠٠٤)، لكن قبل تأسيس هذه السلالة، ظهر على المسرح السياسي ملك سومري يُدعى أوتوخيجال (٢١١٦ – ٢٠١٠ ق.م)، وينتمي إلى سلالة أوروك الخامسة، استطاع تحرير بلاد الرافدين من الكوتيين، وكان أورنامو

(٢١١٢ – ٢٠٩٤ ق.م) مؤسِّس سلالة أور الثالثة حاكماً عسكريا لمدينة أور، وتابعاً لأوتوخيجال، لكنه تمرَّد على سيده، واستقل في أور، وأسَّس مملكة أور الثالثة، التي اتخذت من مدينة أور عاصمة لها، وخلفه في الحكم أبناؤه وأحفاده، واستمر حكم هذه السلالة حتى عام ٢٠٠٤ ق.م، وهو العام الذي هاجم العيلاميون فيه مدينة أور، ودمّروها، وأنهوا حكم سلالة أور الثالثة، جرى ذلك كله في عهد آخر ملوكها إبي سين.

وبانتهاء عصر سلالة أور الثالثة بدأ العصر البابلي القديم، الذي امتد من ٢٠٠٤ ق.م إلى ١٥٩٥ ق.م، وهو تاريخ سقوط المملكة البابلية القديمة على يد مورشيلي الحثي، أثناء هذا العصر ظهر الأموريون على المسرح السياسي في بلاد الرافدين وسورية، وأسَّسوا ممالك لهم في المنطقتين، من ممالكهم الرافدية مملكة بابل القديمة، ومملكة أشنونا، ومملكة إسين، ومملكة لارسا، ومملكة آشور القديمة، وقد تصارعت هذا الممالك مع بعضها بعضاً، وتمكّن حمورابي البابلي من أن يقضي عليها في نهاية المطاف، ووحَّد بلاد الرافدين، وامتاز عهده بالقوة، ووضع قانونه الشهير، وبعد وفاته بدأت الدولة البابلية القديمة تتصدَّع، حتى سقطت في عام ١٥٩٥ق.م على يد الحثيين الذين انسحبوا منها، فملأ الكاشيون الفراغ السياسي، واعتلوا عرش بابل.

ظهر الكاشيون في بابل قبل سقوطها على أيدي الحثيين، وهم من أصول هندو أوروبية، هاجروا إلى بابل– قبل سقوطها بمدة طويلة من الزمن – من جبال زاغروس المجاورة من أجل العمل، وأسهموا في بناء الحضارة الرافدية على صعيد الفن واللغة والأدب والدين أثناء حكمهم

لبلاد بابل، التي حكموها حتى عام ١١٥٥ ق.م، وهو العام الذي قام فيه حاكم بابل العيلامي كودور ناخونتي بمهاجمة بلاد بابل، وتحويل مدنها إلى خرائب، وقد جرى ذلك عندما حاول القائد الكاشي إنليل – نادين – أخي مقاومة العيلاميين الذين احتلوا بلاد بابل في زمن حكم ملكها شوتروك ناخونتي (١١٨٥ – ١١٥٥ ق.م).

عاصرت الكاشيين قوى أخرى ظهرت في بلاد الرافدين، مثل الدولة الآشورية الوسطى، والمملكة الحورية الميتانية، التي أسَّستها عناصر هندو أوروبية، تمركزت المملكة الحورية الميتانية في شمالي بلاد الرافدين وشمالي سورية، وكانت عاصمتها واشوكاني في منطقة الجزيرة السورية، بلغت أوج قوتها في منتصف الألف الثاني ق.م، لكن قضى عليها الآشوريون في بداية القرن الثاني عشر. تمكَّن الآشوريون في زمن الدولة الآشورية الوسطى من السيطرة على مناطق واسعة من بلاد الرافدين وسورية، وأقاموا علاقات مع ملوك مصر، وتبادلوا الهدايا معهم، ووقفوا في وجه الآراميين، الذين بدؤوا في نهاية الألف الثاني ينتشرون في سورية وبلاد الرافدين، واستطاعوا تأسيس إمارات لهم في الألف الأول ق.م.

شهدت بلاد الرافدين بروز قوتين عظيمتين في الألف الأول ق.م، هما الدولة الآشورية الحديثة (٩١٢ – ٦١٢ ق.م)، والدولة البابلية الحديثة (الكلدية) (٦٢٥ – ٥٣٩ ق.م)، استطاعت الدولة الآشورية الحديثة مد نفوذها إلى بلاد عيلام وسورية ومصر، وفضلاً عن قوتهم العسكرية، كان بعض الملوك الآشوريين مولعين بالثقافة والعلم، مثل آشور بانيبال (٦٦٨ – ٦٢٨ ق.م)، الذي أنشأ مكتبته الشهيرة، التي عُثِر فيها على

رُقم نُقِشت عليها نصوص فلكية وطبية وأدبية ورياضية ودينية.، كما اشتُهِر الملوك الآشوريون بإنجازاتهم المعمارية، إذ بنوا المدن مثل كلخو، ونينوى، ودور شاروكين (خورسباد)، واشتُهِرت هذه المدن بأسوارها الضخمة، وبواباتها الكثيرة، واحتوت في داخلها على قصور ومعابد، وقد تحدَّثت النصوص الآشورية عن الجهود الكبيرة التي بذلها الملوك الآشوريون في سبيل الحصول على المواد الأولية، ولاسيما الخشب، الذي كان يُجلب جزء كبير منه من جبال لبنان. مرت الدولة الآشورية الحديثة بمرحلة ضعف في أواخر عهدها، وسقطت في النهاية على أيدي الميديين في عام ٦١٢ ق.م. أما بالنسبة للدولة البابلية الحديثة، فقد تمكَّنت من مد نفوذها خارج حدود بلاد الرافدين، حيث احتلت سورية، وأفادت من الأخشاب الموجودة في جبال لبنان. من أعظم ملوكها نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ – ٥٦٢ ق.م)، الذي رمَّم أسوار بابل، وكثيراً من مبانيها، وشيَّد مبانيَ أخرى مثل: بوابة عشتار، والحدائق المعلَّقة، وزقورة بابل، هذه المباني التي تُعدُّ من الأوابد الرئيسة في مدينة بابل، سقطت الدولة البابلية الحديثة على يدي قورش الفارسي في عام ٥٣٩ ق.م، في عهد آخر ملوكها نابونيد، فدخلها قورش من دون مقاومة متفقاً مع كهنتها، الذين نقموا على نابونيد الذي استبدل بعبادة إلههم القومي مردوك عبادة سين إله القمر، واستمر الحكم الفارسي لبابل حتى ٣٣٣ ق.م، وهو العام الذي احتل فيه الإسكندر المقدوني بابل محققاً انتصاراً على دارا الثالث الفارسي.

ثالثاً–الإدارة ونظام الحكم:

١-الملك:

ساد اعتقاد في بلاد الرافدين في عصر السلالات الباكرة بأن الملكية هبطت من السماء في هذه المدينة أو تلك، وأن الملك اختارته الآلهة، ومنحته رموز السلطة المتمثِّلة بالعصا والحلقة والتاج، وكان الملوك يتفاخرون بهذا الاختيار، منهم بعض ملوك لاجاش، ولاسيما أوروإنمجينا وجوديا، اللذين ادعيا أن الآلهة اختارتهما من بين رجال كثر في مدينتهم، سعى الملوك من خلال هذه الادعاءات إلى إضفاء الشرعية على حكمهم، وتسويغ وصولهم إلى الحكم، ولم يكتفوا بهذا الادعاء، بل ادعوا أنهم من نسل إلهي أيضاً، مثل جوديا الذي ادعى أنه ابن الإلهة نينسون، وأرنامو الذي ادعى أنه ابن الإلهة نينسون، التي ولدته بناءً على أوامر إله القمر، كما ادعى آشور بانيبال أنه ابن الإلهة ننليل زوجة الإله آشور.

كان الملك يتربَّع على قمة الهرم السياسي والإداري في مملكته، ظهرت شخصيته في زمن مبكِّر من تاريخ بلاد الرافدين، وكان يمارس السلطتين السياسية والدينية[١]، ويُعتقد أنه كان يسكن في المعبد، ومنه يدير شؤون مملكته. انفصلت في عصر السلالات الباكرة الثاني أو الثالث السلطة الدينية عن السياسية، وظهرت شخصية الملك المستقلة عن شخصية الكاهن، وظهر القصر الذي اتخذه الملك بيتاً ومقراً لإدارة شؤون المملكة على المستويات السياسية والإدارية والاقتصادية، من أقدم القصور التي تدلّ على ظهور شخصية الملك الرافدي قصر كيش،

(١) باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، دار الوراق، ط٢، ٢٠١٢، ص٤٨١.

وأريدو، وقصر المدينة الثانية في ماري. تميّز الملك بمكانته الكبيرة في المجتمع الرافدي في عصر السلالات الباكرة الثالث، فقد ورد في نصوص شوروباك أن قصر الملك كان يضمّ الموظَّفين مثل الحجَّاب، والسقاة، والموسيقيين، والطباخين[١]، حافظ الملك على مكانته المرموقة في المراحل اللاحقة، فمدينة ماري، على سبيل المثال، كانت تحتوي على قصر فخم جداً، يعود إلى العصر البابلي القديم، ويمتاز بحجمه الكبير وبفخامته، مما يؤكد مكانة الملك المرموقة خلال هذه الحقبة.

كان الملك ممثِّلاً للإله على الأرض[٢]، وكان يصل إلى الحكم عن طريق الوراثة، ظهر ذلك جلياً في السلالة الواحدة، حيث كان الابن البكر أو أي ابن آخر يرث أباه، فسنحاريب الآشوري عيَّن ابنه البكر خليفة له في بداية الأمر، ثم غيَّر رأيه ونصَّب ابنه الأصغر خليفة له، وقد لا يخلف الملك أحد أبنائه، بل أحد أفراد عائلته، فإناتوم السومري لم يكن ولداً للملك السابق، بل أخاً له، وقد خُرِق تقليد التوريث في مرات كثيرة، ولاسيما عند انتقال الحكم من سلالة إلى أخرى، فعلى سبيل المثال كان شاروكين من أصل أكادي، وانقلب على السومريين، وقتل آخر ملك سومري وهو لوجال زاجيزي، وأنهى حكمهم للجنوب الرافدي، وأسَّس سلالة حاكمة جديدة، هي السلالة الأكادية[٣]، والأمر نفسه كُرِّر

---

(١) الأحمد، سامي سعيد، الإدارة ونظام الحكم، حضارة العراق، الجزء الثاني، ١٩٨٥، ص٨، ١٠.

(٢) بارندر، جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٣، ص٢٢.

(٣) باقر، طه، المرجع السابق، ص٣٨٧.

مـع أورنـامو (٢١١٢ – ٢٠٩٤ ق.م) حـاكم أور، حيـث كـان حاكمـاً عسكرياً علـى أور، وكـان تابعـاً لأوتوخينغـال حـاكم أوروك، لكنـه انقلـب عليـه، واستأثر بحكم أور، وأسَّس سلالة أور الثالثة التي ظلت تحكم الجنوب الرافدي حتى عام ٢٠٠٤ ق.م.

كمـا عرفـت بـلاد الرافـدين تقليـد تأليـه الملـوك، ويُعتقَـد أن نـارام سـين الأكـادي هـو أول ملـك مؤلَّـه فـي حياتـه، ومما يـدل علـى تأليهـه نجمـة الألوهيـة التـي سبقت اسمه، ومسلته الشهيرة التـي مثَّلتـه معتمراً الخـوذة ذات القرنين، اللتـان تُعـدَّان شـارة الألوهيـة، استمر هذا التقليـد فـي عهـد سلالة أور الثالثة، إذ ألَّـه شولجي بن أورنـامو وخلفاؤه أنفسهم، وظهرت شارة الألوهية أمام أسمائهم، وجرى تخصيص معابد لعبادتهم، مثل معبد شوسين فـي تل أسمر، وقُدِّمت النـذور والأضـاحي لتمـاثيلهم، لكـن فـي مقابل ذلك لم تقدِّم الوثائق إشارات علـى تأليه الملوك الآشوريين، علـى الرغم من أنهم كانوا يضعون تماثيلهم مع تماثيل الإله آشور في معبده.

أدَّى الملك الرافدي دوراً مهماً في طقس الزواج المقدَّس في عيد الرأس الربيعية، وكان ينوب عن الإله تموز في هذا الطقس، في حين كانت كبيرة الكاهنات تنوب عن الربة عشتار، وكان هذا الطقس يرمز إلى عودة الخصب إلى الطبيعة[١].

اتخذ الملوك الرافديون ألقاباً مختلفة، تشير في معظمها إلى العظمة، فعلـى سبيل المثال لَقَّب آخر ملك سومري نفسه بملك البلاد، وملك

(١) مرعي، عيد، عبادة آلهة الخصوبة في الشرق القديم، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٦، ص٥٤.

أوروك، وملك أور، كما اتخذ شاروكين الأكادي لقب ملك العالم، واتخذ أورنامو لقب ملك سومر وأكاد، وملك جهات العالم الأربع، ولقَّب الملوك الآشوريون أنفسهم بكاهن آشور، وملك العالم، الذي كان يماثل اللقب البابلي ملك العالم[١].

٢-حكَّام المقاطعات:

بعد انتهاء عصر السلالات الباكرة في بلاد الرافدين ظهرت الإمبراطورية الأكادية، التي أسَّسها شاروكين الأكادي، وكانت مترامية الأطراف، حيث امتدت حدودها من بلاد الرافدين إلى سورية والأناضول وبلاد عيلام وأطراف شبه الجزيرة العربية، وكان لزاماً على الملوك الأكاديين، نتيجة هذا الامتداد الواسع، تعيين حكام للولايات موالين لهم لإحكام سيطرتهم على مملكتهم الواسعة، يبدو ذلك جلياً من خلال سياسة شاروكين، الذي عيَّن حكَّاماً على المدن والولايات التابعة له، وألغى نظام توريث هذه المناصب، وأزال أسوار المدن، وربما فعل ذلك لأنه كان يخشى من حدوث تمردات في داخلها، وفي عهد حفيده نارام سين لقَّب حكَّام المدن أنفسهم بعبد الملك، واستمر هذا التقليد في الحقب اللاحقة[٢].

اتبعت سلالة أور الثالثة نظاماً مماثلاً للنظام الأكادي، حيث كانت بلاد بابل مقسَّمة إلى أكثر من أربعين مقاطعة، وكان على رأس كل مقاطعة حاكم يحمل لقب إنزي، وكان الإنزي إما من العائلة الملكية أو

---

(١) للتعرف إلى ألقاب الملوك أكثر انظر: محمد، هيفاء أحمد عبد الحاج، ألقاب حكام وملوك العراق القديم، رسالة الماجستير، جامعة الموصل، ٢٠٠٧.

(٢) باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص٣٨٧.

مقرَّباً منها، وكان يحقُّ للملك نقل الإنزي من مكان إلى آخر، أما الولايات البعيدة عن العاصمة أور، فقد عيَّن الملك حاكماً عسكرياً عليها، يحمل لقب شاجين، وكان الهدف من تعيينه في هذه المناطق هو سرعة التدخل في حال تعرضها للأخطار، كما ضمَّت مملكة أور ولايات صغيرة، وحكم كل واحدة منها موظَّف ملقَّب برَبيانوم، أما القرى والبلدات الصغيرة، فقد تولَّى إدارتها موظَّف ملقَّب بخزانوم، الذي يماثل كلمة مختار في اللغة العربية[١].

في عهد الدولة البابلية القديمة، ولاسيما في زمن حمورابي، قُسِّمت الدولة إلى مقاطعات، غير أن كلمة إنزي صارت تُطلَق على الموظَّف الذي لا يتلَّقى أوامره من الملك، وإنما من موظَّف يأتي بعد الملك مباشرة، ويعمل وسيطاً بين الملك وبين حكَّام المقاطعات، حيث ينقل الأوامر التي تصدر عن الملك إلى حكّام تلك المقاطعات. استمر في الفترة الكاشية النظام الإداري الذي كان شائعاً في عهد حمورابي، فقد ضمَّت المملكة عشرين مقاطعة، وعلى رأس كل مقاطعة حاكم، وكان الملك هو المسؤول عن تعيين الحكَّام، وكل مقاطعة تمثِّل حكومة مسؤولة أمام حكومة بابل، وقد سُمِّيت كل مقاطعة باسم المدينة الرئيسة فيها، مثل إسين ونفر[٢].

في العصر الآشوري قُسِّمت المملكة إلى مقاطعات تُدار من الحكومة المركزية، وكان لها ثلاث عواصم هي: آشور وشوباط إنليل وإكلاتوم،

---

(١) عبد الله، فيصل، مرعي، عيد، تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الرافدين)، جامعة دمشق، ٢٠١٣ – ٢٠١٤، ص٢٤٥ – ٢٤٦.

(٢) الأحمد، سامي سعيد، المرجع السابق، ص٢٥.

وكان حكَّام المقاطعات يتلقون أوامرهم من الملك، فهم مسؤولون أمامه مباشرة، وكانوا يرسلون إليه الضرائب، ويقع على عاتقهم حفظ الأمن في مقاطعاتهم، وكانوا يقودون الجيش ويقومون بحملات تأديبية من أجل الحفاظ عليها، كما كان الحاكم مسؤولاً عن أعمال التجنيد أيضاً. نستنتج من ذلك أن حاكم المقاطعة كان يؤدّي الوظائف العسكرية والمدنية في آن معاً، وكان يخاف من معاقبة الملك له إن رُفِعت إليه شكاوى عنه، إذْ كان بإمكان أي موظَّف آشوري أن يرفع تقريره إلى الملك مباشرة، وأن يبلِّغه بكل شيء يراه.

رابعاً–الحياة الاقتصادية:

١–الزراعة:

امتازت بلاد الرافدين بخصوبة تربتها وكثرة مياهها، مما جعلها تمتلك مقومات الزراعة الناجحة، وقد استغل الرافديون هذه الظروف لصالحهم، فزرعوا أراضيهم بمحاصيل مختلفة، وأصبحت الزراعة إحدى دعائم بلاد الرافدين الاقتصادية، عرفت بلاد الرافدين الزراعتين البعلية والمروية، حيث انتشرت الزراعة البعلية في المناطق المرتفعة شمالي بلاد الرافدين، والزراعة المروية في منطقة الجنوب، معتمدة على مياه نهري دجلة والفرات، إضافة إلى حفر الناس للقنوات في هذه المنطقة، وشقهم الجداول كي تروي محاصيلهم.

من محاصيلهم الأساسية الشعير والحنطة، وإن كان الشعير أكثر انتشاراً من الحنطة، وقد تركزت زراعة هذين المحصولين في منطقة الجنوب خاصة، ومما يؤكد أهميتهما ظهورهما بكثرة في نقوش الأختام، كما زُرِعت في بلاد الرافدين أنواع أخرى من الحبوب، مثل الذرة

والحمص والعدس[١] والدخن، ومن المحاصيل الأخرى الأرز، الذي دخل إلى بلاد الرافدين في القرن الخامس ق.م، وقبل ذلك أدخل الملك الآشوري سنحاريب القطن الذي تُعدُّ الهند موطنه الأصلي، كما زرعوا السمسم، وتركزت زراعته في منطقة الجنوب، ومعنى السمسم بالسومرية: حب شجرة الزيت[٢]، استوردته بلاد آشور من الجنوب الرافدي، وكانوا يستخدمون زيته لأغراض شتى.

وكان القصب من النباتات المهمة في بلاد الرافدين، إذ كان ينمو ذاتياً في منطقة الأهوار، وكانوا يستخدمونه علفاً للحيوانات، وفي بناء البيوت، وفي صناعة الحصر، أما في المناطق الجبلية فقد زرعوا الفستق واللوز، وقد عرف الرافديون البساتين منذ العصر السومري القديم، وزرعوا فيها أشجار النخيل، والعنب، والتين، والتفاح، والمشمش، والسفرجل، والزعرور، والكمثرى، والرمان، والتوت، والزيتون، وثمة زراعات أخرى تُصنَّف مع الخضراوات، مثل الرشاد والبصل والثوم.

استخدم الرافديون أدوات كثيرة في الأعمال الزراعية، من بينها المناجل، التي كانت تُصنع من الطين المشوي، والصوان في العصر الحجري الحديث والعصر الحجري النحاسي، وتطوَّرت لاحقاً، وصارت تُصنَع من المعدن في العصر السومري القديم. وتحسَّنت صناعتها في

---

(١) ساكز، هاري، قوة آشور، ترجمة عامر سليمان، بغداد، ١٩٩٩، ص٢٣١.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٤.

العصر الآشوري، ومن أدواتهم الأخرى الفؤوس والمحراث الذي ظهر في مشاهد فنية كثيرة[١].

٢-الصناعة:

عرفت بلاد الرافدين كثيراً من الصناعات، من أهمها الصناعات المعدنية، التي خصَّص الرافديون لها مشاغل خاصة، وكانت هذه المشاغل تنتج أشياء مختلفة من البرونز والذهب والفضة، مثل الأدوات المنزلية، والأسلحة، والخُوَذ الحربية، والحُلي، والتماثيل. تحتوي المشاغل على أفران كبيرة، مقسَّمة إلى طبقتين، الطبقة السفلى تضمُّ حجرة الاحتراق، والعليا تستقبل خامات المعادن لصهرها في بواتق فخارية أو حجرية، ثم صبِّها لاحقاً. ازدهرت هذه الصناعات في العصر السومري الباكر واستمرت إلى حقب متأخرة من تاريخ بلاد الرافدين، تُؤكِّد ذلك أفران الصهر المكتشَفة في مواقع كثيرة، مثل أفران ماري التي تعود إلى النصف الأول من الألف الثالث ق. م[٢]، وثمة أدلة كتابية أخرى، مثل الرسالة التي تعود إلى العصر الآشوري الحديث، والتي أرسلها حرفيٌّ إلى الملك الآشوري طالباً منه أن يسمح له ببدء العمل في صناعة تمثال له ولزوجته، وذكر أنه يحتاج إلى ثلاثة كيلو غرامات من الذهب.

---

(١) الحيالي، فيحاء مولود، الآلهة والمشاهد الزراعية في فنون بلاد الرافدين، مجلة كلية الآداب، العدد ١٨، ٢٠١٦، ص٤٠٢.

(2) Muller B., 2014 «La Ville I de Mari: un bilan (1933-2004)», in Al-Maqdissi M., Beyer, D., Butterlin، P., Cavigneaux، A., Margueron, J.-C., Muller, B. (dir.), Mari, ni Est ni Ouest, actes du colloque international Mari ni Est ni Ouest ?, Damas 19-21 octobre 2010, Syria Supplementum 2, p:44.

اهتم الرافديون بالصناعات الغذائية أيضاً، مثل صناعة الأجبان والألبان واستخراج الزبدة منها، ويعود ذلك إلى توفر ثروة حيوانية كبيرة في بلاد الرافدين، شملت الصناعات الغذائية صناعة الزيوت، ومنها الزيوت الحيوانية المستخرَجة من الدهون الحيوانية، والزيوت النباتية المستخرَجة من بذور السمسم.

كما انتشرت في بلاد الرافدين الصناعات الإنشائية، ولعل أهمها صناعة اللِّبن بنوعيه النيء (المجفّف تحت أشعة الشمس) والمشوي، وشهدت هذه الصناعة ازدهاراً كبيراً، ساعد على ذلك توفر المادة الأولية ورخصها، وكان اللِّبن يُصنع في أماكن قريبة من موقع البناء ليسهل نقله إلى البناء أثناء تشييده، وزُوِّدت هذه الصناعة بأفران لشوي النوع الثاني من اللِّبن (الآجر أو الطابوق)، الذي استخدمه الرافديون لتبليط الأرضيات، وبناء إطارات النوافذ، وأحواض الماء. وللِّبن أحجام وأشكال مختلفة، فمنه مربَّع الشكل، ومنه المستطيل، ومنه المثلَّث الذي يكون أحد أضلعه منحنياً. لدينا صناعات إنشائية أخرى مثل صناعة الجصّ، الذي كان مخصَّصاً لطلي الجدران والأرضيات، وصناعة الأبواب، وصناعة القار المستخدَم للعزل، وصناعة الحصر من القصب لاستخدامها في بناء سقوف الأبنية.

عرفت بلاد الرافدين صناعة الغزل والنسيج أيضاً، واستخدمت في هذه الحرفة مواد مختلفة، مثل الصوف وشعر الماعز والكتان، وخصَّصت لها مشاغل كانت تابعة للقصور والمعابد، وثمة مشاغل خاصة كانت تنتشر في أحياء معينة من المدن، وقد ارتبطت هذه المهنة بالرجال أكثر من ارتباطها بالنساء، وعلى الرغم من ذلك زاولتها المرأة البابلية

والآشورية، ولاسيما في المشاغل التابعة للقصور، وكذلك في المنزل لتلبي احتياجات العائلة. استُخدِمت في هذه الحرفة أدوات، من أقدمها المغزل الخشبي، وهناك مغازل أخرى صُنِعت من العظم والمعدن، تمثَّلت وظيفة المغزل في تحويل المادة الأولية (الصوف مثلاً) إلى خيوط، واستخدم الرافديون النول أيضاً من أجل نسج الخيوط، وتحويلها إلى ملابس، مثل العباءات، أو مفروشات كالسجاد، وارتبطت هذه الصناعة بصباغة الغزول، التي كانت تُستخدَم في أعمال النسيج، حيث كانوا يصبغون الخيوط في أحواض مخصَّصة لهذا الغرض، وقد استخدموا أصبغة بألوان مختلفة (الأحمر، والأزرق، والأرجواني، والأسود، والأصفر)، وهي ذات مصدر نباتي (عصارة النباتات)، وبعضها مستخرَج من المعادن، ولا سيما حجر اللازورد.

ومن الحرف الرافدية الأخرى الخياطة، التي تُعدُّ إحدى المهن التي عرفها العصر السومري الباكر، ويبدو أنها كانت من المهن المهمة، يؤكِّد ذلك اهتمام قانون إشنونا بها، حيث وردت فيه مادة تتناول أجرة الخيَّاط: إذا أنجز ثوباً يساوي ٤٠ غراماً من الفضة، فإن أجرته تكون ثمانية غرامات من الفضة. تطوَّرت هذه الحرفة عند الآشوريين، ومن مظاهر تطورها تأسيس تنظيم خاص يضمُّ الخياطين، ويرأسه شيخ الخيَّاطين، وقد عرفوا ما يُسمَّى ببيت الخياطة، وهو مشغل كبير يعمل فيه عدد من الخياطين، ويرأسهم أحد الخياطين المهرة، وقد عملت المرأة في هذا النوع من المشاغل، لكن انحصر جهدها في تطريز الملابس.

وظهرت في بلاد الرافدين حرفة دباغة الجلود، وهي من المهن القديمة هناك، حيث كان الرافديون يستخدمون الجلود في صناعة الأحذية،

وقِرَب الماء، والحقائب، وأغمدة الخناجر والسكاكين، والخوذ الحربية، وسروج الخيل، والملابس. قبل عملية الدباغة يمرُّ الجلد بمراحل عدة، ففي البداية يُنشَر الجلد تحت أشعة الشمس ليجفَّ، ثم يُغطَس في حوض مملوء ماء مخلوطاً بالملح، ثم يُخرَج من الحوض، ويُنظَّف، ويُجفَّف، ويُحفَظ، وفي المرحلة التالية يُزال عنه الشعر، ثم يبدأ الحرفي بعملية الدباغة التي تتمثَّل بدهن الجلد بالشحم، ثم يُمدَّد بالطرق والضرب، إذ تسهم هذه العملية في إخراج ما تبقى من الماء داخل الجلد، والسماح للشحم بالنفاذ إلى داخله.

٣-التجارة:

ازدهرت الحركة التجارية في بلاد الرافدين، نتيجة حاجة الرافديين إلى مواد كثيرة لا تتوفَّر في بلادهم، مثل الأصداف والمعادن، ونتيجة رغبتهم في تصريف المنتجات الزائدة التي كانوا ينتجونها، مثل المنتجات الزراعية والحيوانية.

تاجرت بلاد الرافدين مع الخليج العربي، وصدَّرت المنتجات الزراعية إليه، واعتمدت في علاقتها معه على وسائط النقل النهري، ومما ساعد على نجاح وصول القوافل التجارية الرافدية إلى الخليج (سواحل الخليج الغربية)، التي وفَّرت طريقاً ملائماً لوسائط النقل النهرية، وقد وردت إشارات عن التبادلات التجارية بينهما في نصوص لاجاش العائدة إلى عصر السلالات الباكرة الثالث، وكذلك في نصوص شاروكين الأكادي، الذي تفاخر بوصول سفن من مناطق خليجية مثل (دلمون = البحرين، ومجان = عمان) إلى أكاد.

شهدت العلاقات التجارية مع الخليج العربي ازدهاراً مدة من الزمن، لكنها بدأت تتراجع بعد سقوط الدولة البابلية القديمة (عام ١٥٩٥ ق.م)، بسبب افتقاد بلاد الرافدين للحكم المركزي. كما تتوفَّر معلومات عن حدوث مبادلات تجارية بين الكاشيين ودلمون، لكنها لم تصل إلى درجة الازدهار التي عرفتها سابقاً، ثم حاول الآشوريون تنشيط الحركة التجارية مع الخليج من خلال تأمين سلامة الطرق التجارية، غير أن قرب بلادهم من الأناضول وغربي إيران وسورية جعلهم يهتمون بالمتاجرة مع هذه الأقاليم أكثر من اهتمامهم بالتجارة مع الخليج العربي، وفي عهد الدولة الكلدية تراجعت التجارة مع الخليج العربي. من البضائع التي كانت تستوردها بلاد الرافدين من الخليج العربي أو من مراكزه التجارية النحاس والحجر والأخشاب.

تاجرت بلاد الرافدين مع الهند وأفغانستان، حيث استوردت العاج والعقيق من الهند عبر الخليج العربي، واستوردت اللازورد من وادي بدخشان في أفغانستان.

أقامت بلاد الرافدين علاقات تجارية مع سورية ولبنان أيضاً، حيث استورد الرافديون من لبنان خشب الأرز[١]، وأطلقوا على جبال لبنان التي تنمو فيها أشجار الأرز جبال الأرز، وقد وردت إشارات عن أشجار الأرز في كتابات شاروكين الأكادي وجوديا، فمما جاء في كتابات جوديا أنه كان يستورد خشب الأرز[٢]، وكي يُنقَل إلى بلاد

(١) رو، جورج، المرجع السابق، ص٣٤.

(٢) الهاشمي، رضا جواد، دور نهر الفرات في الامتداد الحضاري لبلاد وادي الرافدين، بين النهرين، عدد ٤٤، ١٩٨٣، ص٢٩٧.

الرافدين كانوا يجلبونه بداية إلى ضفاف الفرات، ويجعلونه على شكل أكلاك[١]، ثم يلقونه في النهر، الذي ينقله إلى المدن من خلال حركة الماء، وفي الألف الأول ق.م كان الملوك الآشوريون يحصلون على الخشب من لبنان[٢]، وكانوا يستخدمونه في أعمالهم العمرانية. كما توجه الرافديون بأنظارهم إلى المنطقة الساحلية في سورية، وأقاموا علاقات مع أوجاريت، التي أدَّت دور الوسيط التجاري بين آسيا الصغرى مصدر النحاس والذهب والفضة، وبين المدن الرافدية.

كذلك أقام الرافديون علاقات تجارية مع الأناضول وصلت إلى أوج ازدهارها في مطلع الألف الثاني ق.م، وأنشؤوا مستوطنات تجارية لهم في تلك المناطق، فكانيش هي إحدى المدن الأناضولية، التي أنشأ فيها الآشوريون مستوطنة تجارية، وهي أهم مستوطنة تجارية آشورية هناك[٣]، وكان التجار الآشوريون ينقلون بضائعهم من بلاد الرافدين

---

(١) الكلك قارب مصنوع من أقوى أنواع القصب، أو أحسن أنواع الخشب، حيث يتم ربط هذه المواد بعضها إلى جانب بعض، ويتم تعويمه بربط جلود الماعز المنفوخة تحت سطحه، وتجعله قادراً على حمل وزن كبير، يسير في النهر باتجاه التيار، ويتم التحكم به بواسطة السارية. انظر: كونتينو، جورج، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة سليم التكريتي، وزارة الثقافة والأعلام، دار الشؤون الثقافية، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٦، ص:٨٥-٨٦.

(٢) ساكز، هاري، المرجع السابق، ص٢٥٣.

(٣) محمد علي، محمد عبد اللطيف، المراكز التجارية الآشورية بوسط آسيا في العصر الآشوري القديم، (من أواسط القرن العشرين إلى أواسط القرن الثامن عشر)، جامعة الاسكندرية، ١٩٨٤، ص٨٦.

إليها، ومن هذه البضائع الملابس والقصدير والمنسوجات، في حين كانوا يستوردون النحاس منها[١].

ووصلت الأنشطة التجارية الرافدية إلى بلاد عيلام، ساعد على قيامها توفر طرق المواصلات البرية بين المنطقتين، وقد مكَّن الوصول إلى عيلام الرافديين من الانتقال إلى الأقسام الجنوبية الشرقية من إيران، ووفَّر لهم امكانية الاتصال بمناطق الهند وأفغانستان وأواسط آسيا، وهو ما يفسِّر كثرة الذهب والفضة والأحجار الكريمة في بلاد الرافدين منذ الألف الثالث ق.م، إذ إن هذه البلاد هي مصدر تلك المواد.

خامساً-الحياة الدينية:

١-الآلهة:

تعود فكرة الألوهية إلى حقب موغلة في القدم في بلاد الرافدين، ويُرجَّح أنها ظهرت في عصور ما قبل التاريخ، يؤكِّد ذلك دمى المرأة العارية، التي انتشرت كثيراً في بلاد الرافدين بدءاً من العصر الحجري الحديث، واستمرت في العصر الحجري النحاسي، وكانت ترمز إلى الربة الأم مصدر الإنتاج والخصوبة في الطبيعة.

ثم تطوَّرت فكرة الألوهية في العصور التاريخية كثيراً، إذْ ظهر عدد كبير من الآلهة، وكان لكل إله وظيفة خاصة به، وكان يتزعّم هذه الآلهة إله أكبر يمكن وصفه بملك الآلهة، هذا الإله هو آن إله السماء، ورئيس مجمع الآلهة السومري، وكان معبده الرئيس في مدينة أوروك،

(١) محمد علي، محمد عبد اللطيف، المرجع السابق، ص١٠٦ – ١١٨.

ومعنى اسم آن بالسومرية: السماء والعلا والبهاء، ومن رموزه التاج المقرَّن، والثور المقدَّس الذي يرمز إلى الخصوبة، لكن تراجعت عبادته في العصور البابلية والآشورية، وحلَّت محلَّها عبادة مردوك في بابل، وآشور في بلاد آشور.

من الآلهة الأخرى المهمة في بلاد الرافدين، إنليل إله الهواء والعواصف، رمزه التاج المقرن[1]، ووالده آن إله السماء، الذي حلَّ محلَّه، وأصبح ملكاً للآلهة ورئيساً لمجمعها، كان مركز عبادته مدينة نيبور، وفيها معبده الرئيس إيكور (بيت الجبل)، وله أولاد كثر، منهم نينورتا، ونينجرسو، وإله القمر سين، ونرجال، ونمتار، ونوسكو، من وظائفه الرئيسة وهب الخصوبة للطبيعة، وقد تحدَّثت نصوص كثيرة عن ذلك، إذ ورد في أحدها ما يأتي: من دون إنليل، الجبل العظيم، لا المدائن شُيِّدت، ولا المقار أُسِّست، ولا الإصطبلات شُيِّدت، ولا حظائر الأغنام أُقيمت، ولا الأنهار مياهها العالية جلبت الفيض. كما ذكرت المصادر القديمة أن الطوفان الذي حلَّ ببلاد الرافدين، ودمَّر البيوت، وقتل البشر، كان بأمر منه، وارتبطت به بعض الأساطير مثل أسطورة المعول، التي وصفته بأنه خالق للكون، هو الذي فصل الأرض عن السماء، وخلق المعول ليستخدمه الناس في عملهم، وارتبطت به أسطورة إنليل ونينليل، التي تتحدَّث عن اغتصابه للإلهة الشابة نينليل، ومحاكمة الآلهة له، وطرده من مدينة نيبور.

---

(١) الشاكر، فاتن، رموز أهم الآلهة في العراق القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، ٢٠٠٢، ص٢٩.

يلي إنليل أهميةً إنكي، الذي يمثِّل مع آن وإنليل الثالوث الإلهي في العالم الرافدي، اسم إنكي سومري الأصل، ويعني: سيد الأرض، بينما يُطلَق عليه في الأكادية إيا، أي إله الحكمة، يظهر ذلك جلياً من خلال النصائح التي يقدِّمها للآلهة، وتعليمه طقوس التعاويذ للناس، وهو المياه العذبة المستقرة في أعماق الأرض أيضاً، كان يُعتَقَد أنه يهبها للبشر من خلال تفجير الينابيع العذبة، وكان مركز عبادته الرئيس مدينة إريدو[١]، من أهم رموزه الماء المتدفِّق من كتفه، أو من بين يديه، والسلحفاة، والسمكة الماعزة، والصولجان المنتهي برأس جدي أو كبش، والتاج المقرن، وتذكر الأساطير أنه هو الذي أخبر أبطال الطوفان بسر الطوفان كي يتجنَّبوا نتائجه الخطيرة.

حظي إله القمر بمكانة مرموقة في المجمع الإلهي الرافدي، ومثَّل مع شماش وعشتار الثالوث الإلهي الثاني في بلاد الرافدين، ظهرت عبادته في مطلع الألف الثالث ق.م، واستمرت حتى زمن متأخِّر من الألف الأول ق.م، واسمه نانا بالسومرية، وسين بالأكادية، وهو ابن إله الهواء إنليل من زوجته نينليل، تذكر الأسطورة أن أمه حملت به بطريقة غير شرعية، وله عدة أبناء، هم شماش إله الشمس، وعشتار ربة الحرب والخصب، ونوسكو، من أهم أماكن عبادته مدينة أور، وهو الإله الحامي لها، وفيها شيّد أورنامو وابنه شولجي زقورة أُطلِق عليها اسم زقورة نانا، وعُبِد في مدينة حران أيضاً، وورد ذكره في التعويذات والصلوات، ولُقِّب في المدائح الإلهية والأناشيد بمالك القدر، وله ألقاب

(١) بارندر، جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مجلة المعرفة، الكويت، ١٩٩٣، ص١٣.

أخرى، منها المنير أو الضوء اللامع للقمر، والعجل، والعجل الصغير للإله إنليل، والتاج البرّاق، وسفينة السماء، من رموزه التي ظهرت في المشاهد الفنية الهلال، والقرص الدائري، وهلال فوق عمود، وكذلك صوَّرته المشاهد الفنية على هيئة رجل ذي هيبة.

تُعدُّ إنانا السومرية، أو عشتار الأكادية من الآلهة التي امتازت بمكانتها الراقية في بلاد الرافدين، انتقلت عبادتها من بلاد الرافدين إلى مناطق كثيرة خارج بلاد الرافدين، مثل اليونان، وحملت في اليونان اسم أفروديت، لذا يمكن القول: إنها تحوَّلت من إلهة محلية إلى إلهة عالمية، كان مركز عبادتها الرئيس مدينة أوروك، وكان لها معبد في كل مدينة سومرية وأكادية، كوكبها الزهرة، ومن رموزها القصب، والنجمة الثمانية، وكان يظهر الأسد معها في المشاهد الفنية، فهو حيوانها المقدَّس، ويرمز إلى قوتها، فهي ربة الحرب التي تؤازر الملوك في حروبهم، وتنصرهم على أعدائهم، وقد صوَّرتها المشاهد وهي تضع على كتفها جعبة السهام، مما يُؤكِّد وظيفتها بوصفها ربَّة محاربة، إلى جانب أنها ربة الحب والخصب والجمال. أفصحت المصادر القديمة عن التناقض في وظائفها حسب المهام التي كانت تؤدِّيها، فمثلا صوَّرها أحد المشاهد الفنية ربةً للحرب تُساند شاروكين الأكادي في إحدى حروبه، وفي الوقت نفسه وصفها أحد النصوص بأنها ربة الخصوبة ذاكراً قدراتها الكبيرة في هذا المجال: ثدياك سيدتي حقل معطاء، حقل واسع يفيض بالزرع، بالماء الذي يتدفَّق للمولى من العلا. تختلف الروايات في نسبها، فقد ذكرت إحدى الروايات أنها ابنة آن إله السماء، وأخرى ذكرت أنها ابنة سين إله القمر وأخت أوتو إله الشمس، في حين ذكرت روايات أخرى

أنها ابنة إنليل، وأحياناً أخرى ابنة إنكي[١]، وهي أخت إريشكيجال سيدة العالم السفلي. ارتبطت بعشتار أساطير كثيرة، من أهمها نزولها إلى العالم السفلي، وهذا يرمز إلى اختفاء مظاهر الخصب من الطبيعة، لكنها تعود لاحقاً إلى الأرض، وبعودتها تعود مظاهر الخصب إليها، وعلى الرغم من اتصاف عشتار بصفات حسنة، مثل السخاء والعطاء، إلا أنها اتصفت بصفات سيئة مثل الحقد وحب الثأر، ففي ملحمة جلجامش ورد أنها أرسلت ثور السماء إلى أوروك لتخريبها بسبب رفض جلجامش إقامة علاقة غرامية معها.

من الآلهة الأخرى التي تمتاز بأهميتها في العالم الرافدي إله الشمس، الذي يُطلَق عليه في السومرية أوتو، وفي الأكادية شماش، وهو ابن إله القمر نانا/سين، وهو إله العدالة، وقاضي قضاة الآلهة[٢]، كان يمنح رموز السلطة (العصا والحلقة) للملوك، وحسب المصادر السومرية، كان شماش يظهر ويختفي كل يوم، فعند ظهوره في الصباح يقوم بجولة في السماء، وفي آخر النهار يختفي، ويركن إلى حضن البحر، ثم في صبيحة اليوم التالي يظهر من وراء الجبال مجدَّداً، ويقوم بالجولة نفسها[٣]. يتطابق التصور السومري لجولة شماش مع حركة الشمس

---

(١) ادزارد د.، بوب م.هـ، رولينغ ف.، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية)، في الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقية)، تعريب محمد وحيد خياطة، ط١، حلب، ١٩٨٧، ص٨٨.

(٢) عبد الرحمن، عبد المالك يونس، عبادة الإله شمش في حضارة وادي الرافدين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٧٥، ص٦١.

(٣) ادزارد د.، بوب م.هـ، رولينغ ف.، المرجع نفسه، ص ٧٦.

اليومية المتمثِّلة بالشروق والغروب. كان مركز عبادته الرئيس مدينة سيبار، وله معابد أخرى في مدن رافدية أخرى، مثل أور ونيبور وماري ولارسا وآشور وبابل، ويُطلَق على معبده في بابل اسم بيت قاضي البلاد، اشتُهِر شماش بتقديم العون للآخرين، فهو الذي قدَّم المساعدة لدموزي ضد العفاريت، التي كانت تلاحقه في العالم السفلي، وجعل النسر مساعداً لإتانا عند صعوده إلى السماء، ولشماش الكثير من الرموز التي وثَّقتها المشاهد الفنية، من أهمها السيف المسنَّن أو المنشار، والقرص ذو النجمة الرباعية الملتهبة، والقرص فوق سارية، وأشعة الشمس المنبعثة من أكتافه.

تُعدُّ الآلهة السابقة أكثر أهمية وتأثيراً من الآلهة الأخرى في بلاد الرافدين، لكن على الرغم من أهميتها لا يمكن تجاهل الآلهة الأخرى، فمثلاً كان مجمع الآلهة الرافدي يضمُّ آلهة الأمومة التي انحصرت مهمتها في إنجاب الآلهة وخلق البشر، ومنها نينخورساج، وننماخ، ونيتو، وهناك آلهة أخرى امتازت بمكانتها الراقية في منطقة جغرافية معينة، مثل مردوك سيد مجمع الآلهة البابلي، الذي انتشرت عبادته في بابل، وآشور سيد الآلهة الآشورية، الذي عُبد في بلاد آشور، ولدينا آلهة حصلت على مكانتها المميزة بفضل وظيفتها، مثل أدد إله الطقس الذي كان يرسل الأمطار إلى الأرض، فيعمُّ الرخاء على الناس.

٢-المعابد والطقوس الدينية:

احتوت معظم المدن الرافدية على المعابد التي تُعدُّ مركز الأنشطة الدينية، واختلفت من حيث حجومها ومخطَّطات بنائها، وكان أكثر ما يميِّزها قاعة قدس الأقداس أو الحرم، فهي أكثر أهمية من غيرها، إذْ

كان الرافديون يضعون في داخلها تمثال الإله المعبود، الذي كان ينتصب على قاعدة طينية تتموضع أمام أحد ضلعيها الصغيرين، واحتوت المعابد أيضاً على غرف للتخزين، وأخرى للكهنة، حيث كانوا يشرفون فيها على تأدية الطقوس، وكانت تضمّ مطابخ وحمامات، وتُعدُّ هذه المرافق شرطاً من شروط الإقامة الدائمة للكهنة. انتشرت في بلاد الرافدين الزقورات، والزقورة هي تطور لفن بناء المعابد، تتكوَّن عادة من مصاطب عدة مستطيلة الشكل، يتموضع بعضها فوق بعض، وتختلف في حجومها، المصطبة السفلى هي الأكبر حجماً، تعلوها مصطبة أصغر منها، وهكذا حتى آخر مصطبة، ويعلو المصطبة العليا معبد صغير مكوَّن من غرفة واحدة، وزُوِّدت الزقورة بأدراج، تقود إلى مصاطبها المختلفة، وينطبق هذا الوصف على زقورة نانا إله القمر، التي بناها أورنامو مؤسِّس سلالة أور الثالثة في أور، وفي بابل شُيِّدت زقورة تؤرَّخ بالعصر البابلي الحديث، لها شكل مختلف عن الزقورة السابقة، إذْ تأخذ شكل برج مكوَّن من سبعة طوابق، كانوا يصعدون إليها من خلال درج خارجي يلتفُّ حولها.

شهدت المعابد طقوساً دينية متنوعة، منها تقديم الأُعطيات للإله المعبود في داخلها، ومن الأدلة الأثرية التي تشير إلى هذا الطقس الطاولة أو المذبح اللذان يظهران عادة في الحرم، أو في قاعة أخرى، ومن وظيفتهما استقبال الأُعطيات، التي كان يقدِّمها المتعبِّدون للإله، وكانت للمذبح وظيفة أخرى ترتبط بطقس آخر، هو طقس الأُضحية المقدَّسة، التي كانت تُنحَر فوقه باسم الإله المعبود في المعبد، ومن تلك الطقوس التي أُجريت في المعابد طقس الصلاة، الذي يمكن التعرف إليه من خلال التماثيل التي اكتُشِفت في مناطق مختلفة من بلاد الرافدين،

ولاسيما تلك التي عُثِر عليها في منطقة ديالى، إذْ تُظهِر هذه التماثيل المتعبِّدين في وضعية الوقوف واضعين أيديهم المعقودة على صدورهم إظهاراً للورع والتقوى، ونرجِّح أن تكون الصورة التي جسَّدها التمثال هي هيئة المصلِّي الحقيقية. ويُعدُّ طقس السكب من الطقوس الدينية الرافدية أيضاً، إذ كانت تحتوي المعابد على تجهيزات معينة لتنفيذ هذا الطقس، مثل أحواض الماء والأوعية التي كانت تستقبل السائل المراق على الأرض.

سادساً-اللغة والكتابة:

وقد تحدثنا عنها بالتفصيل في الفصل الأول.

سابعاً-العلوم:

١-الطب:

ازدهرت مهنة الطب في بلاد الرافدين، وعرف الرافديون الكثير من التخصصات الطبية، مثل الجراحة، والأمراض النسائية، وأمراض العيون والرأس والأسنان والفم والأذن، والأمراض الباطنية[١]، والكساح، واليرقان، وأمراض الجهاز الهضمي، وأمراض الصدر، وأمراض القدم، والأمراض الجلدية، وأمراض العضلات، والجهاز التنفسي، وأمراض الجهاز التناسلي[٢]. وقد حدَّد الأطباء الرافديون أعراض المرض، وعزوا

---

(١) لابات، رينيه، الطب البابلي والآشوري، ترجمة وليد الجادر، سومر ٢٤، ١٩٦٨، ص١٩١-١٩٢.

(٢) سارتون، جورج، تاريخ العلم، ترجمة طه باقر وآخرون، الجزء الأول، دار المعارف، ١٩٩١، ص٢٠٥.

بعضها إلى عوامل نفسية، مثل فقدان الهمة وخور العزيمة، ومن المعتقدات السائدة لديهم أن المرض يمثِّل عقوبة إلهية للبشر، بسبب الآثام والذنوب التي ارتكبوها (السرقة والزنى وإهمال الطقوس الدينية)[١]، أو أن الشياطين والعفاريت هي التي تضع المرض في أجسادهم[٢]، ومن تخترق العفاريت جسده يصبح نجساً[٣]، وللسحر الأسود دور في جلب الأمراض والشرور إلى البشر[٤]. يُطلَق على الطبيب بالسومرية (أزو) التي تعني: الذي يعرف بالماء[٥]، يدلُّ على ذلك أن الطبيب كان يستخدم الماء لمعالجة المرضى، وترتبط هذه المعالجة ببعض المعتقدات الدينية، وفي ذلك إشارة واضحة إلى ارتباط الطب بالفكر الديني، ومن الدلائل الأخرى على ارتباطه به وصف طبيب لنفسه في ترتيلة دينية موجَّهة إلى الإله مردوك: أنا طبيب ....مجهَّز بحقيبة مليئة بالتعاويذ[٦]، وكان المجمع الإلهي الرافدي يضمُّ كثيراً من آلهة الطب، مثل نينورتا الذي كان يُسمَّى الطبيب القوي، وغولا، وأيا، الذي عُرف بأيا الأطباء، ونينازو رب الشفاء.

---

(١) رشيد، عبد الوهاب حميد، حضارة وادي الرافدين، ط١، دمشق، ٢٠٠٤، ص١٥٤.

(٢) يحيى، أسامة عدنان، السحر والطب في الحضارات القديمة، عمان، ٢٠١٥، ص٣١.

(٣) المرجع نفسه، ص٢١٦.

(٤) المرجع نفسه، ص١٠٦.

(٥) لابات، رينيه، المرجع السابق، ص١٩٣.

(٦) الأحمد، سامي سعيد، المرجع السابق ص٨٧.

٢ –الرياضيات:

إن حاجة الناس لهذا العلم هي التي ساعدت على ظهوره، وتعود البدايات الأولى له إلى العصر الحجري الحديث، ففي هذا العصر كان الإنسان بحاجة إلى نظام للعدّ، فاخترع نظاماً للعدّ يعتمد على كرات أو حصيات طينية، وكانت الحصيات تأخذ أشكالاً مختلفة، فمنها على شكل بقرة، أو وعاء، أو خروف، وكل شكل يدلّ على بضاعة معينة، ثم استغنى الناس في مرحلة لاحقة عن هذه الطريقة، واستخدموا طريقة جديدة، ففي عصر الطبقة الرابعة في أوروك (٣٣٠٠ ق.م) استُخدِمت ألواح طينية نُقِشت عليها عمليات حسابية لها علاقة ببعضها بعضاً[١].

وفي عصر السلالات الباكرة ابتكر السومريون النظام العشري، وفي مرحلة لاحقة اخترعوا النظام الستيني الذي يتخذ من العدد ٦٠ أساساً للعد والترقيم، إذْ تبيَّن لهم أنه الأفضل والأصلح، واختلط النظام الستيني بالعشري، يظهر ذلك جلياً من خلال المثال الآتي الذي يظهر فيه التناوب ما بين النظامين: ١ و١٠ و٦٠ و٦٠٠ و٣٦٠٠ و٣٦٠٠٠ ...إلخ[٢]. ظل النظام الستيني مستخدماً حتى أيامنا هذه في تقسيمات الوقت (الساعة = ٦٠ دقيقة، ١ دقيقة = ٦٠ ثانية)، ثم انتقل نظام العدّ السومري إلى الأكاديين، ومن بعدهم إلى البابليين.

---

(١) قابلو، جباغ، سمير، عماد، تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الرافدين – سورية – مصر)، جامعة دمشق، ٢٠٠٧ – ٢٠٠٨، ص١٣٩.

(٢) سارتون، جورج، المرجع السابق، ص١٦٥.

تطوَّر علم الرياضيات عند البابليين، فهم الذين أسَّسوا علم الرياضيات النظري، لم يعرف البابليون في بداية الأمر الصفر، ويُعتقَد أنه استُخدِم لأول مرة في القرن السادس ق.م، عُثِر على ألواح طينية كثيرة تُبرز إبداعاتهم الرياضية، فقد احتوى بعضها على جداول عددية، مثل جداول الضرب، وجداول التربيع والتكعيب، وهناك ألواح احتوت على حلول لمسائل رياضية من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، ومن الجدير بالذكر أن نظام العدّ المستخدَم في هذه الألواح هو نظام يجمع بين النظام العشري والنظام الستيني الذي أخذه البابليون عن السومريين.

أفاد البابليون من الرياضيات في حل مسائل كثيرة متعلِّقة بالإرث، والضريبة، والمبادلات التجارية، وشقّ القنوات، وتقسيم الأراضي، وكانوا يطبِّقون لحل هذه المسائل عدداً من العمليات المتسلسلة، هي المراحل المتبعة لحل معادلة من الدرجة الثانية[١].

٣- الفلك:

اهتم الرافديون بعلم الفلك منذ زمن مبكِّر، فلو عدنا إلى مجمع الآلهة الرافدي للاحظنا أن السومريين في عصر السلالات الباكرة عرفوا ما يُسمَّى بالآلهة الفلكية التي استمرت عبادتها في العصور اللاحقة، مثل إنانا /عشتار ربة الحب والخصب والحرب، التي رُمِز إليها بالنجمة الثُّمانية، ووُصِفت بأنها نجمة الصباح ونجمة العشاء (الزهرة)[٢]، وأوتو /شماش إله الشمس الذي كانوا يرمزون إليه بقرص الشمس، ونانا /سين

(١) قابلو، جباغ، سمير، عماد، المرجع السابق، ص١٧٢.

(٢) توفيق، حازم، العلوم والمعارف في حضارة وادي الرافدين ووادي النيل في العصور القديمة، آشور بانيبال للثقافة، ط١، ٢٠١٨، ص٦١.

إله القمر، الذي كان القمر أحد رموزه[١]. لقد أظهرت أساطير الخلق السومرية اهتمامهم بهذا الجانب، إذْ أشارت إلى خلق النجوم والكواكب على أنها مرحلة من مراحل خلق الكون، وجرى ذلك بعد فصل السماء عن الأرض[٢]. وقد ورد في أسطورة الخليقة البابلية بعض المصطلحات الفلكية، مثل أبراج لوماشي، التي كانت تضمُّ مجموعة من النجوم، هي نجمة الجبار، ونجمة الدجاجة، وبرج الأسد، ونجمة الكلب، ونجمة الأصغر، ونجمة قنطورس أو برج القوس، وورد في الأسطورة نفسها ذكر لكوكب نيبيرو، وهو كوكب المشتري[٣].

من أهم إنجازات الرافديين الفلكية التعرف إلى ظاهرتي الكسوف والخسوف[٤]، إذْ لاحظ البابليون تكرارهما كل تسع عشرة سنة مرة واحدة، وهناك اعتقاد بأن هذا العلم انتقل من بلاد الرافدين إلى بلاد اليونان عبر آسيا الصغرى التي كانت على اتصال مباشر مع البابليين والآشوريين[٥]، ويبدو أن الرافديين اكتشفوا هاتين الظاهرتين في زمن مبكِّر، يؤكِّد ذلك ورود إشارات عن ظاهرة الكسوف في مرثية أور، التي رثت أور بعد سقوط حكم سلالة أور الثالثة، حيث جاء فيها: **اسودت**

---

(١) الشاكر، فاضل، رموز أهم الآلهة في العراق القديم، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، ٢٠٠٢، ص٥١، ٥٨، ٧٢، ١٠٨.

(٢) علي، فاضل عبد الواحد، من سومر إلى التوراة، ط٢، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٦، ص١٩٤-١٩٥.

(٣) النعيمي، المرجع السابق، ص٨.

(٤) محمد، علي، محمد عبد اللطيف، المرجع السابق، ص٣٢.

(٥) عبد الهادي، رفعت، المرجع السابق، ص١٢٥.

السماء بظلمة حالكة، وأصدت الجبال، واختفى القمر وسط السماء، وعاش الناس في رعب[١].

بنى الرافديون الزقورات لأغراض دينية، وأفادوا منها في مراقبة السماء، والزقورات أبراج عالية، كان بإمكان الكاهن عندما يصعد إليها مراقبة السماء بسهولة، مما ساعد الرافديين على جمع أرصاد فلكية، من الأمثلة عليها زقورة بورسبا، التي كانت تُسمَّى مراحل الأفلاك السبعة، وكانت كل طبقة من طبقاتها مخصَّصة لكوكب من الكواكب السبعة المعروفة عند البابليين، وملوَّنة بلون يرمز إلى هذا الكوكب[٢].

ذكرنا سابقاً أن هناك علاقة بين علم الفلك والتنجيم، فعندما كان أحدهم يرصد الكواكب بهدف التنجيم للتعرف إلى الأحداث المستقبلية، كان يقدِّم معلومات فلكية مهمة، من الأمثلة على ذلك الأرصاد التي أجراها البابليون في عهد الملك البابلي عمي – صدوقا، والتي كان من نتائجها التعرف إلى أول ظهور للزهرة، وآخر ظهور لها، أي عند غروب الشمس وشروقها، كما تعرفوا إلى مدة اختفائها، وأرفقوا بذلك نوعاً من الفأل الملائم لكل حالة، فإذا اختفت الزهرة، مثلاً، في الشرق في اليوم الواحد والعشرين من شهر آب، أو ظلت مختفية في السماء شهرين و١١ يوماً، ثم شوهدت في الغرب في الثاني من شهر أرخاسامنا (أجزاء

---

(١) برغش، سعدون عبد الهادي، الطائي، غفران جعفر عزيز، الكواكب والنجوم ورمزيتها في الأدب العراقي القديم، مجلة كلية التربية–جامعة واسط، العدد الحادي والثلاثون، ٢٠١٨، ص٢٧٩.

(٢) باقر، طه، موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الإسلامية، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٠ ص٨٦.

من شهر تشرين الأول وتشرين الثاني)، فمعنى ذلك أن أمطاراً سوف تهطل في البلاد، وأن خراباً سوف يحلُّ بها في السنة الرابعة[١]. نستنتج من هذا المثال أن البابليين تنبَّؤوا بقضايا مستقبلية لها علاقة بالتنجيم وقراءة الطالع، لكنهم في الوقت نفسه زوَّدونا بمعلومات فلكية عن كوكب الزهرة اختفاءً وظهوراً.

٤-الجغرافيا:

اهتم الرافديون بعلم الجغرافيا بدليل تطرق السومريين في عصر السلالات الباكرة (٢٩٠٠-٢٣٥٠ ق.م) إلى شكل الأرض، وعلى الرغم من أنهم لم يصلوا إلى نتائج صحيحة مئة بالمئة، إلا أنهم ألمحوا إلى شكلها الحقيقي، إذْ تصوَّروا أنها نصف كرة مقلوبة، أو قبة طافية في المحيط[٢]، ويُعدُّ هذا الاكتشاف خطوة في الطريق الصحيح، لأنهم أشاروا إلى كروية الأرض ولو جزئياً، (الأرض نصف كرة وليست كرة كاملة).

ومن المعارف الجغرافية التي اكتسبها الرافديون ما نُسمِّيه اليوم بالجغرافيا التاريخية، يبدو ذلك جلياً من خلال الوثائق الجغرافية التي احتوت على أسماء مناطق كثيرة، من بينها قوائم الأقاليم التي ذكرت المناطق التي سيطر عليها شاروكين الأكادي، ومنها الوثيقة التي جاء فيها: "شاروكين انحنى مصلياً أمام داجان في توتول، داجان أعطاه

(١) سارتون، جورج، المرجع السابق، ص١٧٧.

(٢) الجميلي، المعارف الجغرافية عند العراقيين القدماء، دار المشرق الثقافية، ٢٠١١، ص١.

البلاد العليا: ماري، يرموتي، إبلا حتى غابة الأرز وجبال الفضة"[١]. وهناك أمثلة تعود إلى ملوك آخرين، مثل أسر حدون الآشوري (٦٨٠ – ٦٦٩ ق.م)، الذي ذكر في إحدى حولياته بعض المناطق التي سيطر عليها، من بينها أبق (فيق حالياً جنوبي غربي سورية شرق بحيرة طبرية)، ورَبيخُ (رفح حالياً في فلسطين)[٢].

ثامناً–القوانين:

كانت دويلات المدن في بلاد الرافدين خلال عصر السلالات الباكرة تخضع لأعراف وتقاليد وتعاليم ملكية خاصة بها، وفي وقت لاحق ظهرت ممالك قوية شملت مناطق واسعة، مثل المملكة الأكادية، ومملكة أور الثالثة، والمملكة البابلية القديمة، وتطوَّر نظام الحكم فيها، فلم تعد الأعراف القديمة تتناسب معها، وغدت الحاجة ملحّة لوضع تشريعات تُنظِّم العلاقات بين الناس، وقد عُمِّمت على الأقاليم كلها معبِّرةً عن مركزية الدولة، اتبع حمورابي هذا الأسلوب في التشريع، فبعد أن وضع قانونه الشهير وزَّعه على المدن الرئيسة، بهدف توحيد الأنظمة والقوانين، لتأكيد خضوع الجميع لقانون واحد[٣].

عرفت بلاد الرافدين أكثر من قانون عبر تاريخها الطويل، وشهدت قبل ظهور أول قانون فيها إصلاحات اجتماعية نُسِبت إلى أوروانمجينا

---

(1) Margueron J.C., *Mari - Métropole de l'Euphrate*. Editions Picard et ERC, Paris. 2004, p: 310.

(٢) الجميلي، المرجع السابق، ص٢٧.

(٣) الهاشمي، رضا جواد، القانون والأحوال الشخصية، حضارة العراق، ج٢، بغداد، ١٩٨٥، ص٦٥.

أحد ملوك لاجاش، وتعود إلى القرن الرابع والعشرين ق.م، حيث كانت تسعى إلى الحد من تسلط كبار الموظَّفين على الفقراء، وتخليصهم من الضرائب الجائرة التي فُرِضت عليهم، وتُعدُّ هذه التجربة الإصلاحية إحدى الخطوات التمهيدية لظهور فكرة التشريع والقانون المدوَّن في بلاد الرافدين، الذي يسعى إلى تنظيم حياة الناس، وإقامة العدل بينهم وإنصافهم.

١-قانون أورنامو:

يُعدُّ قانون أورنامو أقدم قانون عرفته بلاد الرافدين، ويرى البعض أنه أقدم قانون في العالم(١)، وضعه أورنامو مؤسِّس سلالة أور الثالثة، لكن لم يُكتشَف منه إلا بعض الكسرات الطينية في بعض المدن الرافدية، وتعود هذه الكسرات إلى العصر البابلي القديم، تكوَّن القانون من مقدِّمة، و٣٢ مادة قانونية، ولا تحتوي الكسرات المكتشَفة على خاتمة للقانون، مما يعني أن القانون المنقوش على هذه الكسرات ليس كاملاً، لأن القوانين الرافدية التي ظهرت لاحقاً كانت تُختم بخاتمة عادة، ومن المحتمل أن المواد القانونية المنقوشة على الكسرات غير كاملة أيضاً.

٢-قانون ليبيت عشتار:

عُثِر في مدينة نفر على أربعة ألواح طينية غير كاملة، منقوش عليها قانون ليبيت عشتار، ويبدو أنه نُقِش عليها لأغراض تدريسية، فحسب خاتمة القانون تبيَّن أنه دُوِّن بهيئته الأساسية على مسلة حجرية يُعتقَد أنها كانت موضوعة في معبد المدينة، إذْ يقول ليبيت عشتار: ونشرت

---

(١) سليمان، عامر، القانون في العراق القديم، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٩٢، ص١٩١.

الرفاه في بلاد سومر وأكاد، وأقمت هذه المسلة[١]، وربما المقصود بذلك المسلة التي نُقِش عليها القانون.

شمل القانون مقدِّمة وخاتمة ومواد قانونية أُدرجت بينهما، ومما جاء في المقدِّمة أن الآلهة اختارت ليبيت عشتار لنشر العدل في البلاد، وجلب الرفاه للناس، فامتثل لرغبة الآلهة، ونشر العدل بين الناس، وجعل الأب يساعد أولاده، وجعل الأولاد يقفون إلى جانب أبيهم، أما الخاتمة فقد وردت فيها إنجازات ليبيت عشتار في نشر العدل في البلاد، وتحقيق الرفاهية للناس، وخُصِّص الجزء الأخير منها للدعاء بالخير لمن يحافظ على المسلة وقوانينها، واللعنات على من يخرِّبها.

٣-قانون إشنونا:

دُوِّن هذا القانون في عهد دادوشا(١٨٠٨ – ١٧٨٠ ق.م) أحد ملوك إشنونا، كان مكتوباً على لوحين طينيين اكتُشِفا في تل حرمل، وعلى غرار قانون ليبيت عشتار يُعتقَد أن النسخ الحالية من القانون دُوِّنت لأغراض تعليمية، بدليل وجود أخطاء لغوية كثيرة فيها، ومن المحتمل أنها كانت مدوَّنة على مسلة[٢]، شمل القانون مقدِّمة، و٦١ مادة قانونية، كُتِبت مقدِّمة القانون باللغة السومرية، واحتوت على تاريخ تعيين الملك الذي وضع القانون، وجرى ذلك بفضل تيشباك الإله الرئيس في مملكة إشنونا، الذي أدخل هذا الملك بيت الملكية.

---

(١) سليمان، عامر، المرجع السابق، ص١٩٨ – ١٩٩.

(٢) الهاشمي، رضا جواد، القانون والأحوال الشخصية، ص٧٥.

٤ –قانون حمورابي:

لا يُعدُّ قانون حمورابي الأقدم في بلاد الرافدين، لكنه الأشمل والأكمل، وصلنا بصيغته الأصلية، ودُوِّن باللغة الأكادية على مسلة حجرية مصنوعة من حجر الديوريت، عُرِفت بمسلة الشريعة، بلغ ارتفاعها ٢٢٥ سم، ومحيطها من الأعلى ١٦ سم، ومن الأسفل ١٩٠ سم، وتكوَّنت من قسمين: علوي وسفلي، يشغل القسم العلوي نحت نافر يصوِّر حمورابي واقفاً أمام شماش إله العدالة[١]، حيث كان شماش جالساً على كرسي، وأما القسم السفلي فقد نُقِشت عليه المواد القانونية التي بلغ عددها ٢٨٢ مادة قانونية[٢]، إضافة إلى مقدِّمة القانون وخاتمته، ويُعتقَد أن حمورابي وضع قانونه في السنة الأربعين من حكمه.

بدأ حمورابي قانونه بالمقدِّمة، التي جاء فيها أن الآلهة فوَّضت الأمر إلى الإله البابلي الأعظم مردوك طالبةً منه نشر العدل في البلاد كي يقضي على الشر، وحتى لا يستعبد القوي الضعيف، واستعرض حمورابي في المقدِّمة ألقابه وأعماله العسكرية والعمرانية، ولاسيما بناء المعابد، وذكر تحريره لسكان المدن، وجلب الخير لهم، كما ذكر أنه محبوب عشتار، وأن الإله مردوك هو الذي أمره بنشر العدل بين الناس، ووصف نفسه بالملك الورع والقوي.

أما خاتمة القانون فقد اختلفت عن مقدِّمته، فهي لم تُشِر إلى أعمال حمورابي، وإنما قصرت الحديث على قوانينه متناولةً شرعيتها، وأهدافها،

---

(١) الهاشمي، رضا جواد، القانون والأحوال الشخصية، ص٧٧.

(٢) الجبوري، رائد، المرجع السابق، ص١٣٤.

وإنـزال اللعنـات علـى مـن يحـاول تخريبهـا، أو ينسـبها إلـى نفسـه، بـدأ حمورابي الخاتمة بإشارته إلى قوانينه العادلة، وقدراته الكبيرة التي منحته الآلهة إياها، وأشاد بقانونه الذي جاء لينصف الضعيف واليتيم والأرملة والمظلومين، وذكر أنه نقشه على مسلته، وذكر فضل الإله شماش عليه بمنحـه القـدرة علـى إدارة الـبلاد، وأنـه أفـرح قلـب مـردوك بجلبـه العدالـة والرفاه للبلاد، وفي النهاية توجَّه بدعاء إلى الآلهة من أجل الملوك الذين يطبِّقون قانونه من بعده لنشر العدل، وطلب منها إنزال لعناتها على من يحاول أن يمحو اسمه عن المسلة ليضع اسمه بدلاً من اسمه.

الفصل الرابع

الحضارة المصرية



- خريطة مصر

أولاً- مصر جغرافياً:

تقع مصر في الجهة الشمالية الشرقية من القارة الإفريقية، وتُعدُّ جزءاً من المنطقة المسمَّاة بالهلال الخصيب، التي تمتدُّ من مصر إلى منطقتي دجلة والفرات عبر فلسطين وسورية، يحدُّها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب بلاد النوبة، ومن الغرب الصحراء، ومن الشرق البحر الأحمر. يخترق نهر النيل مصر من جنوبها إلى شمالها، ونظراً لدوره في ريّ الأراضي الزراعية، ومدّها بأسباب الحياة،

قال المؤرِّخ اليوناني هيرودوت: "مصر هبة النيل"[١]، فنستنتج من هذا القول أن الحضارة المصرية، التي ظهرت واستمرت مدة زمنية طويلة، ما كان لها أن تنشأ لولا الظروف الطبيعية المتمثِّلة بوجود النيل في هذه المنطقة، وثمة فريق آخر من الباحثين يرى أن الطبيعة لم تكن إلا مسرحاً أفاد منه المصريون القدماء في إنشاء حضارتهم[٢]. نفهم من هذا الرأي أن الفضل يعود للإنسان المصري القديم في إنشاء الحضارة المصرية القديمة، ومن باب الإنصاف نقول: إن التفاعل بين الإنسان والطبيعة هو الذي صنع الحضارة المصرية القديمة، فلولا المقوِّمات الطبيعية، ولولا الإنسان النشيط المبدع، لما ظهرت الحضارة المصرية.

من الناحية الجغرافية تنقسم مصر إلى منطقتين[٣]: مصر العليا في الجنوب، ومصر السفلى في الشمال، تقع مصر السفلى (الوجه البحري) عند شاطئ البحر المتوسط، وتشمل دلتا النيل، وهي منطقة ذات سهول خصبة، يتفرَّع فيها النيل إلى فروع عدة، فزادت مساحة الأرض المزروعة، وأفادت هذه المنطقة من موقعها على المتوسط في الاتصال مع الجزر اليونانية والبلاد الآسيوية، ومن أهم مدنها منف وتانيس وسايس.

---

(١) السيد محمد، فاروق، أضواء على الزراعة وتاريخها في مصر في العصر الفرعوني، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد ٧٠، العدد ١٠٢، ٢٠٢٠، ص٣.

(٢) حزين، سليمان، البيئة والإنسان والحضارة في وادي النيل الأدنى، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الأول، مكتبة النهضة المصرية، ص٥.

(٣) عبد الحليم، نبيلة محمد، مصر القديمة تاريخها وحضارتها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٤، ص٢٢.

أما مصر العليا فهي منطقة الصعيد، وهي وادٍ طويل وضيق، يتراوح عرضه ما بين ٧ و٣٥ كم، تحيط به الصحراء الشرقية (السلسلة العربية) من الشرق، والسلسلة الليبية من الغرب، ويتصل بواسطة بعض الممرات بالواحات في الجهة الغربية، وسواحل البحر الأحمر في الجهة الشرقية، مما ساعده على إقامة علاقات مع البلاد الإفريقية[١].

ثانياً- تاريخ مصر[٢]:

ظهرت في مصر حضارة تُعدُّ من أقدم الحضارات البشرية في العالم، وهي حضارة أصيلة قدَّمت إنجازات كثيرة، يعود قسم من إنجازاتها إلى العصر الحجري الحديث (الألف السابع ق.م)، وقد ظهرت في عصر ما قبل الأسرات (٣٥٠٠ – ٣٢٠٠ ق.م) مستوطنة هيراكونبوليس على الضفة الغربية للنيل بين الأقصر وأسوان، تلى هذا العصر عصر الأسرات المبكِّر المعروف بالعصر العتيق أو العصر الثيني (٣١٨٥-٢٦٥٠ق.م)، ويضمُّ مرحلة حكم الأسرتين الأولى والثانية[٣]، وخلاله جرى توحيد مصر بجزأيها الشمالي والجنوبي في مملكة واحدة على يدي نعرمر أحد ملوك الجنوب، وقد ظهر الأخير في أحد التمثيلات الفنية واضعاً على رأسه تاجين، التاج الأبيض رمز مصر العليا، والتاج الأحمر رمز مصر السفلى.

---

(١) أمهز، محمود، في تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية،٢٠١٠، ص١٥١.

(٢) مختار، محمد جمال الدين، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الأول، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، ص٩٢ – ١٠٨.

(٣) عبد الحليم، نبيلة محمد، المرجع السابق، ص٦٥.

وبانتهاء عصر الأسرات المبكِّر بدأ عصر الدولة القديمة (٢٦٥٠ – ٢١٤٣ ق.)، الذي شمل حكم ثلاث أسر (من ٣ إلى ٦)، وأصبحت عاصمة مصر خلال هذه المرحلة منف، وكانت لها حكومة وطيدة، وأقامت علاقات مع الحضارات المجاورة.

امتازت الدولة القديمة بقوتها خلال عهد الأسرتين الثالثة والرابعة وجزء من عهد الأسرة الخامسة، وكانت مصر مُلْكاً للفرعون، يحكمها حكماً مطلقاً من قصره، يساعده في ذلك الوزراء وحكَّام الأقاليم وعدد من الموظَّفين، وكان هؤلاء يخضعون لسلطة الملك خضوعاً تاماً، مما حافظ على وحدة البلاد، وحماها من الاضطرابات والفتن، غير أن الظروف بدأت تتغيَّر لاحقاً، إذْ بدأت الخلافات السياسية والدينية تظهر، وأخذت تُضعِف سلطة الملوك، ولاسيما ملوك الأسرة السادسة، فخلال حكم هذه الأسرة انفصل حكام الأقاليم عن الحكومة المركزية[١]، وانهارت السلطة المركزية، وعمَّت الفوضى البلاد، فكانت النتيجة الحتمية سقوط الدولة القديمة.

بعد سقوط الدولة القديمة دخلت مصر بمرحلة جديدة تُسمَّى المرحلة الانتقالية، وحكم خلالها عدد من الأسر (من ٧ إلى بداية ١١) في المدة الممتدة من ٢١٤٣ إلى ٢٠٤٠ ق.م، عاشت مصر خلال هذه المرحلة حالة من التمزق، والانحلال السياسي، والتفكك الاجتماعي، وساد الفقر والبؤس، وانعدم الأمن، وأغار بدو الصحراء على منطقة الدلتا.

---

(١) عبد الحليم، نبيلة محمد، المرجع السابق، ص١٩.

بعد انقضاء المرحلة الانتقالية أُسِّست في مصر الدولة الوسطى (٢٠٤٠ – ١٧٨٦ ق.م)، وحكمت مصر في عصر هذه الدولة الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة[١]، يَعدُّ المؤرِّخون منتوحتب الثاني، أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة، المؤسِّس الحقيقي للمملكة الوسطى، وأثناء عهد الأسرة الحادية عشرة تم التخلص من الأوضاع المأساوية التي كانت تعاني منها البلاد في المرحلة الانتقالية، إذْ أُنهيت الحرب الأهلية، ووُحِّدت البلاد مجدداً، واستتب الأمن، وانتهت الفوضى، واستعادت مصر وحدتها السياسية[٢]، مما أدَّى إلى انتعاش مصر اقتصادياً، وازدهار العمارة والفن. في عام ٢٠٠٠ بدأ عهد الأسرة الثانية عشرة بوصول الملك أمنمحات الأول إلى الحكم، الذي يعود إليه وإلى خلفائه الفضل في نهوض البلاد مجدداً، وإخضاع أمراء الأقاليم إلى سلطة الدولة، وتأسيس جيش قوي.

بانتهاء عصر المملكة الوسطى عام ١٧٨٦ ق.م بدأ عصر جديد في مصر يُسمَّى العصر الانتقالي الثاني (١٧٨٦ – ١٥٥٠ ق.م)، تناوبت على الحكم خلاله خمس أسر (من ١٣ حتى ١٧)، اتصف هذا العصر بالفوضى والمؤامرات، واندلعت خلاله حرب أهلية، من أسبابها تطلع كبار الموظَّفين والقادة العسكريين إلى كرسي الحكم، فكلما وصل أحدهم إلى العرش قتله آخر، كما أن صراعاً كبيراً نشب بين حكَّام الأقاليم من جهة، والقصر من جهة أخرى، فأدَّت هذه الصراعات إلى إضعاف البلاد، مما جعل الهكسوس يهاجمون مصر، ويدخلونها محتلين، لكن ما

---

(١) أديب، سمير، تاريخ وحضارة مصر القديمة، ١٩٩٧، ص٢٥.

(٢) عبد الحليم، نبيلة محمد، المرجع السابق، ص١٩.

لبث أن ثار عليهم المصريون لاحقاً، وأخرجوهم من مصر، وبخروجهم انتهى عهد الاحتلال الأجنبي[١].

بعد خروج الهكسوس من مصر بدأ عصر جديد في مصر يُعرَف بعصر الدولة الحديثة (١٥٥٠ – ١٠٨٠ ق.م)، ويعود الفضل في طردهم إلى الملك أحمس مؤسِّس الأسرة الثامنة عشرة، حكمت مصر خلال هذا العصر الأسرات من١٨ إلى ٢٠، وعُدَّ هذا العصر عصراً ذهبياً ومزدهراً.

مهَّد سقوط الدولة الحديثة إلى دخول مصر في مرحلة من الفوضى، حكمت مصر خلالها الأسرات من ٢١ حتى ٣٠ (١٠٨٠ – ٣٣٢ ق.)، من سمات هذه المرحلة التدخل الأجنبي في مصر بسبب حالة الضعف التي شهدتها، وتمكَّن الملك الآشوري آشور بانيبال من احتلال مصر وتحويلها إلى ولاية آشورية، ما لبث أن استغل بسماتيك أمير سايس[٢] انشغال الآشوريين بصراعهم مع البابليين، فطرد الحامية الآشورية من مصر في عام ٦٣٣ ق.م، وفي عام ٥٢٥ ق.م خضعت مصر للحكم الفارسي على يدي قمبيز الفارسي الذي أخضعها دون عناء، ثم تحرَّر المصريون من الفرس في عام ٤٠٤ ق.م، غير أن الفرس عادوا واحتلوها مرة أخرى في عام ٣٤١ ق.م، وفي ٣٣٢ ق.م احتلها الإسكندر المقدوني.

---

(١) أديب، سمير، المرجع السابق، ص١٣٩ – ١٤٩.

(٢) مدينة تقع في مركز بسيون بمحافظة الغربية عند فرع رشيد، هي قريبة من ساحل البحر المتوسط.

ثالثا-الإدارة ونظام الحكم[1]:

١-الملك:

كان نظام الحكم وراثياً في مصر القديمة، وكان الملك مؤلَّهاً وسلطته مطلقة، وهو رأس الدولة، ويعود تقليد التأليه بجذوره إلى عصر الدولة القديمة، ومن العوامل التي أدَّت إلى ظهوره الصعوبات التي واجهت المصريين في توحيد مملكتي مصر العليا والسفلى في مملكة واحدة في عصر الأسرات المبكِّر، بعد التوحيد ساد اعتقاد أن مملكة الصعيد لم يكن يحكمها ملك، وكذلك مملكة الدلتا لم يكن يحكمها ملك أيضاً، بل يحكمهما إله، وجعلت هذه الأفكار المصريين يعتقدون أن الملك ليس من البشر، ولا ينتمي إلى أية منطقة في مصر، وإنما هو إله، وهذا الإله هو حورس إله السماء، وألغت هذه السياسة حجة الوجه البحري بأن يحكمه شخص من الوجه القبلي، وبذلك انتفى عنصر التعصب لأي إقليم، وأدَّت فكرة تأليه الملك إلى توحيد المملكتين في مملكة واحدة، ووُصِف الملك بالإله الطيب، وبالإله الأكبر.

وبما أن الملك كان إلهاً، فإنه يحقُّ له التصرف كيفما شاء، فكان يسيطر على شؤون الحكم في البلاد كلها، ويقتضي من جميع الموظَّفين تنفيذ أوامره، فبقاؤهم في وظائفهم مرهون برضاه، غير أن هذه الأوامر كانت خاضعة لرضا الآلهة، وقد أفصح الفكر المصري القديم عن ذلك

---

(١) أبو بكر، عبد المنعم، النظم الاجتماعية، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الأول، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، ص١٠٩ – ١٣١.

بكلمة الماعت، التي تشير إلى صفات إدارة الحكم الصالحة المتمثِّلة بالحق والعدل والمساواة، أي إن أوامر الملك يجب أن تكون عادلة.

على الرغم من صلاحيات الملك الواسعة، إلا أنه لم يستطع القيام بها إلا إذا كان قوياً، ففي المرحلة الأولى من عصر الدولة القديمة كانت الدولة قوية (الأسرتان الثالثة والرابعة، ومرحلة من عهد الأسرة الخامسة)، وكان الملك يفرض هيبته على الموظِّفين كافة، ويحكم البلاد حكماً مركزياً، وبدأت الأمور تتغيَّر نحو الأسوأ في المرحلة الثانية من عهد الأسرة الخامسة، وفي عهد الأسرة السادسة، حيث صار الملوك يحاولون استمالة الموظَّفين الكبار والكهنة بإغداق الهدايا والأُعطيات عليهم، وصارت بعض المناصب تنتقل بالوراثة، مثل منصب الوزير، لكن حالة ضعف الملوك لم تستمر دائماً، فقد أعقبتها تغيرات لصالح الملك، ليستعيد هيبته من جديد، ففي عهد الأسرة الثامنة عشرة تبنت الدولة سياسة دعمت فيها سلطة الملك، تمثَّلت بتركيز الثروة والسلطة والقوة بيده، وأصبحت الدولة تُدار بمركزية شديدة، وصار الموظَّفون جميعاً يخضعون له، من الأمثلة على هؤلاء الملوك تحوتمس الثالث سادس ملوك الأسرة الثامنة عشرة، الذي كان يُعِدُّ كل سنة حملة عسكرية ضد أعداء بلاده، فلولا قوته وسيطرته على شؤون الدولة، لما استطاع القيام بحملاته.

٢-الوزير:

كانت سلطة الملك أعلى سلطة في الدولة، تليها سلطة الوزير الذي كان ممثِّلاً للملك، وكان يتولَّى هذا المنصب في بداية الأمر ابن الملك، ثم أدَّت بعض الاضطرابات التي حدثت في مصر إلى إسناد هذا

المنصب إلى أشخاص لا يرتبطون بصلة قربى مع الملك. كان الوزير يمارس سلطته في عصري الدولة القديمة والوسطى من العاصمة ليكون قريباً من الملك، وكان يشرف على النظام الإداري في البلاد، ويُسيِّر العمل الحكومي فيها، ويحلُّ المشكلات التي تُعرَض عليه، وكان الوزير كبير القضاة ينظر في القضايا ذات الأهمية الكبيرة، ومما يؤكِّد أهمية الدور الذي كان الوزير يؤدِّيه في الجانب القضائي المشاهد التي تحملها مقبرة رخ مي رع وزير تحوتمس الثالث، والتي تجسِّد جزءاً من قاعة الوزير، في خارجها أشخاص يصطفُّون وينتظرون دورهم للدخول إليه ليعرضوا عليه الشكاوى مكتوبة، وكان الوزير يصدر أحكامه فيما يتعلَّق بالشكاوى استناداً إلى القوانين التي تختصُّ بها.

كما كان الوزير يشرف على أملاك المعابد، وعلى خزينة الدولة (بيت المال)، وهو أشبه بوزير المالية الآن، من صلاحياته الإشراف على الضرائب المفروضة على الوظائف، وعلى الأرض الزراعية أيضاً، وكان يحدِّد مقدار الضريبة المفروضة على الأرض الزراعية حسب مساحة الأراضي التي تصلها مياه نهر النيل، وفضلاً عن جباية الضرائب، كان يحدِّد أوجه الإنفاق التي تتطلَّبها الحكومة، وكان يشرف على مخازن الغلال، وأشغال الملك جميعها، والسجلات الملكية التي تُحفَظ فيها الوثائق المهمة، مثل المراسيم والوصايا والعقود.

وكانت لديه صلاحيات أخرى تتمثَّل في الإشراف على رجال الأمن والحراس، والحاميات العسكرية المنتشرة في البلاد التابعة لمصر، وكانت الحاميات تتلقَّى الأوامر منه، تلك الأوامر التي تصدر عن الملك، فهو

بمنزلة حلقة وصل بين الطرفين، وكان على اتصال دائم مع القلاع والحصون والبحرية من أجل التعرف إلى تحركات العدو.

٣-حكَّام الأقاليم:

انقسمت مصر إلى ٤٢ إقليماً، وكان على رأس كل إقليم حاكم، والملك هو الذين يُعيِّن حكَّام الأقاليم كي يكونوا مسؤولين أمامه، وكان ضرورياً تعيين حكَّام للأقاليم لإدارة شؤون مدنها، ولاسيما أنها كانت بعيدة عن العاصمة، وتحتاج إلى شخص مقيم فيها دائماً، يُعيِّنه الملك لإدارتها. ولم تكن هذه الوظيفة حكراً على الطبقة العليا، بل كان ممكناً لموظَّف بسيط أن يتدرَّج بالوظائف حتى يصل إليها، تأثَّرت هذه الوظيفة بقوة الملك وضعفه، فمثلاً في النصف الأول من عهد الدولة القديمة، ونظراً لقوة الملك، كان بمقدوره نقل حاكم الإقليم من منطقة إلى أخرى، ومن مظاهر ارتباط الحكَّام بالملك، والخضوع له بناء قبورهم إلى جانب قبره، لكن تغيَّر الوضع في عهد الملوك الضعفاء، الذين لم يعد بمقدورهم نقل الحكَّام من إقليم إلى آخر، وفضلاً عن ذلك صار أبناء الحكَّام يرثون عن آبائهم هذا المنصب، وقوي ارتباطهم بولاياتهم، وضعفت علاقتهم بالملوك، وزادت ثرواتهم، وصاروا يستقلون بمقاطعاتهم، وأخذوا يبنون لأنفسهم مقابر خاصة في أقاليمهم.

أما بالنسبة لمهام حكَّام الأقاليم، فقد كانوا يرأسون الأنشطة الحكومية الإدارية في أقاليمهم، ويشرفون على جمع الضرائب، وتحسين شؤون الزراعة في أقاليمهم، مثل شق الترع، وإنشاء الجسور، وتحسين الري، وكانوا يرأسون فروع الإدارات الحكومية، ويشرفون على الجانب القضائي متزعمين المحاكم الموجودة في الأقاليم وما يتصل بها من إدارات

قضائية، من صلاحياتهم الإشراف على الشؤون الدينية، وتجنيد الأفراد وإرسالهم في حملات لحماية البلاد، وكانوا يتلقَّون الأوامر من الملك، ويقع على عاتقهم تنفيذها بمساعدة عدد كبير من الموظَّفين يتبعون لهم.

رابعاً–الحياة الاقتصادية:

١–الزراعة وتربية الحيوانات:

تُعدُّ الزراعة من أهم الأنشطة الاقتصادية في مصر، وكان للنيل الدور الأكبر في تنشيطها، ومما أعطاه هذه الميزة فيضانه ووقت فيضانه، إذ كان يفيض في أواخر الصيف وأوائل الخريف، وتبدأ مياه الفيضان تنحسر في أواخر الخريف عن جوانب وادي النيل والدلتا، ويُعدُّ هذا الوقت ملائماً لزرع المحاصيل الشتوية[١]، كما تفيد المحاصيل من الطمي الذي يجلبه النيل أثناء الفيضان، فهو يجدِّد التربة، ويزيدها خصوبة، وفي الوقت نفسه تكون الأرض مشبعة بالماء، مما يساعد على نمو المحاصيل، وبعد انحسار النيل تبدأ الأمطار تهطل في مصر، وتسهم –بما أنها تستمر طوال فصل الشتاء – في الحفاظ على حياة النباتات في بعض المناطق حتى وقت النضج، الذي تليه مرحلة الحصاد (فصل الحصاد). اتخذ المصريون إجراءات احتياطية ليتجنَّبوا شح الأمطار، فشقُّوا القنوات، التي كانت تجرُّ المياه من النيل إلى حقولهم، وتحوَّلت مصر إلى شبكة من القنوات للإفادة من أكبر مساحة قابلة للزراعة.

---

(١) حزين، سليمان، المرجع السابق، ص١٦.

من أهم المحاصيل[١] التي أنتجتها مصر القديمة القمح والشعير، فالأول كان ضرورياً لصناعة الخبز، والثاني كان مستخدماً في صناعة الجعة، ولإنتاج هذين المحصولين كان الفلاح المصري يتبع خطوات عدة، ففي بداية الأمر كان يحرث الأرض بالمحراث الذي يجرُّه ثوران، مما يؤدِّي إلى تفتت كتل الطمي التي تكوَّنت بعد جفاف الأرض على أثر انحسار مياه الفيضان، وبعد الانتهاء من الحراثة، يبذر الفلاح البذار، ثم يدفن الحب كيلا تأكله الطيور، ولدفنه يُطلق قطيعاً من الماشية في الأرض المبذورة، وعند دخولها تحرِّك التراب بقوائمها فيُدفَن الحب، وبعد نضج المحصول كان الفلاح يحصده بمنجل من الخشب والصوان، ثم يدرسه، وفي النهاية تُنقَل الحبوب إلى الصوامع. هناك محاصيل أخرى، مثل العدس والفول والذرة البيضاء والجلبانة واللوبياء والترمس، والخضروات مثل البصل والثوم والخيار، والأشجار المثمرة مثل النخيل والكرمة والجميز والتين.

اهتم المصريون بتربية الحيوانات، ولا سيما الماشية الكبيرة المتمثِّلة بالثيران والبقر، وكان لدى المصريين مراعٍ، هي في الحقيقة مستنقعات، كانوا يُطلِقون فيها ماشيتهم، وفضلاً عن الحيوانات الكبيرة اقتنوا الماشية الصغيرة من تيوس وأكباش وماعز، وربُّوا الخنازير أيضاً، وكانوا يربُّون الماشية الصغيرة في بيوتهم، ويعتمدون عليها في غذائهم اليومي.

---

(١) للاطلاع على محاصيل مصر بتفصيل أكثر انظر: السيد محمد، فاروق، المرجع السابق، ص٢٣ –٣٢.

٢-الصناعة[١]:

اهتم المصريون بأنواع كثيرة من الصناعات التي توفِّر لهم أشياء كثيرة كانوا يستخدمونها في حياتهم اليومية، وقد امتازت صناعاتهم بالدقة والحرفية، واعتمدوا فيها على مواد أولية متوفرة في البيئة المحلية، ومواد أخرى مستورَدة، كان الصانع المصري يرث المهنة من أبيه وجده، وفي الوقت نفسه يورثها لابنه من بعده، وبسبب هذا التقليد انحصرت بعض الصناعات في بعض العائلات لمدة طويلة، مما أدَّى إلى تطورها.

من أهم صناعاتهم صناعة المعادن، التي شهدت ازدهاراً كبيراً، ومما ساعد على ازدهارها توفر خامات المعادن في مصر، وأول معدن استخرجه المصريون النحاس، الذي كانت تنتشر مناجمه في شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية. وكذلك برعوا في صياغة الفضة، لكنه كان قليلاً، مما يفسِّر ندرة الأدوات الفضية المكتشفة، وخلطوا الذهب بالفضة وأنتجوا ما يُسمَّى الذهب الأبيض (الإلكتروم)، واستخدموه في تطعيم المعادن الأخرى، وصناعة الحلي، وكساء قطع الأثاث المختلفة والتوابيت[٢].

وعرف المصريون صناعة القيشاني، وقد انتشرت هذه الصناعة في مناطق مختلفة من مصر، وعمل المصريون بصناعة الزجاج أيضاً.

---

(١) أبو بكر، عبد المنعم، الصناعات، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الأول، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، ص٤٥٤ -٤٨٩.

(٢) أديب، سمير، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، العربي للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٥٤٩ – ٥٥٠.

كذلك اهتم المصريون بصناعة اللِّبن الذي استخدموه في بناء أبنيتهم، ولاسيما المنازل والأبنية الحكومية، وهو ينقسم إلى نوعين نيِّء، وآخر مشوي هو الآجر، وقد استخدموا الطمي في صناعته، الذي كان يتوفَّر بكثرة في مصر.

كما شاعت في مصر القديمة صناعة ورق البردي الذي كانوا يستخدمونه للكتابة.

واشتُهِرت مصر بصناعات أخرى، مثل صناعة النسيج، التي اعتمدوا فيها على الصوف والكتان والقطن والحرير، كما عرفوا صناعة الفخار والسلال والحبال والأواني الحجرية.

٣-التجارة:

فضلاً عن الزراعة والصناعة امتهنت مصر القديمة التجارة بصنفيها الخارجي والداخلي، وتبنَّت نظام المقايضة أو المبادلة في التجارتين، ففيما يتعلَّق بالتجارة الخارجية، نجحت مصر بها لامتلاكها طرقاً تجارية أسهمت في ربطها مع المناطق المجاورة، وكانت أغلب هذه الطرق مائية، مثل البحر الأبيض المتوسط في الشمال الذي ساعد المصريين على إقامة علاقات تجارية مع كريت وقبرص وسورية، والبحر الأحمر الذي مكَّن مصر من المتاجرة مع شرقي إفريقيا، وجنوبي غربي شبه الجزيرة العربية.

استوردت مصر من كريت الفضة الخام، لحاجتها لها في صناعتها، ولأن هذا المعدن لم يكن متوفراً في كريت، فقد جلبته من جزر مجاورة،

ثم صدَّرته إلى مصر[١]، وصدَّرت الأواني إليها أيضاً[٢]، وكانت مصر تستورد النبيذ وزيت الزيتون، اللذين توفَّرا بكثرة في كريت، وكانت كريت تأخذ بدلاً منهما النحاس المصري. كانت كريت تحصل على العاج من ليبيا، ومن المحتمل أنها حصلت على كمية إضافية من مصر، فالعاج من المواد الخام التي كانت تبحث عنها كريت[٣]، لتستخدمها في صناعتها، وكما هو معروف، فإن هذا المنتج كان يأتي من إفريقيا، ومصر هي جزء منها[٤].

أقامت مصر علاقات تجارية مع الساحل الفينيقي أيضاً، وهذه العلاقات قديمة لها أكثر من هدف، من تلك الأهداف الاتصال مع حضارات البحر المتوسط الأخرى عبر الساحل الفينيقي، الذي كان حلقة وصل بين مصر وغيرها من الحضارات مثل كريت[٥]، وفي الوقت

---

(1) Sandrs. N. K , The Sea People Warrios of the Ancient Meditereanean 1258-1152 B.C, London, Thameds and Hudison, 1978, p: 57.

(٢) عكاشة، علي، الناطور، شحادة، بيضون، جميل، اليونان والرومان، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط١، إربد، ١٩٩١، ص٢١.

(٣) الناصري، سيد أحمد علي، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، من حضارة كريت حتى قيام الإسكندر الأكبر، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ص٣٦.

(٤) إحميم، فيصل، شكمبو، عبد الكريم، النشاط الاقتصادي في المدن الفينيقية، مدينة صور أنموذجاً، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الشهيد حمه الخضر–الوادي، ٢٠١٧–٢٠١٨، ص٢٠.

(٥) نيقولا، جريمال، تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر حويجاتي، القاهرة، ١٩٩٣، ص٨٥. الهذال، حصة تركي، المؤثرات الحضارية الفينيقية في الحضارة اليونانية،

نفسه كانت مصر تتاجر مع الساحل الفينيقي، فقد استوردت الأخشاب من هذه المنطقة مثل الصنوبر والأرز والسنديان والسرو، لأن الخشب الذي كان متوفراً في مصر لم يكن صالحاً للاستخدامات كلها، فكانت مصر تنقل الأخشاب على ظهر سفنها، وتستخدمها في أكثر من مجال، من بينها صناعة السفن، ومن الأمثلة على ذلك السفينة المكتشَفة إلى جانب الهرم الأكبر، المصنوعة من خشب الأرز، التي بلغ طولها ٤٣ متراً، وعرضها ٦ أمتار، وتعود هذه السفينة إلى عصر خوفو بن سنفرو(١).

كما تاجرت مصر مع جنوبي غربي شبه الجزيرة العربية وسواحل إفريقيا الشرقية عن طريق البحر الأحمر، وأرسلت الملكة حتشبسوت بعثة إلى سواحل إفريقيا الشرقية في عام ١٨٤٢ ق.م بغرض الحصول على البخور والطيب والمر وريش النعام.

خامساً-الحياة الدينية:

١-الآلهة:

عبدت مصر القديمة، شأنها شأن معظم الحضارات القديمة، الآلهة اتقاء لشرها، وللحصول على فوائد منها، فعلى سبيل المثال عبدَ المصريون القدماء الأفعى خوفاً من لدغتها، وسجدوا للأشجار لما تقدِّمه لهم من ثمار وظل وارف عند ارتفاع درجة الحرارة، ومن أسباب العبادة الإعجاب بعظمة الآلهة التي لا يمكن إدراكها، وقد تأثَّرت الديانة المصرية بالتقسيمات الإدارية المتبعة في مصر، إذْ ضمَّت مصر اثنين

دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٤٣، ملحق ٣، ٢٠١٦، ص١٥٦٣.

(١) أبو بكر، عبد المنعم، المرجع السابق، ص٤٦٥.

وأربعين إقليماً، كان لكل إقليم إله خاص به، وانقسمت الآلهة في مصر إلى آلهة محلية مثل أتوم رب عين شمس، وعالمية مثل نوت ربة السماء، وجُسِّدت الآلهة المصرية على هيئة حيوانية أو إنسانية، وفي بعض الأحيان جمعت بين الصورتين الحيوانية والإنسانية. شاعت في مصر القديمة فكرة التاسوع الإلهي، وتظهر هذه الفكرة جلية في معتقدات عين شمس (هليوبوليس)، إذ يتكوَّن التاسوع من تسعة آلهة على رأسها الإله رع، وبقية الآلهة هم أبناء رع وحفدته(١).

يُعدُّ رع إله الشمس من أهم هذه الآلهة، كان على رأس التاسوع الإلهي في الدولة المصرية القديمة، واسمه يعني: الشمس، وهو خالق الكون حسب أسطورة الخلق المصرية، جُسِّد فنياً على صورة قرص الشمس الذي يعبر السماء في قارب من الشرق إلى الغرب، أو على شكل قرص مجنَّح، ومُثِّل على هيئة رجل ملتحٍ أيضاً، له رأس صقر، ويتوِّج رأسه قرص الشمس الذي تخرج منه حية، وكان يحمل بيده اليمنى الصولجان رمز السلطة، وبيده اليسرى علامة عنخ (رمز الحياة)، ويُطلَق عليه – في هذا التمثيل – رع حورس، لأن رأسه هو رأس حورس. كان مركز عبادته الرئيس مدينة هيلوبوليس، وكُشِف عن معبد كبير له في منطقة "أبو غراب"، وقد بنى له ملوك الأسرة الخامسة معابد أخرى، وكان كل معبد يحمل اسماً مختلفاً عن الآخر، مثل متعة رع، وأفق رع، وحقل رع.

من الآلهة المصرية الأخرى الربة نوت ربة السماء، التي مُثِّلت فنياً في أكثر من صورة، منها البقرة الكبيرة، والمرأة العارية التي كانت تنحني

(١) حسن، سليم، الحياة الدينية وأثرها على المجتمع: الديانة المصرية القديمة وأصولها، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الأول، مكتبة النهضة المصرية، ص٢١٠.

إلى الأرض[١]، وتزيّن النجوم جسمها، وهي واحدة من تاسوع هليوبوليس الذي كان يتزعَّمه الإله رع، ابنة شو (إله الهواء)، وتفنوت (إله الرطوبة والماء)، وزوجة جب إله الأرض، وأم أوزيريس (ماء الفيضان)، وأوزيس (الأرض الخصبة)، وست (الجفاف)، ونفتيس (الصحراء)، أدَّت دوراً مهماً في الممارسات الجنائزية، إذْ كانت تُمثَّل داخل التوابيت لتحمي الميت بجناحها، وكان يُطلَق على التابوت أحياناً اسم نوت[٢].

كان المجمع الديني المصري يضمُّ آلهة أخرى ذات مكانة مرموقة، مثل الإله تحوت إله القمر، الذي ظهر في عصر ما قبل الأسرات، ومُثِل على هيئة قمر، وعلى هيئة الطائر أبيس (أبو منجل)، أو على هيئة إنسان برأس أبيس، كما ظهر على هيئة قرد أيضاً[٣]، فهو إله الحكمة والحساب وراعي الكُتَّاب والكتابة، وكاتب الآلهة، ومعلن قراراتهم، وكان قاضياً يفصل في الخصومات بين الآلهة، ويقسِّم الزمن إلى شهور، وهو سيد السحر[٤].

وتُعدُّ الإلهة حتحور من أهم الآلهة المصرية، بدأت عبادتها منذ عصر ما قبل الأسرات، فهي ملكة السماء وربة الحب والحنان والأمومة والخصوبة والغناء والرقص والموسيقا، وهي التي أرضعت حورس بعد أن ولدته أمه إيزيس في مستنقعات الدلتا، مركز عبادتها الرئيس

---

(١) عبد الحليم، نبيلة محمد، المرجع السابق، ص٥٠.

(٢) أديب، سمير، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، ص٨٢٥ – ٨٢٦.

(٣) عبد الحليم، نبيلة محمد، المرجع نفسه، ص٥١.

(٤) أديب، سمير، المرجع نفسه، ص٢٦٩.

الصعيد، وقد انتشرت عبادتها في مناطق أخرى، وشُيِّدت لأجلها المعابد، ومُثِّلت في الفن المصري على هيئة بقرة، وعلى هيئة امرأة يزيّن رأسها قرص الشمس بين قرني بقرة.

كما عبد المصريون آلهة أخرى، لها وظائف مختلفة، مثل آمون إله الريح والخصوبة في طيبة، وبتاح إله الحرفيين والفنانين، وأنوبيس إله التحنيط.

٢-المعابد:

أطلق المصريون على المعبد اسم بيت الإله، وشهد المعبد المصري تطوراً خلال تاريخه الطويل، ففي عصر ما قبل الأسرات كان يُشيَّد من مواد سريعة التلف، وتبيَّن من خلال نقوش الأختام أنه كان يُبنى من أعواد النباتات، ويُسقَف بالحصير، وله باب مقوَّس على أحد ضلعيه القصيرين، وباب آخر على أحد ضلعيه الطويلين[١]، ثم تطوَّر المعبد المصري في عهد الأسرات، من الأمثلة على ذلك معبد زوسر الجنائزي الذي صمَّمه المهندس أمحوتب، وامتاز بفخامته، ومعبد أبي الهول الذي يعود إلى عصر الأسرة الرابعة، وقد بُني هذا المعبدان من الحجارة الضخمة، وضمَّا عدة أقسام، وحُمِلت سقوف بعض الحجرات على أعمدة، وفي عهد الدولة الوسطى صار المصريون يبنون معابدهم على قواعد، مثل المعبد الذي بناه أمنحوتب الثالث في الكرنك، والذي بُني على قاعدة مربَّعة، على غرار المعبدين السابقين، حيث استُخدِمت الأعمدة في حمل سقف المبنى، وفي عهد الدولة الحديثة أصبح المعبد

(١) أديب، سمير، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، ص٧٤٩.

أكثر فخامة وضخامة بسبب الثراء الذي أصابه المصريون خلال هذه المرحلة، فبُنِي المعبد في الدولة الحديثة مُحاطاً بالأسوار، وعلى واجهته التي تضمُّ البوَّابة برجان ضخمان، ويحيط بالبوابة عمودان يحملان عَلَمين، وكان تمثال الإله يُحفَظ في صندوق يُودَع في قاعة قدس الأقداس[١].

سادساً–اللغة والكتابة:

تحدَّث المصريون القدماء باللغة المصرية القديمة، التي ظهرت نصوصها الأولى في ٣١٠٠ ق.م، وهي تشترك مع لغات الشرق العربي القديم (الأكادية والآرامية والعربية) بثلاثمئة لفظ، ومع اللغات الإفريقية (الليبية والبربرية والكوشية) بأكثر من مئة لفظ، وقد اكتسبت هذه الألفاظ نتيجة احتكاكها مع الشعوب الآسيوية والإفريقية، التي كانت تتحدَّث بها، لأنها تقع على مفترق طرق بين آسيا وإفريقيا. يُقدَّر عدد كلماتها بعشرين ألف كلمة، وهي قابلة للزيادة كلما نُشِرت نصوص جديدة. انقسمت اللغة المصرية إلى لغتين: محكية، وهي اللغة العامية، ولغة الكتابة، وعاشت مدة طويلة من الزمن، ولم تبقَ على صورتها الأولى، بل شهدت تطورات كبيرة نتج عنها دخول الألفاظ آنفة الذكر. واستناداً إلى التطورات التي شهدتها قُسِّمت العصور التي عرفتها إلى أكثر من عصر [٢].

يُعدُّ العصر القديم أقدم عصر عرفته اللغة المصرية القديمة، ويمتدُّ من ٣٠٠٠ ق.م، أو قبل ذلك بقليل حتى ٢٢٠٠ ق.م، وتمَّ التعرف على لغته

---

(١) حسن، سليم، المرجع السابق، ص٢٤٦ – ٢٥١.

(٢) للتوسع حول نشأة اللغة المصرية القديمة وتطورها انظر: أديب، سمير، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، ص ٦٩٥ – ٦٩٧.

من النصوص الدينية للمعابد، ومن المشاهد والنصوص المنقوشة على المصاطب.

يلي هذا العصر عصر اللغة المصرية الوسيط، ويشتمل على العصر الانتقالي الأول، وعصر المملكة الوسطى، والعصر الانتقالي الثاني (٢١٤٣ – ١٥٥٠). وتمتاز لغة هذا العصر بقواعدها الدقيقة، وقد أصبحت في مرحلة من المراحل مطابقة للغة العامية (اللغة المحكية)، ثم صارت اللغة الرسمية للنصوص الدينية والتاريخية، وعلى الرغم من التوقف عن استخدامها، استُخدِمت مجدداً في مراحل متأخرة في المعابد اليونانية والرومانية.

ثم سادت اللغة المصرية الحديثة من عام ١٥٥٠ حتى ٧٠٠ ق.م، وخلال هذا العصر اختلفت لغة الكتابة عن اللغة المحكية، واستُخدِمت لغة الكتابة في النصوص الرسمية، أما اللغة المحكية فقد استُعمِلت في القصص والأمثال.

وفي عام ٧٠٠ ظهرت اللغة الديموطيقية، التي استمرت ألف عام، واستخدمها الكتبة في الكتابات الرسمية. وتطورت هذه اللغة إلى القبطية، التي تركت الهيروغليفية ورموزها التصويرية، واستعاضت عنها بحروف الهجاء الإغريقية. استمرت القبطية حتى القرن السادس عشر الميلادي، وما تزال موجودة حتى الآن في الكنائس المسيحية بوصفها لغة للشعائر والمؤلفات الدينية.

كُتِبت اللغة المصرية القديمة بالحرف الهيروغليفي، وهذه الكلمة ذات أصل يوناني، وتعني: الكتابة المقدَّسة، وتنقسم إلى قسمين: Hieros ، التي تعني: مقدَّس، وGlupho، التي تعني: نقش، أو كتابة، وبدمج الكلمتين نحصل على مصطلح واحد يعني: الكتابة المقدَّسة.

فـي عـام ١٣٠٠ ظهـرت الكتابـة الهيراطيقيـة، وهـي كتابـة متطـورة عـن الهيروغليفيـة، ومصـطلح هيراطيـق يعنـي: الكهنـوتي، وسـبب تسـميتها بهـذا الاسـم انتشـارها فـي أوسـاط الكهنـة، وكانـت تُسـتخدَم فـي تـدوين السـجلات الحكوميـة، والعقود، والنصـوص، والرسـائل الدينيـة بالحبر علـى أوراق البردي بوساطة أقلام القصب.

وفـي القرن الثـامن أو السـابع ق.م نشـأت الكتابـة الديموطيقيـة، وهـذا المصـطلح يعنـي: الكتابـة الشـعبية، وفضـلاً عـن انتشـارها بـين الكهنـة والموظفين، انتشرت انتشاراً واسعاً بين فئات الشعب الأخرى، وتعود آخر وثيقة دُوِّنت بها إلى عام ٤٧٦ م.

سابعاً–العلوم:

١–الطب[١]**:**

ازدهر الطب في الحضارة المصرية القديمة، حسب ما أكَّدته البرديات القديمـة، التـي دُوِّنـت عليهـا معـارف المصـريين الطبيـة، وأكَّـدت أن المصـريين عرفوا الأمراض الباطنـة، ووصـفوها وصـفاً دقيقاً، يـدلُّ علـى ذلك فهمهم العميق لوظـائف الجسم، وبنيتـه التشريحية، وقد برعوا فـي طب النساء، والأسنان، وطب الجراحة، وطب العيون، وطب الأمعاء، وطـب الـرأس، وطـب الأطـراف، والأورام. وكـان المصـريون يختتـون الذكور، ويُصنَّف الختان مع العمليات الجراحية، واستعانوا على غرار الحضارات الأخرى بالرقى والتعاويذ.

---

(١) غليونجي، بول، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الأول، مكتبة النهضة المصرية، ص ٥٢٣ – ٥٧٣.

أنشأ المصريون المدارس الطبية لتلقي المعارف الطبية، وكانت ملحَقة بالمعابد، يعود أقدمها إلى عهد الأسرة الأولى (٣٢٠٠ ق.م)، ومن أشهرها مدرسة هليوبوليس، ومدرسة ساو للمولّدات، اللاتي كنَ يدرّسن أمراض النساء للأطباء، ومدرسة أمحوتب في منف التي كان الأطباء يقصدونها حتى القرن الثاني الميلادي، ومدرسة طيبة، وكانت هذه المدارس أشبه بالجامعات، هدفها نشر العلوم الطبية بفروعها كلها، وكان الطلاب الذين يلتحقون بها من أبناء الطبقة الراقية، ويتمُّ توفير وسائل الراحة لهم.

٢-الرياضيات:

برع المصريون في الرياضيات، وبدأ اهتمامهم بها قبيل عهد الأسرة الأولى، وتقدَّمت في عصر الدولة القديمة، ويعدُّ هذا العصر عصرها الذهبي. ثمة رأي يقول: إن الرياضيات في عهد الدولة الحديثة لم تتقدَّم على رياضيات الدولة القديمة، وإنما استخدمت النظريات والأساليب التي كانت شائعة أيام الدولة القديمة، مما يؤكِّد تقدَّمها منذ مرحلة مبكِّرة، وسبب تقدمها حاجتهم إليها في حياتهم العملية. من الأمثلة القديمة على براعتهم بها واستخدامهم إياها في حياتهم اليومية صولجان ملكي يعود إلى الملك نعرمر (قبيل الأسرة الأولى)، نُقِش عليه نصٌّ يخلّد انتصار هذا الملك، جاء فيه أنه وقع في الأسر ١٢٠ ألف أسير، واستُولي على ٤٠٠ ألف ثور، وقرابة مليون ونصف رأس من الماعز[١]. إن تمكّن

(١) سارتون، جورج، تاريخ العلم، الجزء الأول، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠، ص٩٨.

المصريين من استخدام رموز لأرقام – في وقت مبكِّر – تزيد عن المليون يدلُّ على تقدمهم في هذا المجال، وحاجتهم الماسة لهذا العلم.

من المجالات التي أسهمت في تطوير هذا العلم في حياة المصريين تنظيم مياه النيل، وضبطها وقياسها، وتوزيعها على الأقاليم، وتحديد مواسم الزراعة والحصاد والأعمال التجارية، وتحصيل الضرائب العينية، وقياس الأراضي الزراعية ومعرفة مساحتها بهدف بيعها أو تقسيمها، وعُرِف العلم الذي يتعلَّق بمساحة الأرض الزراعية بعلم المساحة، وهو علم يرتبط ارتباطاً مباشراً بالرياضيات، وقد استخدم المصريون في هذا العلم وحدة قياس تُسمَّى الذراع الملكية (قرابة ٣، ٥٢ سم)، واستعملوا ذراعاً أصغر منها قليلاً، وقُسِّمت الذراع إلى سبع قبضات متوسطة، أو ست قبضات كبيرة، واستخدموا وحدة قياس تبلغ مئة ذراع أطلقوا عليها اسم خت، ووحدة قياس للأراضي الكبيرة تُقدَّر مساحتها بـ ٢٧٣٥ م^{٢}، وتُسمَّى سشات.

لقد احتاج تنفيذ مختلف العمليات المتعلِّقة بحياة المصريين إلى علم حساب متطوِّر خبره المصريون الذين عرفوا العشرات والمئات والألوف وألوف الألوف، وعرفوا الجمع والطرح والضرب والقسمة أيضاً، وكذلك استخدموا الكسور البسيطة، واستعاضوا بها عن الكسور المركَّبة، واستخدموا المعادلات الجبرية البسيطة، واتبعوا في جمعهم وضربهم وتقسيمهم للكسور الطرق نفسها التي اتبعوها مع الأعداد الصحيحة[١].

٣–الفلك:

(١) أديب، سمير، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، ص٤٧٧ – ٤٧٨.

قدَّم العلماء أكثر من تعريف لعلم الفلك، من بينها تعريف الجوهري، في كتابه "الصِّحاح في اللغة والعلوم"، بأنه: علم يُبحَث فيه عن الأجرام العلوية وأحوالها[١]. يُعدُّ علم الفلك من أقدم العلوم، لأنه ارتبط بالزراعة التي توفِّر الغذاء للإنسان، فمن خلال اختفاء النجوم وظهورها صار بإمكان الإنسان تحديد مواعيد حراثة الأرض، وبذر البذار، وحصاد المحصول[٢]، كما ساعد علم الفلك على ضبط التقاويم، وساعدت مراقبة النجوم العرَّافين في التنبؤ ببعض القضايا العامة المتعلِّقة بالبلاد، أو القضايا الخاصة، مثل تلك التي تتعلَّق بحياة الملوك ومصائرهم، وترتبط هذه الجزئية الفلكية بعلم التنجيم.

اهتم المصريون القدامى بعلم الفلك، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى تحديد الوقت وقياس الزمن، من إنجازاتهم الفلكية وضعهم خرائط للأبراج اقتصرت على جزء صغير للسماء، ووضعهم جداول بيَّنوا فيها مواقع النجوم، وبفضل معارفهم الفلكية استطاعوا وضع تقاويم، ففي بداية الأمر وضعوا التقويم النيلي، الذي يبدأ بفيضان نهر النيل ووصوله إلى منطقة ذات أهمية سياسية أو قيمة حيوية، ولهذا التقويم علاقة بالكواكب، إذْ لاحظ المصريون عند حصول الفيضان ظهور نجم الشعرى اليمانية في السماء[٣]، فربطوا بينه وبين الفيضان، وعدُّوه أنثى،

---

(١) الجوهري، الصحاح في اللغة والعلوم، المصطلحات العلمية والفنية للجامع والجامعات العربية، م٢، بيروت، ص٢٥٩.

(٢) النعيمي، شيماء، الفلك في العراق القديم من القرن السابع إلى القرن الرابع ق.م، رسالة دكتوراه، جامعة الموصل، ٢٠٠٦، ص٧.

(٣) سارتون، جورج، المرجع السابق، ص٨٨.

وأطلقوا عليه اسم جالبة الفيضان، وفيما بعد وضعوا التقويم الشمسي، جرى ذلك على يد فلكيين في مدينة أون (عين شمس) في عام ٢٧٧٣ ق.م، وحدَّد هذا التقويم عدد أيام السنة بـ ٣٦٥ يوماً، تنقسم إلى ثلاثة فصول، وتتكوَّن من اثني عشر شهراً[١]، وعدد أيام الشهر ثلاثون يوماً، وعدد أسابيع الشهر ثلاثة، وعدد أيام الأسبوع عشرة أيام. عدَّ المصريون الأيام الخمسة الأخيرة من السنة أيام أعياد لخمسة أرباب عندهم، وهي أيام النسيء[٢] الخمسة.

تأثَّرت الحضارات المجاورة بالمعارف الفلكية المصرية، مثل الحضارة اليونانية، فقد وفد علماء هذه الحضارة إلى منف وعين شمس ومدن أخرى للنهل من المعارف الفلكية المصرية، من بينهم فيثاغورس وأرشميدس[٣]، وكذلك تأثَّر الرومان بالمصريين في هذا المجال، فقد أخذوا عنهم التقويم الشمسي، ونسبوه إلى يوليوس قيصر، وأصبح أساس التقويم الميلادي فيما بعد.

---

(١) سارتون، جورج، المرجع السابق، ص٨٨.

(٢) النسيء هو تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر زمن الجاهلية لكي يستباح القتال فيه، والفعل من نسيء أنسا، فيقال أنسا الله أجله أي أخره وأطال الله في عمره. انظر: معجم المعاني الجامع على الشابكة/ https://www.almaany.com.

(٣) نور الدين، عبد الحليم، الفلك في مصر القديمة، الموسم الأثري الثاني، مكتبة الإسكندرية، www.nureldin.com.

الفصل الخامس

الحضارة الحثية



أولاً- بلاد الأناضول جغرافياً:

امتدَّت الحضارة الحثية وانتشرت وازدهرت في المنطقة المعروفة جغرافياً باسم آسيا الصغرى أو الأناضول، والتي تمثِّل حالياً الجزء الآسيوي من تركيا الحالية، الواقعة بين البحر الأسود في الشمال، وسورية والعراق والبحر المتوسط في الجنوب، وبحر إيجة في الغرب، وإيران وأذربيجان وأرمينيا في الشرق، وهي منطقة يغلب عليها الطابع الجبلي، حيث تصطفُّ في شمالها جبال بونتوس، وفي جنوبها جبال طوروس، ومنها ينبع نهرا دجلة والفرات.

ثانياً- أصل الحثيين:

ورد ذكر الحثيين في الوثائق الآشورية العائدة إلى القرن التاسع عشر ق.م، والمصرية المؤرَّخة في القرن الرابع عشر ق.م (رسائل تل

العمارنة)، فالحثيون هم من الشعوب الهندو أوروبية، لكن ثمة رأيان حول الجهة التي هاجروا منها إلى بلاد الأناضول، الأول يقول: إنهم هاجروا إلى الأناضول من مناطق جبلية في الشمال الغربي من أوروبا (البلقان والدانوب) عبر مضيقي البوسفور والدردنيل، والثاني يرجِّح قدومهم إلى هذه المنطقة من شمال شرق أوروبا (سهول أوكرانيا) عبر جبال القوقاز[1].

ويُعتقد أنهم هاجروا إلى الأناضول في مطلع الألف الثاني ق.م، وكان يُطلَق على بلاد الأناضول اسم بلاد خاتي، نسبة إلى الخاتيين، الذين كانوا يستوطنون في الأناضول قبل قدوم الحثيين، وكانت عاصمة هذه البلاد خاتوشا (بوغازكوي شرقي أنقرة)، استقر الحثيون في بداية الأمر في مدينة كانيش (كول تبه) في إقليم كبدوكيا شرقي الأناضول، تؤكِّد ذلك النصوص الآشورية المكتشَفة في كانيش، التي كانت تحتوي على أسماء هندو أوروبية.

ولم تُطلَق على الحثيين هذه التسمية إلا بعد سيطرتهم على قلب هضبة الأناضول، فهو ليس اسماً هندو أوروبياً، وإنما اشتُقَّ من خاتي، وورد في النصوص الآشورية والحثية.

ثانياً-تاريخ الحثيين:

مرَّ الحثيون بحقب تاريخية عدة، وكان لكل حقبة وضعها السياسي، بدأت حقبتهم الأولى في بلاد الأناضول منذ لحظة دخولهم إليها، وفي

---

(١) الصالحي، صلاح رشيد، الصراع على السلطة في عهد المملكة الحثية القديمة، بغداد، ٢٠١٨، ص٣.

هذه المرحلة كانت البلاد مقسَّمة إلى عدد من الإمارات شبيهة بدويلات المدن، التي انتشرت في الشرق الأدنى القديم في أزمان مختلفة، وكان يترأَّس كل إمارة ملك، وقد دخلت هذه الإمارات في صراع فيما بينها، انتهى بانتصار أنيتا ملك كوشارا على الملوك الآخرين، وقد ذكر نصٌّ مدوَّن باللغة الحثية، يُؤرَّخ بـ ١٧٠٠ ق.م، ويعود إلى أنيتا، بأن أنيتا خاض معارك كثيرة حتى تمكَّن من إخضاع البلاد لسيطرته.

تلت هذه الحقبة حقبة المملكة الحثية القديمة (١٦٨٠ – ١٣٨٠ ق.م)، التي أُسِّست على يدي لابارنا الذي سيطر على أجزاء أخرى من الأناضول لم يُسيطر عليها سلفه أنيتا، وقد جعل لابارنا من كوشارا عاصمة له، وظلت هذه المدينة عاصمة للملكية الحثية القديمة خلال مدة من حكم خليفته حاتوشيلي الأول (١٦٥٠ – ١٦٢٠ ق.م)، الذي استبدل بها لاحقاً حاتوشا، لأنها كانت تشغل موقعاً استراتيجياً مهماً.

قام حاتوشيلي الأول بحملات عسكرية خارج الأناضول، حيث هاجم مملكة يمحاض، التي كانت تتخذ من حلب عاصمة لها، واحتل ألالاخ (تل العطشانة) الواقعة قرب أنطاكيا، واستمرت الحملات العسكرية في عهد مورشيلي الأول (١٦٢٠ – ١٥٩٠ ق.م)، الذي هاجم مملكة يمحاض، واحتل عاصمتها حلب، وقام بحملات على منطقة شمالي الفرات الأوسط ليمنع مملكة ميتاني الحورية في الجزيرة السورية من مدِّ نفوذها في سورية غربي الفرات، وهاجم بابل في عام ١٥٩٥ ق.م، وأنهى حكم الدولة البابلية القديمة[١]، وبعد الانتصار على البابليين خرج

(١) إسماعيل، فاروق، معاهدات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول (نحو ١٣٨٠ – ١٣٤٠ ق.م) مع الممالك السورية، مجلة جامعة الملك سعود، م ٢١، السياحة والآثار ١،

مورشيلي الحثي من بابل متجهاً إلى الأناضول بسبب ظهور بعض المشكلات الداخلية التي هدَّدت عرشه، فسيطر الكاشيون على بابل.

بعد وفاة حاتوشيلي الأول اعتلى العرش الحثي خانتيلي (١٥٩٠ – ١٥٦٠ ق.م)، الذي كانت المملكة الحثية في عهده تعاني ضعفاً كبيراً، ثم تعاقب على عرش المملكة الحثية أربعة ملوك بعد وفاته، من أهمهم الملك تيليبنو (١٥٢٥ – ١٥٠٠ ق.م)، الذي كان أقوى ملوك المملكة الحثية القديمة خلال هذه الحقبة من تاريخها، وأصدر قانونه الجديد الذي نظَّم فيه مسألة وراثة العرش، وجاء بعده عدد من الملوك الضعفاء، عانت البلاد خلال مدة حكمهم من الصراعات، فاستطاع الميتانيون بسط نفوذهم غربي الفرات حتى حلب وألالاخ في القرن الخامس عشر، وفي أواخر القرن الخامس عشر وصلت المملكة الحثية إلى درجة كبيرة من الضعف، فاستغلَّ الميتانيون هذا الأمر ووصلت حملاتهم إلى قلب الأناضول، استمرت حالة الضعف حتى اعتلى العرش الحثي الملك شوبيلوليوما الأول (١٣٨٠– ١٣٤٦ ق.م)، الذي يُعدُّ عهده بداية لعصر المملكة الحثية الحديثة التي استمرت قرابة قرنين من الزمن (١٣٨٠ – ١٢٠٠ ق.م).

يُعدُّ شوبيلوليوما الأول المنقِذ للحثيين، فقد أعاد للبلاد وحدتها وهيبتها، ووطَّد أركان الدولة الحثية بعد أن عانت من الفوضى والتمزق، وكان يسعى إلى القضاء على الدولة الميتانية وملكها تشرتا الذي أقام علاقات وطيدة مع مصر، وبدأ يهدِّد الحثيين.

الرياض (٢٠٠٩م/ ١٤٣٠هـ)، ص٣.

خلف شوبيلوليوما الأول عدد من الملوك الأقوياء، مثل مورشيلي الثاني (١٣٤٥ – ١٣١٥ ق.م)، ومورواتالي (١٣١٥ – ١٢٩٠ ق.م)، حاول هذان الملكان التوسع في سورية، واصطدما مع المصريين في معركة قادش ١٢٧٥ ق.م، وقد ادَّعى رعمسيس الثاني الانتصار في هذه المعركة، غير أن بقاء شمالي سورية ووسطها تحت سلطة الحثيين أثبت أن الصراع لم يُحسَم لصالح المصريين، ثم أُنهِي النزاع بين الطرفين في ١٢٦٩، حين تمَّ توقيع المعاهدة الحثية المصرية(١).

بعد هذا التاريخ عاشت المملكة الحثية زمناً من الضعف، ثم انهارت في ١٢٠٠ ق.م على يد شعوب البحر(٢).

ثالثاً– نظام الحكم والإدارة عند الحثيين:

تربَّع الملك الحثي على قمة الهرم السياسي والإداري في المملكة الحثية، وكان يحمل لقب لابارنا، وهو اسم أول ملك حثي، وقد حمل ألقاباً أخرى في عهد المملكة الحثية الحديثة، مثل الشمس والملك الكبير

---

(١) عبد الله، فيصل، مرعي، عيد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص٣١٨.

(٢) عبارة عن تحركات لشعوب وقبائل جنوب شبه جزيرة البلقان، وأرخبيل جزر بحر إيجة، وبعض جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط، لأسباب تتعلق بالضغط السكاني الذي نجم عن تراكم تحركات لشعوب أتت من شمال، وشمال شرق أوروبا لأسباب مناخية (حروب –صراعات قبلية)، وقد وصلت هذه التحركات إلى بعض منا طق آسيا الصغرى والحوض الشرقي للبحر المتوسط، وانقضت على المراكز الحضارية في حاتوشا ومدن الساحل السوري ومصر، وأدت إلى زوال مدن وممالك بأسرها (حاتوشا– أوجاريت –ألالاخ...ألخ) انظر: كحلة، نزار مصطفى، غزوات شعوب البحر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ٢٠١٧، ص:٤٥–٤٦.

والملك العظيم والبطل وسيد الميدان، وكان يتحوَّل إلى إله يُعبَد بعد وفاته، ويُدفَن مع الملكة في قبر واحد، وتحمل جملة: أصبح الملك إلهاً، دلالة على وفاته[١]، وبعد وفاته كانت القرابين تُقدَّم له في معبد جنائزي مخصَّص له، وهناك اعتقاد أن معبداً جنائزياً مخصَّصاً لتودخليا الرابع كان يشغل قسماً من موقع يازيلكايا[٢].

كان الملك الحثي يصل إلى الحكم عن طريق الوراثة، وعليه أن يحصل على يمين الولاء من قبل الأمراء، والشخصيات المتنفِّذة في الدولة، ورئيس الكَتَبة، وكان يحقُّ له تعيين خليفته قبل وفاته، ولا يكون هذا التعيين شرعياً إلا بعد موافقة الشخصيات السابقة التي كانت تمثِّل مجلساً يُدعى بانكوش. نستنتج من ذلك أن سلطة الملك الحثي لم تكن مطلَقة، بل مقيَّدة بالمجلس الاستشاري بانكوش، الذي تراجعت سلطته في عهد الدولة الحديثة.

وكان الملك هو القاضي الأعلى، والقائد الأعلى الذي يجهِّز الحملات العسكرية، والكاهن الأعظم أيضاً، فعلى سبيل المثال كان تودخليا الرابع كاهناً للربة عشتار[٣]، وكان الملك على اتصال مباشر مع الآلهة، فهو

---

(١) بيكمان، غازي، معضلة القرون، أو الطبيعة الإلهية للملك الحثي، الحضارة الحثية، ترجمة صلاح رشيد الصالحي، بغداد، ٢٠٢١، ص٥٧.

(٢) مزار للحثيين قرب العاصمة التركية أنقرة. انظر: ساغونا، انطونيو، زيمانسكي، بول، النحت المعماري الحثي والنقوش الصخرية، الحضارة الحثية، ترجمة صلاح رشيد الصالح، بغداد، ٢٠٢١، ص:١١٥.

(٣) جيورجيري، ماريو، مورا، سيليا، الملكية في حاتتي خلال القرن الثالث عشر، أشكال الحكم والصراع على السلطة قبل سقوط الإمبراطورية، الحضارة الحثية، ترجمة

ممثِّل البشر أمام الآلهة، وتقع على عاتقه خدمة الآلهة العظمى في المعابد، وتقديم القرابين لها، وكانت الملكة كاهنة أيضاً، ترافق زوجها في الاحتفالات الدينية، وتقدِّم القرابين للآلهة، وتُشرِف على ممتلكات المعابد، ولم يقتصر دورها على الجانب الديني، بل كانت تؤدّي بعض المهام السياسية والدبلوماسية، وتوقِّع المعاهدات، فعلى سبيل المثال كان للملكة بودخبا زوجة حاتوشيلي الثالث الحثي دور في التوقيع على المعاهدة بين المصريين والحثيين عام ١٢٦٩ ق.م، فقد كانت تفاوض الملك المصري رعمسيس الثاني من خلال المراسلات قبل توقيع الاتفاقية بين الطرفين[١].

وعلى غرار أغلب الممالك القديمة، كانت المملكة الحثية مقسَّمة إلى مقاطعات تُدار من قبل أمراء من العائلة الملكية، وثمة ممالك أخرى كانت تخضع للمملكة الحثية وتتبع لها، وارتبطت معها بمعاهدات، فعلى سبيل المثال وقَّع ملك أوجاريت نقمادو الثاني(١٣٥٣-١٣١٨ق.م) مع الملك الحثي شوبيلوليوما الأول معاهدة تضمَّنت عدة بنود، أظهر أحدها خضوع أوجاريت للسلطة الحثية، حيث نصَّ هذا البند على دفع أوجاريت الجزية للملك الحثي، وشملت هذه الجزية كميات من الذهب والفضة، وأوانيَ ذهبية، وملابس ثمينة.

صلاح رشيد الصالحي، بغداد، ٢٠٢١، ص٢٣.

(١) ممفيس، بيتر، ي، العلاقات المصرية الحثية في عهد رعمسيس الثاني، الحضارة الحثية، ترجمة صلاح رشيد الصالحي، بغداد، ٢٠٢١، ص٩٢.

وفضلاً عن حكَّام المقاطعات الذين يُعدُّون من الموظَّفين الكبار، ظهرت طبقة من الموظَّفين في الدولة الحثية، كانت مهمتها تسيير شؤون الدولة المختلفة.

رابعاً- الحياة الاقتصادية:

١-الزراعة وتربية الحيوانات:

تنوَّعت الأنشطة الاقتصادية التي مارسها الحثيون في بلاد الأناضول، وتُعدُّ الزراعة من أهمها، وقد أكَّدت التنقيبات الأثرية أن معظم الناس زاولوا مهنة الزراعة في الألف الثاني في الأناضول، وقد يكون ذلك بسبب دورها في توفير أقواتهم، وهناك عوامل أخرى دفعت الناس إلى امتهان الزراعة، مثل خصوبة التربة وتوفر المياه، فلولا ذلك لما ظهرت هذه المهنة، ولما انتشرت على نحو واسع في بلاد الأناضول.

اهتمَّ الحثيون بزراعة الحبوب، وكان الفلاحون يبذرونها في فصل الخريف، لترتوي بأكبر كمية ممكنة من المياه، ولتنضج على نحو أفضل، زُرِعت الحبوب في مناطق مختلفة من الأناضول، وكانت لكل منطقة طريقتها الخاصة في الري، ففي المناطق الداخلية شاعت الزراعة البعلية، أما المناطق الأخرى، فقد اتبعت أسلوب الري الصناعي معتمدةً على الأنهار لعدم توفر كمية كافية من الأمطار. كان الناس يبدؤون بحصاد محاصيلهم وتذريتها في فصل الربيع، وفي موسم الحصاد يستأجرون العمال رجالاً ونساءً، وقد حدَّد القانون الحثي أجورهم. كان القمح والشعير أكثر أهمية من الحبوب الأخرى، لأنه من القمح يُصنَع الخبز، ومن الشعير تُصنَع البيرة، وكلاهما يمثِّلان وجبة غذائية اعتاد سكان الأناضول على تناولها، كما أنتج سكان الأناضول أنواعاً أخرى

من الحبوب، مثل العدس والفاصولياء والحمص. وعرفوا زراعة الكمون، والباقلاء والرشاد والثوم والبصل والزعفران والخيار، واهتموا بزراعة الأشجار، مثل الزيتون الذي انتشرت زراعته في مختلف أنحاء الشرق الأدنى القديم، والفواكه مثل الخوخ والتين والكمثرى والتفاح والمشمش.

استخدم فلاحو الأناضول أدوات متنوعة في أعمالهم الزراعية، مثل المحراث الذي شهد تطوراً كبيراً خلال مدة استخدامه في هذه المنطقة، ففي بداية الأمر كان يتحكَّم به رجلان، الأول يسحبه بالحبل، والآخر يثبِّت آلة الحرث ويدفعها لتقليب التربة، وفيما بعد استخدم الفلاحون المحراث الذي تجرُّه الثيران أو الحمير، ومن أدواتهم الزراعية الأخرى المسحاة، التي انتقلت من بلاد الرافدين إلى الأناضول، وكانت تُصنَع من الحجر، ثم فيما بعد من المعدن، وشاع استخدام المنجل في أعمال الحصاد في بلاد الأناضول منذ العصر الحجري الحديث، أما في هذا العصر فكان يُصنَع من الصوان والحجر البركاني، ويُثبَّت به مقبض خشبي بوساطة القار، لكن بعد اكتشاف المعادن، أصبح يُصنَع من البرونز، ثم من الحديد، وهناك أدوات زراعية أخرى استخدمها الناس في منازلهم، مثل الهواوين، والمدقَّات، والمجاريش، والرَّحى المستخدمة في طحن الحبوب.

ظهرت ملكيات مختلفة للأراضي الزراعية في الحضارة الحثية، وحدَّد القانون الحثي هذه الملكيات، من بينها الأراضي التي كان الملك يمنحها إلى جنوده على أنها إقطاعات، وكان يترتَّب عليهم تقديم خدمات عسكرية إلى الملك أثناء الحروب مقابل هذه الملكية، وفي حال غياب الجندي عن إقطاعيته بسبب انشغاله بالحروب، يُدير الإقطاعية شخص

يتبع إليه، ثم يردُّها إليه حين يُنهي مهمته، وهناك أراضٍ تعود ملكيتها إلى القصر، وكان يحقُّ للملك التصرف بها كيفما يشاء، ومنحها إلى من يشاء، وللمعبد أراضيه الخاصة به أيضاً، والكهنة هم الذين يشرفون على زراعتها وحصادها وتخزين المنتجات في المخازن، وقد عرف الحثيون الملكية الخاصة، فقد سمح القانون الحثي لكل فرد أن يمتلك أرضاً زراعيةً من أراضي القرية، أو يستصلح إحدى أراضي البور استصلاحاً، ويملكها.

اهتمَّ القانون الحثي بالمنتَجات الزراعية، وحدَّد أسعارها، فالواحد باريسو (وحدة وزن) من القمح حدَّد سعره بشيقل واحد من الفضة، في حين كان الشعير أقل قيمة، إذْ كان ثمن الواحد باريسو من الشعير بربع شيقل من الفضة، وحمى القانون الحثي المنتجات الزراعية من السرقات، فقد ورد في المادة ٩٦ من القانون الحثي أنه إذا سرق شخص حر الحبوب من حفرة تخزين الحبوب، وجب على السارق ملء حفرة التخزين بالحبوب مجدداً، وعلى السارق تقديم تعويض لصاحب المخزن يقدَّر بشيقلين اثنين من الفضة.

اهتمَّ الحثيون بتربية الحيوانات، ولاسيما الأغنام والماعز، لأنهم يفيدون من لحمها وحليبها وصوف الأغنام الذي يدخل في صناعة النسيج، كما كانت لهذه الحيوانات أهمية في الطقوس الدينية، إذ كانت تُقدَّم قرابين للآلهة، وكانت ملكيتها تعود إلى الأفراد، والقصر، والمعبد، وللتمييز بينها كانت تحمل علامات تشير إلى الجهة التي تمتلكها، كما اهتم الحثيون بتربية الأبقار، ساعدهم على ذلك توفّر المروج التي كانت تمثِّل مراعيَ للأبقار، وقد وفَّرت الأبقار للناس الحليب، وكان المُسِنُّ منها

يُذبَح، ويُقدَّم قرابين للمعابد، وكان للثور أهميته في بلاد الأناضول، فقد كان الناس يستخدمونه في أعمال الحراثة، وفي جرّ العربات الثقيلة، واقتنى الحثيون حيوانات أخرى أيضاً ، مثل الكلب الذي استُخدِم للحراسة والصيد، والخيول التي استُخدِمت في النقل وجر العربات والحروب، والحمير التي كانت تُستخدَم لنقل البضائع داخل المراكز التجارية في الأناضول وخارجها.

٢-الصناعة:

ظهرت الكثير من الصناعات في بلاد الأناضول، من أقدمها صناعة الفخار التي تعود إلى العصر الحجري الحديث، وكانت المنتجات الفخارية بسيطة في العصر الحجري الحديث، ثم بدأت تتطوَّر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت على درجة عالية من التطور في نهاية العصر البرونزي الوسيط، الذي يمثِّل عصر الإمبراطورية الحثية. استخدم الحثيون الأواني الفخارية في أعمال الطبخ، وحفظ المواد الجافة والسائلة (زيوت ونبيذ وحبوب وأجبان وألبان).

من المنتجات الفخارية التي عرفها الحثيون جرارٌ ذات صنابير معقوفة، محمولة على قاعدة من الأسفل، وجدرانها سميكة، وهناك أوانٍ فخارية مزوَّدة بعُرَا ومقابض، منها القوارير والطاسات والأطباق. من الألوان التي طُلِيَت بها المنتجات الفخارية الحثية البني والبرتقالي، وبعضها طُلِي بلون مائل إلى الحمرة، لكن في نهاية عصر المملكة الحثية القديمة بدأت صناعة الفخار تتدهور، وفقدت جودتها من حيث التقنية والألوان والزخرفة، واستُبدِلت بها الأواني المعدنية.

اشتُهِرت بلاد الأناضول بصناعة النسيج نتيجة توفر المواد الأولية التي تحتاج إليها، مثل الكتَّان الذي زُرِع في تلك البلاد بسبب ملائمة المناخ له، وازدهار تربية الأغنام والماعز التي دخلت أصوافها وأشعارها في صناعة النسيج، وقد استخدم الحثيون مواد أخرى، مثل القطن والحرير، وكان الحرفيون يزاولون هذه الحرفة في مشاغل كانت ملحَقة بالبيوت، وكانوا يستخدمون المغزل لغزل الصوف وشعر الماعز، وتحويله إلى خيوط، واستخدموا النول لحياكة الخيوط وتحويلها إلى قماش. يتألف المغزل من عود خشبي وقرص مصنوع من المادة نفسها، وهناك مغازل مصنوعة من الطين، وكان النول يُصنع من الخشب، ومن الطين أحياناً. أظهرت المشاهد الفنية دور النساء في هذه الحرفة، ففي أغلب الأحيان كنَّ يمشِّطن الصوف وينظِّفنه ويغزلنه ويحكنه، من المنتجات التي كانت تُصنَع في المشاغل الأقمشة المخصَّصة للملابس، والأنسجة المستخدمة في صناعة المفروشات مثل السجاد، والأقمشة المستخدمة في صناعة الخيم وساريات السفن والحقائب والحصر.

كانت بلاد الأناضول غنية بالخامات المعدنية، مما ساعد على قيام الصناعات المعدنية، ويُعدُّ النحاس من أهم المعادن هناك، وهو أقدم معدن استُخدِم في الأناضول وفي مناطق الشرق الأدنى القديم، وقد امتلكت بلاد الأناضول مخزوناً كبيراً منه، واكتُشِف فيها عدد من المناجم، مثل منجم كوزلو، ومنجم أركاني – ماردين، وقد استخدم الحثيون النحاس إلى جانب معدن القصدير، حيث خُلطا معاً، وصُهرا لإنتاج معدن البرونز، كما عرف الحثيون معادن أخرى، وتمكَّنوا من

صهرها، مثل الذهب والفضة والحديد[١]، حيث خلطوا الذهب والفضة، وأنتجوا معدناً جديداً يُسمَّى الإلكتروم.

عرفت بلاد الأناضول الصناعات الخشبية، فمن الخشب كانوا يصنعون سقوف البيوت والأثاث والأبواب والنوافذ والسفن والأدوات والمعدات الحربية، مثل العجلات والعربات التي تجرُّها الخيول، والأدوات المنزلية، مثل الملاعق والأواني وبعض الأطباق.

كما برع الحثيون في صناعة الجلود، فمن الجلد صنعوا ثياب الجنود، واستخدموه في صناعة الخوذ والدروع، والمعالف الحيوانية، وجعاب السهام، ولجام الخيول، وكسوا به العربات. وصنعوا منه أكياساً للبضائع، وحقائب جلدية للمجوهرات أيضاً.

وشاعت في بلاد الأناضول صناعة المشروبات، من أهمها النبيذ الذي كان يُصنَع من الشعير، وكانوا يضيفون إليه بعض المواد المعطِّرة، ويُعدُّ من المشروبات المفضَّلة لديهم، وكانوا يصنعون البيرة بالعسل من الشعير المحلَّى بالعسل، وكانت البيرة تُستخدَم في بعض الوصفات الطبية بإضافة بعض المواد إليها، كما صنعوا مواد غذائية أخرى، مثل الجبن والزبدة والزيوت.

٣- التجارة:

بدأت التجارة منذ زمن مبكِّر في بلاد الأناضول، وتُعدُّ بلاد الرافدين من أهم المناطق التي تاجرت معها، فمنذ الألف الخامس كانت بلاد

---

(١) مارتن، ليفي، الكيمياء والتكنولوجيا في بلاد الرافدين، ترجمة محمود فياض المياحي، جواد سلمان البدري، خليل كمال الدين، بغداد، ١٩٨٠، ص١٦.

الرافدين تستورد منها حجر الأوبسيديان، واستمرت العلاقة بين الطرفين في العصور التالية، فقد أشار أحد النصوص إلى أن شاروكين الأكادي استطاع الوصول إلى جبال طوروس في الأناضول، وحصل منها على الأخشاب التي كان يحتاجها في أعماله العمرانية، حيث يشير ذلك إلى تبادل تجاري بينهما، وكانت المنطقتان تتصلان ببعضهما بعضاً عبر شمالي سورية، أي أن البضائع التي كانت تأتي من الأناضول إلى المدن الرافدية كانت تمرُّ من شمالي سورية.

وفي مطلع الألف الثاني ق.م (٢٠٠٠ – ١٩٠٠ ق.م) حدثت تطورات تجارية في بلاد الأناضول، إذْ أنشأ الآشوريون مراكز تجارية هناك، وأُطلِق على المركز التجاري في الأكادية اسم كاروم الذي يعني: مركز التجارة في المدينة أو الميناء[١]، وقد أسهمت هذه المراكز في تنشيط حركة التجارة بين الطرفين، إذ أسهمت في نقل منتجات بلاد الأناضول إلى بلاد آشور، وكذلك نقلت المنتجات الآشورية إلى بلاد الأناضول، ومما ساعد على نجاح الآشوريين في نشاطهم التجاري توفر الأمان في تلك المنطقة، وتوطيد العلاقات مع الحكَّام المحليين، من أهم المراكز التجارية قانش (كول تبه)، وموقع علي شار، وبوغازكوي. كما جلب الآشوريون القصدير والمنسوجات إلى بلاد الأناضول، وقايضوها بالسلع المتوفرة هناك، مثل الذهب والفضة والنحاس.

خامساً– الحياة الدينية:

(١)الأحمد، سامي سعيد، المستعمرات الآشورية، سومر، العدد ٢٣، ١٩٧٧، ص٧٦.

على غرار الحضارات القديمة، أظهرت الأساطير والمشاهد الفنية الآلهة الحثية على هيئة البشر، فهي تنام وتستيقظ، وتلبس الثياب، وتأكل، وتستمع إلى الشكاوى، وترتكب الأخطاء، وعلى الرغم من إظهارها على هيئة البشر شكلاً وممارسات، إلا أنها أقوى من البشر، وأكثر حكمة منهم، وهي التي تتحكَّم بمصائرهم، وكان لكل مدينة إلهها الخاص الذي يرتبط ارتباطاً مباشراً بها، فمثلاً إله العاصفة تيشوب هو إله مدينة نيريك، وهو الإله الرئيس عند الحثيين، والإلهة عشتار كانت إلهة مدينة سموحا[١]، والإلهة إيايا عُبِدت في مدينة لابانا، وكانت للمدن الأخرى آلهتها أيضاً. إن عدد الآلهة الحثية كبير جداً، وغير معروف بدقة، لكن حسب أسماء الآلهة الواردة في النصوص المسمارية والنقوش الهيروغليفية، يُرجَّح أن العدد المعروف منها يقدَّر بـ ٦٠٠ إله.

كانت لتمثال الإله مكانة كبيرة لدى الحثيين الذين اهتموا به اهتماماً كبيراً، فهو يمثِّل محور العبادة لديهم، وكان يُودَع عادة في قاعة قدس الأقداس، وكانوا يغسلونه وينظِّفونه، ويُلبِسونه الثياب دائماً، ومن مظاهر اهتمامهم به استخدامهم بعض المواد الثمينة في صناعته، تبيَّن لنا ذلك من خلال بعض النصوص العائدة إلى تودخليا الرابع (القرن الثالث عشر)، التي ذكرت بعض تماثيل الآلهة، فقد ورد في أحد النصوص ذكر الإلهة إيايا، التي كانت تُعبَد في مدينة لابانا: تمثال واحد من الخشب يمثِّل امرأة جالسة، بارتفاع واحد شيكان(ما يُعادِل ٢٢ سم)، زُخرِف الرأس بالذهب، وجسم التمثال والعرش زُخرِف بالقصدير. وثمة

(١) الصالحي، صلاح رشيد، الصراع على السلطة في عهد المملكة الحثية القديمة، ص١.

نص آخر تناول تمثال إله الحرب زبابا: تمثال من الفضة، على شكل رجل واقف، يمسك في يده اليمنى صولجاناً، ويحمل بيده اليسرى درعاً، وفي أسفل الإله أسد، وتحت الأسد قاعدة طُعِّمت بالفضة. يكشف النصان استخدام الحثيين لمعدني الذهب والفضة في صناعة تماثيل الآلهة.

أقام الحثيون المهرجانات التي كانت تصطبغ بصبغة دينية، وكان الملك يشارك فيها، من أهمها تلك التي كانت تُنظَّم في فصل الربيع، مثل مهرجان الزغفران، ومهرجان الاستعجال[١]، والاحتفال بعيد أكيتو (الاحتفال بعيد رأس السنة الربيعية)، وخلال هذا الاحتفال يُنظَّم موكب كبير، تُحمَل فيه تماثيل الآلهة، وتُنقَل من معابدها إلى موقع مقدَّس خارج المدينة، فيشاهد المحتفلون خلال هذا الاحتفال تماثيل الآلهة، وكان المتعبِّدون، أثناء المهرجانات، يقدِّمون أعطيات للآلهة ترتبط بالموسم الذي تُقدَّم فيه، ففي موسم جني العنب تُقدَّم سلال أو أوانٍ فخارية ملأى بالعنب هبة للإله، ومن الطقوس الأخرى في المهرجانات إقامة وليمة للإله والمتعبِّدين، وتقديم الشراب نخب الآلهة، وإقامة بعض الممارسات الترفيهية، مثل سباق الجري، وسباق الخيل، وعروض المهرِّجين، والعزف على الآلات الموسيقية.

لقد اهتم الحثيون أيما اهتمام بتنفيذ الطقوس الدينية، سواء في المهرجانات أم في المعابد، فقد كانت تُقام في وقتها، ومن أسباب الاهتمام المبالَغ بها الرغبة في إرضاء الآلهة، إذ كان لدى الحثيين

(١) بيكمان، غازي، ديانة الحثيين، الحضارة الحثية، ترجمة صلاح رشيد الصالحي، بغداد، ٢٠٢١، ص ٢٧٤.

اعتقاد بأنه إذا رضيت الآلهة أطالت عمرَ الملك، ونصرته في المعارك، وزادت الإنتاج الزراعي لديهم، وإذا غضبت عاقبت الناس بإرسالها الأمراض والكوارث إليهم[١].

سادساً- اللغة والكتابة: تنتمي اللغة الحثية[٢] إلى اللغات الهندو أوربية، وهي واحدة من اللغات الأناضولية التي ظهرت في الأناضول في الألفين الثالث والثاني ق.م، من أسباب تعدد هذه اللغات تنوع بلاد الأناضول جغرافياً وسياسياً، وفقدانها للوحدة السياسية، وقد اختفت هذه اللغات في مراحل مختلفة، واستمر آخرها حتى نهاية العصر الروماني.

صُنِّفت الحثية بأنها الأهم بين اللغات الأناضولية، والأقدم في التدوين، فقد وثَّقتها نصوص الدولة الحثية القديمة (القرن السابع عشر ق.م). وكانت لغة الإمبراطورية الحثية، التي سيطرت على معظم مناطق الأناضول، وشمالي سورية، وانهارت بعد أربعة قرون من تأسيسها، وتحديداً في أواخر القرن الثالث عشر ق.م بعد تعرضها لغزوات شعوب البحر.

مرَّت اللغة الحثية بمرحلتين، الأولى هي مرحلة الحثية القديمة، التي امتدت من القرن السابع عشر إلى القرن الخامس عشر، ولم يُعثَر إلا على عدد قليل من النصوص التي تُوثِّقها. وأما المرحلة الثانية فهي مرحلة الحثية القديمة أو الكلاسيكية، التي امتدت من القرن الخامس عشر إلى القرن الثالث عشر، وكُشِف عن كثير من الرُّقم المدوَّنة بها،

---

(١) بيكمان، غازي، المرجع السابق، ص٧.

(٢) لمزيد من المعلومات عن الحثية واللغات الأناضولية الأخرى انظر: الزين، محمد، الموسوعة العربية، المجلد الثالث، ص٧٠٤.

مثل رُقم أرشيف خاتوشا، والرُّقم الحثية المكتشفة في أوجاريت، وإيمار، وألالاخ. تضمُّ هذه الرُّقم نصوصاً دينية واقتصادية وقانونية وأسطورية ومعاهدات ومراسلات دبلوماسية.

دوَّنَ الحثيون لغتهم بالكتابة المسمارية، وتحديداً بالنمط الذي كان شائعاً في ألالاخ وأوجاريت وقطنة، ويُعتقد أنهم تأثروا به في عهد الملك حاتوشيلي في النصف الثاني من القرن السابع عشر ق.م، وقد استخدموا في نقوشهم وتماثيلهم كتابة تصويرية تُعرَف بالهيروغليفية، اختفت بعد سقوط مملكتهم، وظهرت من جديد في الألف الأول ق.م.

الفصل السادس

الحضارة الإيرانيـــــة (الفارسية)

أولاً: بلاد فارس جغرافياً [1]، وبدايات الاستقرار الأولى:

نشأت الحضارة الإيرانية (الفارسية) وترعرعت في المنطقة الممتدة من بلاد الرافدين وهضبة الأناضول في الغرب، إلى جبال خراسان في الشرق، ومن جبال البرز في الشمال حتى جبال مكران في الجنوب، حيث تُحيط بها الجبال من جهاتها الأربع تقريباً، وهي هضبة طبيعية يتوسَّطها منخفض يتكوَّن من منطقة صحراوية وسلاسل متتابعة تخترقها الوديان، وتسيل منها بعض الأنهار التي تتجه إما إلى البحار، وإما إلى الداخل، حيث تتكوَّن بحيرات ومستنقعات. أما حدودها السياسية فتمتد من أفغانستان وباكستان في الشرق، حتى العراق وتركيا في الغرب، ومن أرمينيا وأذربيجان وتركمانستان وبحر قزوين في الشمال، حتى الخليج العربي الذي كان منفذاً بحرياً يصلها بالهند في الجنوب.

كانت الجبال المحيطة بالهضبة الإيرانية مكسوة بغابات السنديان والبلوط، وكانت أمطارها غزيرة، وتنبت في وديانها أنواع مختلفة من الأشجار المثمرة والنباتات التي كان يجمعها الإنسان الأول ويتغذَّى عليها، والذي اتخذ من الكهوف والمغاور الطبيعية مسكناً له، وكانت تكثر فيها أنواع مختلفة من الحيوانات التي كان يصطادها ويأكل

---

(١) فرعون، محمود، العلان، أرواد، دراسات في تاريخ فارس وحضارتها حتى الفتح العربي، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١١-٢٠١٢، ص١٦.

لحومها.

من أهم هذه الكهوف والمُغُر تلك المكتشَفة في جبال بختياري عام ١٩٤٩ قرب خراسان، حيث مارس الإنسان حياة القنص وجمع الثمار سعياً وراء الغذاء، معتمِداً في معيشته على أدوات، مثل المطرقة والبلطة المصنوعة من الحجارة وعظام الحيوانات.

مع مرور الوقت بدأ السكان ينحدرون إلى سفوح الجبال ووديان الأنهار، حيث مارسوا بعض أنواع الزراعة، وبنوا الأكواخ من أغصان الأشجار المغطَّاة بالطين للسكن، فكانت تلك بدايات الاستقرار التي نجم عنها تأسيس أولى القرى، التي ما لبثت أن اتسعت في العصر الحجري الحديث، وازداد عددها، وتطوَّرت الزراعة وصناعة الأواني الفخارية الملوَّنة فيها، وبدأت تظهر أولى الأدوات النحاسية والحلي من الأحجار الكريمة، من أشهر مراكز تلك الحضارة موقع سيالك قرب مدينة كاشان وسط إيران.

ثانياً: تاريخ بلاد فارس:

تُعدُّ المملكة العيلامية[١] التي نشأت في القسم الجنوبي الغربي المُطلّ على الخليج العربي أقدم الممالك التي نشأت في إيران وأشهرها، وليس ثمة دليل على وجود أية صلة لهذه المملكة بالشعوب الإيرانية التي تنتسب إلى مجموعة الشعوب الهندو أوروبية أو الآرية، حيث كانت تعيش في السهوب الواسعة جنوب روسيا، وقدمت إلى المنطقة بوصفها

---

(١) بيرنيا، حسن، تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العصر الساساني، تر: محمد نور الدين عبد المنعم محمد السباعي، الطبعة الثانية، دار الثقافة، الفجالة، مصر، ١٩٩٢، ص٣٨ وما بعدها.

مجموعات قبلية متنقِّلة تمكَّنت خلال الألف الأول قبل الميلاد والقرون الستة الأولى الميلادية من تأسيس أشهر الممالك والإمبراطوريات الإيرانية، فمنذ أواخر الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد بدأت الشعوب الهندو أوروبية تغزو الهضبة الإيرانية، واستقرت في منطقة الهضاب ما بين بحر قزوين والخليج العربي، واختلط القادمون الجدد مع السكان الذين سبقوهم، وكوَّنوا شعبين، هما الميديون والفرس.

استقر الميديون(١) في القسم الشمالي والشمالي الغربي من الهضبة الإيرانية، وانتشروا جنوباً حتى أطراف صحراء إيران الوسطى، وسُمِّيت المنطقة التي استقروا فيها ماد أو ميديا، وكانت أهم مدنهم أكباتان (همذان الحالية) التي غدت عاصمة لهم.

عاش الميديون حياة قبلية، وكانوا هدفاً لغارات الآشوريين والأورارتيين(٢)، الذين توغَّلوا في أراضيهم وفرضوا نفوذهم على بعض قبائلهم، ولم يكوِّنوا دولة إلا في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، عندما

---

(١) فرعون، محمود، العلان، أرواد، المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٢) قامت مملكة أورارتو في منطقة الهضبة الأرمنية إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين، وامتدت إلى المنطقة الواقعة بين بحيرتي أورميا ووان، عُرفت في النصوص المسمارية القديمة باسم بلاد نائيري، وقد دخلت هذه المملكة في نزاع مع الدولة الآشورية الحديثة بسبب سعيها للتوسع في المناطق الشمالية من بلاد الرافدين وسورية، بهدف حرمان الآشوريين من الحصول على المواد الأولية، والسيطرة على الطرق التجارية المارة من جنوب شرق الأناضول وشمال بلاد الرافدين وسورية. للمزيد انظر:

Bryce T. R, The Routledge Handbook of the Peoples and Places of Ancient Western Asia, Abingdon: Routledge, 2009, p:747-752.

استطاع ملكهم ديوكيس أن يُوحِّد القبائل الميدية تحت سلطته.

تحالف فيما بعد ابنه كشاتريتا، الذي تولَّى الحكم بعد وفاة أبيه، مع القبائل الآرية والكميريين والمانايين والسكيث ضد الآشوريين، لكن تفكَّك هذا التحالف، وهُزِموا جميعاً أمام الآشوريين، وانقلب عليهم السكيث، وفرضوا سيادتهم على ميديا قرابة ٦٥٠ ق.م.

ثم تولَّى كيخسرو زعامة القبائل الميدية بعد هزيمة والده، واستطاع سنة ٦٢٥ ق.م أن ينتصر على السكيث، ويُخضع القبائل الفارسية لسلطته، ويتحالف مع الكلدانيين، حيث أسهم هذا التحالف في القضاء على الإمبراطورية الآشورية الحديثة، واحتلال العاصمة نينوى، وتدميرها في عام ٦١٢ق.م.

تقاسم الميديون والكلدانيون أراضي الإمبراطورية الآشورية، فسيطر الميديون على شمالي وشمال شرقي بلاد الرافدين، وضمُّوا مملكة أورارتو إلى مملكتهم، وتوسَّعوا باتجاه الغرب حتى وصلوا إلى نهر هاليس في الأناضول.

دخلت ميديا مرحلة من الضعف بعد وفاة ملكها كيخسروا، مما دفع أمير مملكة فارس –الواقعة في جنوبي غربي إيران على شواطئ الخليج العربي– قورش الثاني إلى التحالف مع نابونيد ملك بابل من أجل القضاء على مملكتهم، بعد الانتصار عليهم في المعركة التي جرت بينهما قرب بازر كاده عام ٥٥٠ ق.م، وقد دخل قورش الثاني العاصمة أكباتان معلناً نهاية المملكة الميدية، وبداية مرحلة جديدة تمثَّلت بانتقال السيادة إلى الفرس الإخمينيين[١].

---

(١) فرعون، محمود، العلان، أرواد، المرجع السابق، ص١١٥وما بعد.

بعد انتصار قورش على الميديين، بدأ سلسلة من الحملات العسكرية لتوسيع مملكته، حيث أصبح اسم إقليم بلاد فارس يُطلَق على بلاد إيران الحالية كلها.

اتبع الفرس في عهد قورش سياسة توسعية، فاستولوا على مملكة ليديا الواقعة على السواحل الغربية لآسيا الصغرى عام ٥٤٦ ق.م، وأخضعوا المناطق الواقعة إلى الشرق من إيران حتى نهر السند، واحتلُّوا بابل عام ٥٣٩ ق.م، ثم قُتِل قورش الثاني في إحدى حملاته التي قادها في الشمال الشرقي ضد قبائل السكيث والماساجيت عام ٥٢٩ ق.م، فخلفه في الحكم ابنه الكبير قمبيز، الذي تمكَّنت فارس في عهده من إخضاع مصر لسيادتها عام٥٢٥ ق.م [١].

بلغت المملكة الفارسية أوج قوتها واتساعها في عهد الملك دارا الأول (داريوس بالإغريقية)، الذي لُقِّب بالملك العظيم، امتدت مملكته من الحدود الليبية في شمال إفريقيا غرباً، والساحل الإيجي حتى نهر الهندوس شرقاً، ومن البحر الأسود وبحر قزوين في الشمال حتى المحيط الهندي في الجنوب، بدأت مرحلة حكمه بالقضاء على الثورات والتمردات التي شهدتها الإمبراطورية في أعقاب وفاة الملك قمبيز، وقد خلَّد انتصاراته على المتمرِّدين في نقش على صخور بيهستون[٢] Bhistun، كُتِب بثلاث لغات هي: الفارسية القديمة، والعيلامية الحديثة (المتأخِّرة)، والبابلية الحديثة.

---

(١) فرعون، محمود، العلان، أرواد، المرجع السابق، ص١١٩.

(٢) فيزهوفر، يزف، فارس القديمة ٥٥٠ق.م-٦٥٠م: التاريخ- الحضارة- العبادات- الإدارة- المجتمع- الاقتصاد- الجيش، تر: محمد جديد، قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩، ص وما بعد٢٩.

حاول إخضاع الدويلات اليونانية، لكن جيشه مُنِي بهزيمة أمام جيش أثينا في معركة ماراثون عام ٤٩٠ ق.م، ولم يتمكَّن من معاودة هجومه لانشغاله بإخماد الثورات التي نشبت في مصر، ثم كانت وفاته عام ٤٨٦ ق.م.

استمرت الإمبراطورية الفارسية الأخمينية حتى قضى عليها الإسكندر المقدوني بعد الانتصار على آخر ملوكها داريوس الثالث في معارك إسوس ٣٣٣ ق.م، وجاوجميلا ٣٣٠ ق.م.

بعد ذلك خضعت الهضبة الإيرانية لنفوذ الإسكندر المقدوني، ومن بعده للسلوقيين[١]، الذين استمروا حتى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، حيث تخلَّص الفرثيون[٢]، وهم أحد الشعوب الإيرانية القديمة التي كانت تُقيم في إقليم فرثيا (خراسان)، من السيطرة السلوقية، وأقاموا حكماً محلياً بزعامة أرشاك زعيم إحدى قبائلهم، الذي أسَّس سلالة ملكية حاكمة عُرِفت باسم الإرشاكية حكمت إيران ما يقارب خمسة قرون (٢٤٩ق.م –٢٢٤م)، امتدت من نهر السند في الشرق حتى نهر الفرات في الغرب، ومن نهر أوكسوس في الشمال حتى المحيط الهندي في الجنوب، وقد انتقلت العاصمة الفرثية من هيكاتومبيلوس إلى أكباتان

---

(١) للمزيد عن الإسكندر وحملته نحو الشرق انظر: سارة، خليل، تاريخ الوطن العربي في العصور الكلاسيكية، دمشق، ٢٠٠٨، ص٤٣ وما بعد.

أو العابد، مفيد، سورية في عصر السلوقيين، دار شمأل، دمشق، ١٩٩٣، ص١٧ وما بعد.

(٢) للمزيد عن الفرثيين: انظر العلان، أرواد، المملكة الفرثية (الإيرانية) منذ القرن الأول قبل الميلاد حتى نهاية القرن الثاني الميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، دمشق، ٢٠٠٨، ص٢٤ وما بعدها.

(همذان)، ومن بعدها إلى طيسفون (المدائن) قرب بابل.

خاضت المملكة الفرثية حروباً كثيرة مع روما، ولاسيما في القرنين الأول والثاني الميلاديين، بهدف السيطرة على مناطق النفوذ، وأصبح نهر الفرات الحد الفاصل بين الدولتين.

استمرت الإمبراطورية الفرثية حتى عام ٢٢٤ م، حيث ظهرت أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة الساسانية[١]، وبدأ معها عهد جديد في تاريخ إيران وتاريخ الشرق، تنتسب هذه الأسرة إلى ساسان كاهن الإلهة أناهيتا، إلهة الخصب والمطر والرياح، وقد تمكَّن ابنه بابك من إقامة إمارة له مستقلة عن الفرثيين في إقليم فارس في جنوب غربي إيران، ثم تمكَّن حفيد بابك من هزيمة الفرثيين في معركة هرمز، ودخول العاصمة طيسفون، وإعلان نفسه ملكاً عليها معلناً بذلك بدء عهد الدولة الساسانية.

ثالثاً: نظام الحكم والإدارة:

حكم مملكة ميديا أمراء تمتَّعوا بثروات كبيرة، إذ كان الأمير يعيش في الحصن مع حاشيته المؤلَّفة من النبلاء والفرسان ورجال جيشه، وكانت مملكة ميديا تتألَّف من الإمارات والزعامات الصغيرة، وترتبط فيما بينها بروابط إقطاعية[٢].

كان نظام الحكم[٣] في الإمبراطورية الفارسية ملكياً وراثياً، فالملك رأس

---

(١) للمزيد عن الدولة الساسانية وتأسيسها انظر: العابد، مفيد رائف محمود، معالم تاريخ الدولة الساسانية: عصر الأكاسرة ٢٢٦-٦٥١م، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩، ص ٣٩ وما بعد.

(٢) فرعون، محمود، العلان، أرواد، المرجع السابق، ص١١٣.

(٣) فيزهوفر، يزف، المرجع السابق، ص٥٤ وما بعد.

الدولة يتمتَّع بصلاحيات واسعة، وله الكلمة الأولى والأخيرة في أمور المملكة كلها، ولا يحقُّ لأحد مراقبته ومحاسبته، يجمع بيده السلطات كلها، ويمارس سلطة استبدادية مركزية، ويصل إلى العرش عن طريق الوراثة، وأحياناً عن طريق القوة مستخدماً طريقة الاغتصاب والدسائس، يساعده أكبر موظَّفيه الذي يقود، في الوقت نفسه، الحرس الملكي، وهو بمنزلة الوزير الأكبر، وكذلك يساعده مجلس استشاري مؤلَّف من النبلاء والأعيان، يقوم بإسداء المشورة له ومساعدته في الحكم، ويُعدُّ الملك القاضي الأعلى، ينوب عنه في تسيير الأمور القضائية أحد العلماء الشيوخ، وهناك محكمة عليا مؤلَّفة من سبعة قضاة، أما في الولايات فهناك محاكم محلية مهمتها النظر في القضايا والدعاوى المعروضة.

حمل الملك ألقاباً مثل الملك المحارب، وهذا يدلُّ على الصبغة العسكرية للإمبراطورية، وكذلك الملك العظيم الذي يستمدُّ سلطته من الإله آهورا مزدا، ومما تجدر الإشارة إليه أن الملك الفارسي لم يؤلِّه نفسه، لكنه ادَّعى أن الآلهة تقدمّ المساعدة له.

كانت أوامر الملك مقدَّسة، لأنها مستمدَّة من الإرادة الإلهية، ومن ثمَّ لا يجوز الخروج عليها، لأن ذلك يُعدُّ خروجاً على تلك الإرادة.

تولَّت حراسة الملك فرقة من الحرس الملكي ضمَّت عشرة آلاف جندي، يُسمَّون فرقة الخالدين، لأن عددهم ثابت، إذ كلما مات أحدهم أو قُتِل، عُيِّن حارس جديد مكانه مباشرة.

قُسِّمت الإمبراطورية إلى ولايات (سترابة أو مرزبة)، تراوح عددها بين عشرين واثنتين وعشرين ولاية، ما عدا ولاية فارس التي كانت تمثِّل ولاية مستقلة لأنها موطن الأسرة الحاكمة، وقد عيَّن الملك على كل ولاية

حاكماً يُلقَّب بالستراب أو بالمرزبان[١]، يمثِّل الملك العظيم، وغالباً ما يكون من العائلة الحاكمة، ويتمتَّع في ولايته بسلطات مهمة لا تقلُّ عن سلطة الملك، ويُصدِر القوانين المحلية، وهو مسؤول عن حفظ الأمن والنظام والشؤون العسكرية، وعن جباية الضرائب المقرَّرة على كل ولاية.

وقد عيَّن الملك في الولايات موظَّفين مرتبطين به مباشرة، مهمتهم مراقبة تنفيذ القوانين والأوامر الملكية في الولايات، ترافقهم قوة عسكرية، وهم بمنزلة عيون للملك في الولاية يزوِّدونه بتقارير دورية عن أحوال الولاية.

اهتمَّ ملوك الفرس بشبكة الطرق بين الولايات، ونظَّموا البريد لأسباب سياسية واقتصادية وحربية.

أما فيما يتعلق بالدولة الفرثية فقد شغل الملك المركز الأول في الدولة، وتمتَّع بسلطات إدارية وقضائية كبيرة، وحمل ألقاباً كثيرة، منها الملك الكبير، وملك الملوك، ونُقِش هذا اللقب على المسكوكات الفرثية، ومن الألقاب ملك الآريين، وأخو الشمس والقمر، والملك العادل، والرحيم، والمحسن[٢].

وكانت إلى جانب الإمبراطور طبقة من الأمراء والنبلاء تتمتَّع بنفوذ واسع.

لم يختلف الأمر كثيراً في العصر الساساني، فقد كان الملك هو الرئيس الفعلي لإدارة الدولة، يرأس جميع مكاتب (دواوين) إدارة الدولة، وكانت له أختام تُمهَر فيها كتبه إلى هذه الدواوين، منها خاتم السّر،

---

(١) فخري، أحمد، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، مصر، ١٩٩٠، ص٢٢٦.

(٢) فرعون، محمود، العلان، أرواد، المرجع السابق، ١٧٢-١٧٣.

وخاتم الخراج، وخاتم الرسّل، وخاتم السجلات والوثائق، ولكل خاتم ديوانه الخاص.

ضمَّت حاشية الملك عدداً من القادة الذين يتبعون الملك مباشرة، منهم رئيس الديوان الملكي، ورئيس الحرس الملكي، ورئيس المراسم والتشريفات، ورئيس المستودعات، ورئيس الذوَّاقين، ورئيس الساقين، ورئيس الاصطبلات، وكبير البوابين(١).

أما فيما يتعلَّق بالأقاليم وإدارتها في العصر الساساني، فقد حمل حاكم الإقليم لقب مرزبان أو ساتراب، ومهمته تمثيل الملك في الإقليم، وكان يتم اختيار هؤلاء الحكام من نبلاء الحاشية الملكية، كي يرأسوا في ولاياتهم مجموعة من كبار الموظَّفين العسكريين والماليين والإداريين في عاصمة الساترابية، والذين يرأسون بدورهم مجموعة من الموظَّفين الأصغر منهم في العواصم الصغرى التي تنقسم إليها الولاية، والتي يُطلَق عليها اسم أستان، والتي تنقسم بدورها إلى وحدات إدارية أصغر تحمل اسم كورة أو شهر، وعاصمتها شهرستان، تُشرِف على شؤون مجموعة من القرى الصغيرة هي أصغر الوحدات الإدارية في التقسيم الإقليمي الساساني(٢).

رابعاً: الحياة الاقتصادية:

١- الزراعة:

عرف الميديون الزراعة، وعملوا بها، وربُّوا الخيول، وامتلكوا ثروات كبيرة كان أهم مصادرها جمع المواد الأولية من مناجم النحاس والحديد

---

(١) العابد، مفيد رائف محمود، معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص ٩٣-٩٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٩٩.

وحجر اللازورد.

بدا اهتمام الفرس بالجانب الاقتصادي واضحاً نتيجة اتساع حدود الإمبراطورية، حيث شقُّوا الطرق وقنوات الري، وزرعوا المحاصيل والأشجار المثمرة، وازدهرت الحرف في الولايات، وانتعشت التجارة.

قُسِّمت الأراضي إلى قسمين:

١- أملاك خاصة يقوم أصحابها بزراعتها، وأحيانا يكوِّنون جماعات زراعية تعاونية تضمّ عدة أسر تتشارك في زراعة الأرض.

٢- أملاك إقطاعية تخصُّ النبلاء والأشراف، يقوم بزراعتها المستأجَرون أو الرقيق والأجانب مقابل حصولهم على جزء صغير من إنتاجها.

يُعدُّ القمح والشعير من أهم المحاصيل الزراعية، وقد أخذوا زراعة الرز عن الهنود بعد احتلالهم لأجزاء من بلادهم، وأخذوا زراعة البرسيم عن الإغريق بعد غزوهم اليونان عام ٤٩٠ ق.م، ومن أجل مضاعفة مستوى الإنتاج من هذه المحاصيل، اعتمد الفرس على الري الاصطناعي عن طريق استخدام المياه الجوفية، التي كانوا يستجرُّونها في قنوات طويلة تحت الأرض مستفيدين من الانحدارات الطبيعية في تضاريس الأرض، إلى حقولهم[١].

وفي العصر الفرثي بدا الاهتمام بالزراعة واضحاً، حيث اشتُهِرت لديهم الزراعة البعلية (زراعة القمح والشعير)، والزراعة المروية (زراعة الرز والخضراوات)، كذلك اهتموا بالثروة الحيوانية، حيث ربُّوا الماعز والأغنام والخيول والجمال.

---

(١) فيزهوفر، يزف، المرجع السابق، ص١٠٤.

أما في العصر الساساني فقد سيطرت الدولة الساسانية على مناطق وأقاليم واسعة تتمتَّع بمقومات اقتصادية زراعية متنوعة، وقد مثَّلت الزراعة عصب الحياة الاقتصادية في العصر الساساني، حيث عيَّن الملك وزيراً مسؤولاً عن هذا القطاع عُرِف باسم رئيس الزراع، ومن أهم الزراعات الحبوب بأنواعها (قمح وشعير وشوفان)، وبعض أنواع الخضراوات، كما ربَّى الساسانيون الحيوانات الداجنة، مثل الأبقار والجمال والجواميس والغنم والماعز وبعض أنواع الطيور[١].

٢- الحرف والصناعات اليدوية:

ارتبطت الحرف والصناعات اليدوية بتراث إيران القديم وتقاليده من جهة، وبالزراعة التي أمدت الصناعة بعدد كبير من موادها الأولية من جهة ثانية، كما اعتمد الفرس على الشعوب والأمم التي حكموها في الحصول على المنتجات الصناعية، فشجَّعوا مراكزها في المدن السورية، وآسيا الصغرى، وبلاد الرافدين.

كذلك ازدهرت الحرف لديهم، حيث عرفوا حرفة التعدين، فصنعوا الأسلحة والأواني المنزلية والجواهر النادرة من ذهب وفضة، ومن الحرف الأخرى التي عرفوها أيضاً الحرف الغذائية والنسيجية، وصناعة الزجاج، والخزف الملوَّن، والأدوات الزراعية، كما صنعوا الأواني الفخارية في ورش خاصة بها، وتنوَّعت أشكالها عندهم، فكان هناك الفخار الأحمر، والفخار الممزوج بالرمل وبعض القش، وغير ذلك[٢].

٣- التجارة:

---

(١) العابد، مفيد رائف محمود، معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص١٢٣-١٢٤.

(٢) المرجع نفسه، ص١٢٥.

ازدهرت التجارة، ولاسيما بعد أن ساد الأمن والسلام في أرجاء الإمبراطورية الفارسية من جهة، وزاد اهتمام الملوك الفرس بالبريد، وفتح الطرق وتعبيدها وحمايتها لأسباب حربية واقتصادية من جهة أخرى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الفرس كانوا يحتقرون التجارة، ويرون الأسواق بؤرة للكذب والخداع، فتركوها لغيرهم من الشعوب، مثل البابليين والفينيقيين والآراميين.

وقد قام الملك داريوس بسك نقد ذهبي موحَّد سُمِّي الداريق، وأرسل بعثات استكشافية إلى الهند وجنوبي إيطاليا، مما فتح أمام التجار أسواقاً جديدة، كذلك أمر بمتابعة العمل بشق قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق نهر النيل، بعد أن أُوقِف العمل بها في عهد الفرعون المصري نيخو الثاني.

وقد شجَّع ازدهار الزراعة والحرف على نمو التجارة، التي مثَّلت مصدراً مهماً من مصادر الدخل للشعب الفرثي، وقد ساعد على ذلك موقع الإمبراطورية بين روما في الغرب، والهند والصين في الشرق.

كما سُكَّت النقود الفرثية التي عُرِفت بالدراخما، فكانت هناك نقود ذهبية وفضية ونحاسية[1]، وصُنِعت الميداليات من الذهب والفضة.

وفي العصر الساساني توفَّرت للتجارة الإيرانية مقوِّمات القوة، مما جعلها تجارة عالمية في ذلك العصر، فقد سلكت التجارة البرية عدداً من طرق القوافل القديمة التي تنطلق من العاصمة المدائن (طيسفون) باتجاه دجلة في الشمال الشرقي، حتى مدينة همذان، وتفرَّع عن هذا الطريق طريق جنوبي يخترق خوزستان وفارس إلى مدن الخليج العربي، أما

(١) بيرنيا، حسن، المرجع السابق، ص٢١٧.

التجارة البحرية فقد أُنشِئت الموانئ وأسطول قوي بهدف تشجيع التجارة مع الشرق، حيث كانت السفن التجارية عماد الأساطيل الحربية في دول العالم القديم وممالكه [١].

خامساً: الحياة الدينية:

١- الآلهة:

قدَّس الإيرانيون القدماء في بداية تاريخهم، مثلهم مثل غيرهم من شعوب الشرق القديم، آلهة الطبيعة المختلفة، مثل الشمس (ميثرا)، والأرض (أناهيتا)، والقمر والماء والرياح والمطر، وغيرها من الآلهة التي تساعدهم في أعمالهم الزراعية، كما قدَّسوا الثور (هوما)، الذي وهب، حسب اعتقادهم، الجنس البشري دمه شراباً ليُسبِغ عليه نعمة الخلود، وانبثقت من جسده النباتات والحيوانات كلها المفيدة للبشرية [٢].

مع مرور الوقت غدت النار عندهم مقدَّسة أكثر من العناصر الأخرى، فكانوا يصلُّون لأجلها، ويقدِّمون القرابين في أماكن مقدَّسة في العراء أو في بيوت النار، أو يقومون بحراسة النار والمحافظة على دوام اشتعالها في كل بيت تقريباً، وكان الكهنة هم الذين يديرون طقوس عبادة النار وتقديم الأضاحي، وكانوا يعبدون الشمس ويقدِّسونها أكثر من أي معبود آخر، لأنها تُعدُّ مركز النور للإنسان والحيوان، ويعتقدون أن حرارتها تطهِّر الإنسان من دنس الخطيئة.

على الرغم من ظهور الديانة الزرادشتية وانتشارها الواسع فيما بعد، إلا أن عبادة الآلهة الأخرى عادت للظهور من جديد، مثل ميثرا وأناهيتا،

---

(١) العابد، مفيد رائف محمود، معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص١٢٥ وما بعد.

(٢) فرعون، محمود، العلان، أرواد، المرجع السابق، ص١٣٤ وما بعد.

وصُوِّرت بصور إنسانية في التماثيل، واستمرت عبادة قوى الطبيعة، وعُبِدت النار، وقدِّمت القرابين لها.

٢- الديانة الزرادشتية[١]:

هي دين المصلح زرادشت Zoroaster، الذي دعا إليه في شمال غربي إيران، وُلِد زرادشت في إحدى مدن إقليم ميديا وسط إيران في أواسط القرن السابع قبل الميلاد، وعاش معظم حياته في إقليم ميديا، وقيل: إنه عندما بلغ سن الرشد استقبل الوحي من أهورامزدا (سيد الحكمة)، وتبعته في البداية مجموعة من الأقرباء والأصدقاء، ثم وجد سنداً له في ملك مقاطعة خوراسميا (حالياً غربي تركستان)[٢].

زادت قوة الإمبراطورية الفارسية الأخمينية مع ظهور الديانة الزرادشتية وتعاليمها التي نادى بها زرادشت المعروف بالفارسية القديمة باسم زراتوسترا، حيث اكتسبت هذه الديانة قوة كبيرة باعتناق الإمبراطور الفارسي داريوس الأول لها، وجعلها دين الدولة الرسمي، ليدعم بها وحدة إمبراطوريته الواسعة.

استنكر زرادشت عبادة الآلهة القديمة وتقديم القرابين والأدعية والأناشيد لها، ودعا إلى عبادة إله واحد هو أهورامزدا إله الحق والخير والنور والعدالة، وخالق السماء والأرض والناس وكل شيء، ورأى زرادشت أنه ثمة صراع بين الخير الذي يمثِّله أهورامزدا، وبين الشر الذي يمثِّله إهريمان الشرير، وهما يتصارعان منذ الأزل وإلى الأبد وفي كل مجال، وللإنسان الحرية في مساعدة أي منهما، فمن يريد أن يقف إلى جانب الحق والعدل والمثل العليا فله ذلك، ومن يريد أن يقف إلى

---

(١) العابد، مفيد رائف محمود، المرجع نفسه، ص١٠٤ وما بعد.

(٢) مرعي، عيد، معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم، ص٢٨٠.

جانب النفاق والخداع فلن يمنعه أحد، لكن كي يفوز الإنسان بالسعادة الأبدية عليه أن يُحارِب الشر والنفاق، فالجهاد من أجل الحق والخير هو جوهر العبادة.

جمع زرادشت تعاليمه في كتاب سُمِّي فيما بعد الأفيستا Avesta. وأُطلِق على أتباعه اسم المجوس، وكانت الصلوات تقام في البيوت، وفي أماكن مخصَّصة للعبادة في الهواء الطلق، ومزوَّدة بمواقد النار المقدَّسة التي تمثِّل الرمز الأساسي للزرداشتية.

ولما كانت النار مقدَّسة، فقد وجب على كل أسرة أن تُبقِي نارها متقدة، لأن انطفاءها نذير شؤم، يُنذر بالبؤس وهلاك الأسرة.

وقد كتب الشهرستاني في كتابه: "الملل والنحل" عن الديانة الزرادشتية: "أولئك هم أصحاب زرادشت بن يورشب الذي ظهر في زمان كشتاسب بن الهراسب الملك، وأبوه كان من أذربيجان، وأمه من الري واسمها دغدوية ...، وكان دينه عبادة الله، والكفر بالشيطان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الخبائث...، وقال: النور والظلمة أصلان متضادان، وكذلك أهورامزدا وأهريمان، وهما مبدأ موجودات العالم، وحصلت التراكيب من امتزاجهما، وحدثت الصور من التراكيب المختلفة..."(١).

اعتقد أتباع زرادشت أن الروح تطوف بالسماء لمدة ثلاثة أيام بعد الوفاة، قبل أن تنتقل إلى العالم الآخر، وآمنوا بالحساب والثواب والعقاب، فمصير الإنسان الصالح التقي النعيم والخلود إلى جانب زرادشت، أما مصير الإنسان الطالح النار خالداً فيها إلى جانب

---

(١) الشهرستاني، أبو الفتح محمد من عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، صيدا– بيروت، ٢٠٠٣، ص ٢٠٠.

الشياطين.

شجَّعت الزرادشتية على الاهتمام بالزراعة، وحرَّمت قتل الحيوانات المفيدة للإنسان، ووضعت الثور في مرتبة مقدَّسة، وقالت: إن الإله أهورامزدا خلق الإنسان والثور في وقت واحد[١].

أهم أعياد الزرادشتيين عيد النيروز (الربيع)، الذي يرمز إلى تجدد الحياة والخصوبة، ويُحتَفَل به في الواحد والعشرين من آذار في كل عام.

وما يزال بعض أتباع الزرادشتية إلى يومنا هذا، يعيشون في مدن طهران وكرمان ويزد، ويُقدَّر عددهم بمئتي ألف.

استمرت الزرادشتية في العصر الفرثي، واستمرت الطقوس المرتبطة بها، وأُقيمت معابد خاصة بهذه الديانة، منها معبد عُثِر على بقاياه في سلوقية دجلة، ومعبد دورا أوروبوس.

وقد شهد العصر الفرثي تسامحاً دينياً، فقد انتشرت إلى جانب الزرادشتية ديانات أخرى، مثل البوذية والمسيحية واليهودية.

٣- الديانة المانوية:

شهد عهد الدولة الساسانية ظهور ديانة جديدة هي الديانة المانوية، التي سُمِّيت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسِّسها ماني Mani (٢١٦-٢٧٦م)، الذي ينحدر من أسرة عريقة، وعُرِف باطلاعه على العقائد والمعارف الرافدية القديمة والهندية، وتأثَّر بها، وأسَّس ديناً جديداً يضمُّ مزيجاً من تعاليم الديانة الزرادشتية والبوذية والمسيحية، تقوم الديانة المانوية على تقسيم الكون إلى مملكتين، الأولى مملكة الخير أو النور (الله)، والثانية مملكة الشر والظلم (الشيطان).

---

(١) مرعي، عيد، معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم، ص٢٨١.

يرأس قسم النور (العظيم الأول)، ويتجلَّى في خمسة مظاهر معنوية هي: العلم والحلم والعقل والغيب والفطنة، أما قسم الظلام فيرأسه (الشيطان) الذي يتجلَّى في خمسة مظاهر مادية هي: الضباب والحريق والسموم والسم والظلمة.

حرَّمت المانوية كل ما من شأنه إثارة الشهوات الجسدية، وكذلك تناول اللحم، لأنه من عمل الشيطان، كما حرَّمت قتل الحيوانات.

جمع أتباع ماني تراثه وأثره وعقيدته بعد موته في كتاب بعنوان (الكفلايا)، الذي تأثَّرت به معظم الشعوب المجاورة، وقد حاول ماني أن ينشر ديناً لجميع بني البشر، وحاول أن يُطابِق بين معظم المعتقدات والمصطلحات والآراء المعاصرة باستثناء اليهودية التي رفضها، فكانت ديانته مزيجاً من الزرادشتية بأساطيرها وأسماء آلهتها، والنصرانية برمزيتها وملائكتها، والبوذية الهندية بنظرية تناسخها، والإغريقية بتقسيماتها الاجتماعية[1].

سادساً: اللغة والكتابة:

استخدم الفرس الأخمينيون لغات وكتابات عدة في إمبراطورتيهم، فكانت البداية باستعمال الكتابة المسمارية التي اقتبسوها من البابليين، وكتبوا بها لغتهم الفارسية، لكن عدَّلوا العلامات المسمارية الصعبة، وبسَّطوا مقاطعها، وجعلوها ٣٦ رمزاً، بعد أن كانت ٣٠٠ رمز، وجعلوها حروفاً هجائية مسمارية يمثِّل كل رمز حرفاً واحداً بعد أن كان يؤلِّف مقطعاً كاملاً عند البابليين.

كذلك استعملوا إلى جانب اللغة الفارسية اللغتين الأكادية والآرامية،

---

(١) العابد، مفيد رائف محمود، معالم تاريخ الدولة الساسانية، ص١١٣.

وقد أصبحت الأخيرة اللغة الرسمية في ولايات الإمبراطورية الغربية، حيث دُوِّنت بها الوثائق والمراسلات المختلفة، كما استخدموا أيضاً اللهجة البابلية المتأخِّرة، واللغة العيلامية الحديثة، يظهر ذلك في نقش داريوس الأول على صخرة بهيستون، الذي أمر بإقامته على الطريق التجاري القديم الواصل بين بابل في بلاد الرافدين، وإكباتان في إيران في أحد ممرات جبال زاغروس، وتحدَّث فيه عن انتصاراته، والنقش مكتوب بثلاث لغات هي: "الفارسية القديمة والعيلامية والبابلية".

كانت اللغة الفارسية القديمة لغة البلاط والأسرة الحاكمة والاحتفالات والنقوش والكتابات الملكية، وهي تنتمي إلى فرع اللغات الهندو إيرانية، التي تمثِّل جزءاً من اللغات الهندو أوروبية.

يمكن القول: إن اللغات الإيرانية تطوَّرت عبر ثلاث مراحل:

١- المرحلة القديمة: تمثِّلها اللغة الفارسية القديمة والأفيستية، التي استُخدِمت في شمال شرقي بلاد فارس، وقد كُتِب باللغة الأفيستية كتاب الزرادشتية المقدَّس.

٢- المرحلة الوسطى: تمثِّلها اللغة الفرثية، أو ما يُعرَف بالفارسية الوسطى، التي عُرِفت من خلال نقوش الملوك الساسانيين الأوائل، وهناك لغات أخرى استُخدِمت عند الساسانيين، أو في المناطق المجاورة في آسيا الوسطى، مثل الخوارزمية والبكترية والصغدية.

٣- المرحلة الحديثة: تمثِّلها اللغة البهلوية، حروفها مقتَبَسة من الأبجدية الآرامية، وتتضمَّن عناصر فرثية وفارسية وسطى، وكُتِبت بخط عربي- فارسي، وقواعدها أسهل من قواعد الفارسية الوسطى، وفيها مفردات عربية كثيرة.

سابعاً: العمارة الفنون:

تطـوَّر الفـن المعمـاري فـي الإمبراطوريـة الفارسـية الأخمينيـة، وكـان مسـخَّراً بالدرجـة الأولـى لخدمـة المشـاريع الملكيـة الكبـرى، مثـل بنـاء القصور والمعابد والقبور.

لقـد اشـتُهِر الفـرس ببنـاء القصـور الملكيـة[١] الضـخمة، التـي بناهـا أباطرتهم على هضاب اصطناعية هائلة وعالية، وبطَّنوا الجدران بألواح من المرمر زُيِّنت بنقوش توضِّح صوراً من الاحتفالات الملكية الفارسية، من أشهر القصور الفارسية ما عُثِر عليه في أطلال مدينة برسيبوليس، التـي كانـت مركـز حكـم الأسـرة الأخمينيـة، ويُعتقَد أنهـا كانـت ضـاحية ملكية للعاصمة، بناها داريوس الأول على هضبة، سطحها مئة وخمسة وثلاثون ألف متر مربَّع، ترتفع عن السهل نحو أحد عشر متراً، أُقيمت فوقها مجموعـة مـن القصـور وقاعـات الاسـتقبال، وطريـق الصـعود إلـى هذه الهضبة من خلال سلَّم مزدوج مكوَّن من مئة وإحدى عشرة درجة، وثمـة علـى جانبي المدخل تماثيل لثيران ضـخمة بـرؤوس آدميـة، ومـن أكثـر القاعـات اتسـاعاً قاعـة الاسـتقبال، التـي اسـتُخدِمت فيهـا الأعمـدة الحجريـة بكثـرة لحمـل السـقف الخشـبي، وللتـأثير فـي الزائـر وإدهاشـه بضـخامة القصـور الفارسـية وفخامتهـا. مـن الابتكـارات التـي شـهدها فـن العمارة الفارسي هو الجزء الذي يعلو تاج العمود، وترتكز عليه عوارض السقف، حيث يأخذ هذا الجزء شكلاً منحوتاً على هيئة حيوانين متدابرين رابضـين، يتصـل عنقاهمـا وجسـماهما مـن الخلـف، وقـد تكـون هـذه الحيوانات ثيراناً أو أحصنة.

---

(١) سلمان، عبد اللطيف، تاريخ الفن والعمارة، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١١، ص ١٩٢.

تأثَّرت العمارة الفارسية بالفن المعماري المصري والآشوري والبابلي، نتيجة الاحتكاك الحضاري فيما بينهم.

أما فيما يتعلق بفن النحت[١] فقد عُثِر على رؤوس بعض التماثيل المصنوعة من الحجر والمعدن لشخصيات غير معروفة، تدلُّ على تأثر فن النحت الفارسي بالطابع السومري والآشوري.

يمتاز فن النحت الفارسي بقوة التعبير، ويتجلَّى في تيجان الأعمدة والنقوش الموجودة على واجهات مداخل القصور في برسيبوليس، وفي القبور الصخرية.

وكان الإيرانيون على درجة كبيرة من المهارة في صناعة الأواني الذهبية والفضية والمعدنية، ولاسيما تلك التي استعملها الملوك الفرس في قصورهم، فقد عُثِر على إناء فضي، قاعدته على هيئة حيوان خرافي، وفوهته مزخرَفة بزخارف نباتية.

(١) سلمان، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص١٩٦.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل السابع

الحضارة الإغريقية

أولاً- بلاد الإغريق جغرافياً:

أُطلِق على بلاد الإغريق أو اليونان في اللغة اليونانية القديمة والمعاصرة اسم هيللاس، وعُرِف سكانها بالهيلينيين، تضمُّ هذه البلاد شبه جزيرة البلقان، والجزر المنتشرة في بحر إيجة، والمدن اليونانية المنتشرة على ساحل آسيا الصغرى، وأطلق الرومان عليها اسم جريكُل Graecl، وهو اسم قبيلة هيلينية هاجرت من بيوتيا الواقعة في شمال اليونان إلى جنوب إيطاليا، ومن هذا الاسم اشتقُّوا اسم إغريق، الذي أُطلِق على سكان هذه البلاد[١].

تمتاز اليونان بموقعها الجغرافي المهم، فهي تطلُّ على البحرين المتوسط والأدرياتيكي، وتكثر فيها الجزر التي تنتشر في بحر إيجة، وعلى طول ساحل آسيا الصغرى، وهي التي ربطتها بآسيا وأوروبا، وكذلك اتصلت بمصر وليبيا من خلال جزيرتي قبرص وكريت، فاحتكاك اليونان مع حضارات الشرق الأخرى المنتشرة في المناطق السابقة سمح بتبادل الثقافات بين الطرفين (التأثر والتأثير).

---

(١) الناصري، سيد أحمد علي، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، من حضارة كريت حتى قيام الإسكندر الأكبر، دار النهضة العربية، ط٢، القاهرة، ١٩٧٦، ص٨.

تتصف اليونان بأرضها القفرة قليلة الخصوبة، ومن الناحية التضاريسية هي ذات طبيعة جبلية[١]، إذْ تشغل الجبال الوعرة ثمانين بالمئة من مساحتها[٢]، مما صَعَّب الاتصال بين مختلف مناطقها، فقد مثَّلت الجبال عوائق طبيعية أسهمت في تقسيمها إلى وديان وسهول معزولة عن بعضها بعضاً[٣]، ومساحتها لا تزيد عن خمس المساحة العامة لليونان[٤]، كما أعاقت الجبال جريان الأنهار مما حال دون استخدامها في الملاحة النهرية، أو استخدامها طرق مواصلات مائية للربط بين المناطق التي تمرُّ منها[٥]، وأمام هذه المشكلة اضطر الإغريق إلى استخدام البحر طريق مواصلات للربط بين مدنهم[٦].

ثانياً–تاريخ الإغريق:

تُعدُّ حضارة كريت أول حضارة عرفتها بلاد الإغريق، ظهرت في ٢٦٠٠ / ٢٤٠٠ ق.م، واستمرت حتى عام ١٦٠٠/ ١٤٠٠ ق.م،

---

(١) فرح، أبو اليسر، الشرق الأدنى في العصرين الهلينيستي والروماني، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٢، ط١، ص١٥.

(٢)جودة، جودة حنين، جغرافية العالم الإقليمية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص٥٨٩.

(٣)علي، عبد اللطيف أحمد، التاريخ اليوناني، العصر الهيلادي ١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦، ص٢٣.

(٤)عبد الهادي، جمال، رفعت، وفاء محمد، أوروبا منذ أقدم العصور (اليونان)، دار الشروق، جدة، ٢٠١٦، ص١٣.

(٥)الشمري، هزاع بن عيد، مختصر جغرافية العالم، الكويت، ١٩٧٥، ص٢٩٩.

(٦)عبد الهادي، جمال، رفعت، وفاء محمد، المرجع نفسه، ص١٦.

وأُطلِق عليها اسم الحضارة المينوية نسبة إلى ملكها مينوس، ثم سقطت على أيدي الموكينيين بسبب منافسات تجارية بين الطرفين، وحلَّت الحضارة الموكينية مكان الحضارة المينوية، وسُمِّيت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة موكيناي، واستمرت حتى عام ١١٠٠ ق.م، وهو العام الذي سقطت فيه على أيدي القبائل الدورية[١]، التي هاجمت اليونان من الجهتين الشمالية والجنوبية[٢].

يلي هذا العصر عصر آخر يُطلَق عليه العصر المظلم (١١٠٠ – ٨٠٠ ق.م)، وفيه نسيت بلاد اليونان منجزاتها الفنية والثقافية، وضعفت السلطة السياسية فيها، وانتقلت السيطرة السياسية على بحر إيجة من يد اليونان إلى يد الفينيقيين، ويُعتقد أن البلاد وصلت إلى هذه الكوارث بسبب الغزو الدوري الذي أحدث دماراً كبيراً فيها.

بعد انتهاء هذا العصر دخلت اليونان في عصر جديد، امتد من ٨٠٠ إلى ٥٠٠ ق.م، وكان مختلفاً عن العصر الذي سبقه، إذْ بدأت خلاله الشخصية العلمية الإغريقية تظهر، وتسير في خط تصاعدي، فنتج عن ذلك تقدم في مختلف الميادين العلمية (الفلسفة، الطب، الفلك، العلوم الطبيعية، التاريخ، الجغرافيا)، وفضلاً عن التقدم العلمي، اتسم العصر الحالي بسمات عدة، من أهمها ظهور كيانات سياسية

---

(١) القبائل الدورية: هي قبائل هندو أوروبية هاجرت من آسيا الصغرى إلى بلاد الإغريق، وقضت على الحضارة الموكينية. انظر: الناصري، سيد أحمد علي، المرجع السابق، ص٧٠-٧١.

(٢) الطائي، ابتهال عادل إبراهيم، تاريخ الإغريق منذ بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، دار الفكر، ط١، عمان، ٢٠١٤، ص٣٦.

سُمِّيت دول المدن، وكانت كل دولة تتكوَّن من مدينة وبعض القرى التابعة لها، وتتمتَّع بالاستقلال السياسي، وكان لكل دولة نظام سياسي، يشبه أنظمة الدول الأخرى، ويختلف معها[١]، وقد أسَّس الإغريق خلال هذه المرحلة مستعمرات خارج بلاد اليونان استطاعت إقامة علاقات تجارية مع مناطق مختلفة من العالم، وحدث تفاعل حضاري كبير بين الحضارة الإغريقية والحضارات التي احتكَّت بها.

أُطلِق على العصر اللاحق الذي عرفته اليونان اسم العصر الكلاسيكي، الذي يُؤرَّخ في القرنين الخامس ومعظم الرابع ق.م، وهو العصر الذهبي الذي بلغت فيه دولة المدينة أوج تقدمها وازدهارها، ثم بدأت تتراجع إلى أن انتهى الأمر بالغزو المقدوني لليونان في عام ٣٣٨ ق.م.

تلا هذا العصر عصر آخر امتد من تاريخ دخول الإسكندر إلى اليونان حتى القرن الأول، وسُمِّي العصر الهلنستي.

ثالثاً-نظام الحكم:

١-نظام الحكم في الحضارة المينوية (حضارة كريت) والحضارة الموكينية:

اختلف نظام الحكم في الحضارة المينوية عن نظيره في المراحل اللاحقة، ففي بداية الأمر كان نظام الحكم إقطاعياً، وكان رؤساء القبائل هم الذين يتولَّون زمام الأمور، لكن في وقت لاحق استطاع مينوس السيطرة على مدينة كنوسوس في جزيرة كريت، ثم سيطر على

(١) الناصري، سيد أحمد علي، المرجع السابق، ص٩٨.

جزيرة كريت كاملة، وعلى جزر بحر إيجة، وحكم هذه المنطقة حكماً مطلقاً، وجعل أبناءه حكاماً على مدن تابعة له.

ويبدو أن الملك كان لديه عدد كبير من الموظَّفين يتبعون إليه، يؤكِّد ذلك قصره في كنوسوس، الذي كان يضمُّ مكاتب لإدارة شؤون الدولة، وانقسم هؤلاء الموظَّفون إلى وزراء وكَتَبَة وموظَّفي دواوين(١).

تبَّنت الحضارة الموكينية نظاماً إدارياً مشابهاً للنظام الكريتي، عُرِفت بعض ملامحه من خلال الألواح الطينية المكتشَفة في مدينة بيلوس الموكينية، حيث بيَّنت هذه الألواح أن القصر كان يهيمن على مختلف الشؤون، فهو المخوَّل بتوزيع الأقوات والرواتب على الناس، وبما أن القصر هو مقر للملك، فهذا يعني أن مختلف المهام كانت تُدار فيه. نستنتج من ذلك أن نظام الحكم كان فردياً مطلقاً، وقد ورد في الألواح ذكر لشخص يحمل لقب لاوجيتاس، أي زعيم الشعب، يبدو أنه كان يتمتَّع بمكانة ونفوذ كبيرين في المجتمع الموكيني، في حين يرى البعض أنه كان القائد الأعلى للجيش، وهناك فئة كانت تُسمَّى أتباع الملك ورفاقه، أُوكِلت إليها مهام عسكرية، وثمة فئة أخرى تُسمَّى باسيري، وتضمُّ ولاة المدن، كما ذكرت الألواح موظَّفين رتبتهم أدنى(٢).

---

(١) ديورانت، ول، قصة الحضارة، حياة اليونان، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني من المجلد الثاني ٧، دار الجيل، بيروت، تونس، ص٢٤.

(٢) علي، عبد اللطيف أحمد، التاريخ اليوناني، العصر الهيلادي ٢، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٤، ص٧٥٥.

٢ –نظام الحكم في الألف الأول ق.م (عصر دولة المدينة):

تطوَّر نظام الحكم تطوراً كبيراً في بلاد اليونان في الألف الأول ق.م، ومثَّلت أثينا وأسبارطة أنموذجين عنه، فمن خلال الاطلاع عليهما يمكننا فهم نظام الحكم السائد في ذلك العصر، ومعرفة التطورات التي شهدها.

أ–نظام الحكم الديمقراطي في أثينا:

عرفت أثينا خلال هذه المدة الديمقراطيةَ في حكمها، غير أنها لم تصل إليها إلا بعد حدوث تطورات كثيرة، ففي بداية الأمر كان المجتمع الأثيني ينقسم إلى مجتمعات سكانية قبلية، ثم ظهر النظام الملكي، وحكمَ أثينا ثلاثون ملكاً، أولهم يُدعَى ثيسيوس، الذي يُنسَب إليه توحيد المجتمعات القبلية آنفة الذكر تحت قيادته، وقد جمع السلطات السياسية والعسكرية والدينية جميعها في يده، وكان إلى جانبه مجلس استشاري يُدعى مجلس الشيوخ، يضمُّ شخصيات من الطبقة الأرستقراطية، ويساعده في أمور الحكم.

ثم طرأ تغيير على هذا الوضع لاحقاً، إذْ ازدادت قوة الأرستقراطيين، واستطاعوا الاستئثار ببعض الوظائف التي كانت من صلاحيات الملوك سابقاً، منها قيادة الجيش، ووظيفة الحاكم.

لم تُمارَس الديمقراطية الحقيقية إلا في عهد صولون[١]، الذي أصبح حاكماً في عام ٥٩٤، وأجرى إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية،

---

(١) عياد، محمد كامل، تاريخ اليونان، ج١، دار الفكر، ط٣، ١٩٨٣، ص٢٣٣ – ٢٣٤.

وعَدل بين الناس، من إصلاحاته التي تؤكِّد ممارسته الديمقراطية هي إحياء مجلس الشعب الذي اتُصِف بضعف سلطاته سابقاً.

حافظ صولون على مجلس الشيوخ، وأبقاه على رأس الحكومة، لكنه حدّ من سلطاته، وأسَّس مجلساً جديداً أطلق عليه اسم مجلس الأربعمئة، لأنه يضمُّ أربعمئة عضو، ينتمون إلى القبائل الأربع في جزيرة أتيكا[١]، وتنحصر وظيفته بإعداد المشاريع التي كانت تُعرَض على مجلس الشيوخ، وبذلك يستطيع مراقبة القوانين.

كما أسَّس صولون مجلس المحلَّفين (مجلس القضاء الأعلى)، الذي ضمَّ ستة آلاف عضو، يتم اختيارهم بالقرعة من بين طبقات الشعب، وانقسم هذا المجلس إلى عدد كبير من المحاكم التي تنظر في المسائل كلها ما عدا القتل.

ب-نظام الحكم في أسبارطة[٢]:

تبنَّت أسبارطة نظاماً للحكم مختلفاً عن نظام أثينا وعن أنظمة الحكم الأخرى، من أهم نقاط الاختلاف تنصيب ملكين على رأس الدولة، وسبب ذلك احتواء أسبارطة على قبيلتين، فكان كل ملك ينتمي إلى

---

(١) أحد أقاليم اليونان القديمة، وهي شبه جزيرة لها شكل مثلث، تتبع لها مدينة أثينا. انظر: ديفانبيه، بيير وآخرون، معجم الحضارة اليونانية القديمة، الجزء الأول (أ-ز)، ترجمة أحمد عبد الباسط حسن، المركز الوطني للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٢٠، ص٣٨.

(٢) مصطفى، ممدوح درويش، السايح، إبراهيم، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية: ١-تاريخ اليونان، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٨ – ١٩٩٩، ص٢٨ – ٣٠.

قبيلة، وكان من إيجابيات هذا النظام تمكّن كل ملك من مراقبة الآخر، وتقييد سلطاته، مما حال دون استبدادهما في السلطة. كانت سلطة الملك مطلقة، فهو الذي يُدير الشؤون العسكرية والقضائية والدينية، ثم حدث تغيير في الصلاحيات لاحقاً، فأصبحت قيادة الجيش من حق أحد الملكين فقط، والشعب هو الذي يختاره، ثم تراجعت صلاحيات الملك القضائية والدينية، فاقتصرت على مجالات قليلة.

وعلى غرار أثينا عرفت أسبارطة نظام المجالس التي كانت تقوم بمهام كثيرة في الدولة، من مجالسها مجلس الشيوخ، الذي يضمُّ ثلاثين عضواً من الطبقة الأرستقراطية، يصلون إلى المجلس عن طريق الانتخاب من قبل المجلس الشعبي الذي يمثِّل طبقات الشعب كلها، وكان يُشترط أن تكون أعمار أعضائه فوق الستين، ويحقُّ للعضو الاحتفاظ بعضويته مدى الحياة، ومن صلاحيات مجلس الشيوخ الفصل في القضايا الجنائية، وإعداد جداول الأعمال التي ستُعرَض على المجلس الشعبي.

اختلف المجلس الشعبي اختلافاً كبيراً عن مجلس الشيوخ، ولاسيما فيما يتعلق بقضية التمثيل، إذْ كان يحقُّ لكل مواطن تجاوز الثلاثين الانتماء إليه، وكان يجتمع مرة واحدة في الشهر، ومن صلاحياته انتخاب أعضاء مجلس الشيوخ، وهيئة المشرفين، والمجلس التنفيذي، وكان يقرُّ الحرب والسلام والسياسة الخارجية، والأمور المتعلِّقة بوراثة الملوك، وكانت تُعرَض عليه مختلف المسائل، ويحقُّ لأعضائه الموافقة أو المعارضة، وقد ينقسم الأعضاء إلى فئتين، إحداهما موافقة، والأخرى معارضة، لكن سلطته كانت مقيَّدة بسلطة مجلس الشيوخ والمجلس التنفيذي، فإذا رفضت هاتان المؤسَّستان قراراته أُلغيَت.

إضافة إلى المجلسين السابقين، ضمَّ النظام الأسبارطي ما يُعرَف بالمشرفين، الذين يبلغ عددهم خمسة، يُعيَّنون من القرى التي كانت تتكوَّن منها أسبارطة، ففي البداية كانت صلاحياتهم محدودة، اقتصرت على الجانب القضائي، ثم تطوَّرت لاحقاً لتشمل الرقابة على الملوك، والمحافظة على النظام العام، والنظر في شؤون الناس الذين يقيمون حول أسبارطة، وفي وقت لاحق أصبح المشرفون يصلون إلى مناصبهم عن طريق الاقتراع العام دون تدخل الملوك.

رابعاً-الحياة الاقتصادية:

أ-الزراعة والثروة الحيوانية:

عمل الإغريق في الزراعة، لكن مناطقهم لم تكن زراعية على غرار مصر وبلاد الرافدين، أي إن الزراعة لم تكن النشاط الاقتصادي الأساسي لديهم نتيجة فقر التربة، وقلة الأراضي الصالحة للزراعة التي لا تتناسب مع أعداد السكان المتزايدة، فلم تستطع الزراعة استيعاب اليد العاملة، ولم تكن قادرة على سدّ احتياجاتهم، ففي جزيرة أتيكا، على سبيل المثال، كان معدَّل المطر لا يتجاوز ٤٠ مم سنوياً، وهذه كمية غير كافية لإنتاج كميات كافية من القمح والشعير، فالكمية المنتَجة كانت تسدُّ احتياجات ثلث السكان فقط[١]، وفضلاً عن ذلك، كانت الأراضي الزراعية تعاني من انحباس الأمطار أحياناً، ومن الفيضانات التي تؤدّي إلى جرف طبقة التربة الخصبة أحياناً أخرى، وأمام هذه التحديات، كان لزاماً على السكان البحث عن موارد أخرى.

---

(١) علي، عبد اللطيف أحمد، المرجع السابق، ص١٥١.

من أهم المحاصيل التي عرفتها بلاد الإغريق القمح والشعير، والتين والزيتون والكرمة، والبقوليات (العدس، والفاصولياء، والحمص)، والقرع والبطيخ الأحمر والأصفر، وكانوا يصنعون النبيذ من الكرمة، والزيت من الزيتون، وكانوا يسقون محاصيلهم من مياه الآبار والخزانات والقنوات، التي تجرُّ المياه من الأنهار إلى الأراضي الزراعية[١].

وقد اهتموا بتربية الحيوانات، مثل الماعز والأبقار والثيران والأغنام والحمير والخنازير والطيور، واقتنوا الكلاب في بيوتهم لاستخدامها في حراسة البيوت ورحلات الصيد.

ب-الصناعة:

ازدهرت الصناعة في اليونان، وأسهمت في تنشيط الحركة التجارية، فقد كان الإغريق يحتاجون مواد أولية لإنتاج سلع مختلفة في مشاغلهم، مما دفعهم إلى استيراد مواد غير متوفرة لديهم من المناطق المجاورة، وفي الوقت نفسه كان لديهم فائض في الإنتاج، فاضطروا إلى تصديره إلى البلدان المجاورة.

عمل الإغريق في الصناعة منذ وقت مبكِّر من حضارتهم، فقد برع الكريتيون في صناعة الفخار، ومن منتجاتهم في هذا المجال المزهريات والصحاف والفناجين وأقداح الشراب والمصابيح والجرار وتماثيل الحيوانات والآلهة، كما برعوا في صياغة الذهب والفضة أيضاً، فصنعوا المجوهرات، واستخدموا المعادن لصناعة أوانٍ تُستخدَم في الحياة اليومية، فمن البرونز صنعوا الطاسات والأباريق والخناجر والسيوف،

---

(١)ديورانت، ول، المرجع السابق، الجزء الثاني، المجلد الثاني ٧، ص٤٥.

وبرعوا في فن الترصيع، إذْ كانوا يرصِّعون السيوف بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة[١].

وفي عهد الحضارة الموكينية ازدهرت حرفة تصنيع العاج، إذ كان الحرفيون يستخدمونه في صناعة الصناديق، ومقابض المرايا، وبعض التماثيل، وأجزاء من القيثارات، واستُخدِم الحجر في صناعة القدور والمصابيح، وازدهرت صناعة المعادن أيضاً، فمن الفضة صنعوا الكؤوس، واستخدموا البرونز في صناعة بعض الأدوات، مثل البلطات والمناشير والأزاميل والقُدُم، وكذلك استخدموه في صناعة الأسلحة (السيوف والخناجر ورؤوس الحراب) والدروع، وازدهرت صناعة الأواني الفخارية، وزُخرِفت سطوحها برسومات، وامتاز الفخار الموكيني بصلابته وصقله الجيد[٢].

تطوَّرت الصناعة الإغريقية في الألف الأول ق.م، ففي مدينة كورنثا صنع الإغريق السفن والأدوات البرونزية، وكانوا يطلون الأواني الفخارية بأسلوب جديد ومتطور لم تعرفه بلاد الإغريق خلال المراحل السابقة[٣]،

ج-التجارة:

تُعدُّ التجارة أهم نشاط اقتصادي مارسه الإغريق، وأصابوا بفضلها ثراءً فاحشاً، وثمة عوامل عدة دفعتهم للعمل بالتجارة أكثر من عملهم

---

(١) ديورانت، ول، المرجع السابق، الجزء الأول، المجلد الثاني ٦، ص٣٤- ٣٥.

(٢) علي، عبد اللطيف أحمد، التاريخ اليوناني، العصر الهيلادي ٢، ص٧٥٠.

(٣) كيتو، هـ، د، الإغريق، ترجمة عبد الرزاق يسري، بيروت، دار الفكر العربي، ١٩٦٢، ص١٠٤.

بالأنشطة الأخرى، منها قلة الموارد في بلادهم، وتوفر طريق بحري مهم هو البحر الأبيض المتوسط الذي كان يربط اليونان بالحضارات المجاورة، وقد سهَّل هذا الطريق البحري نقل البضائع من اليونان وإليها. وفضلاً عن ذلك، عمل الإغريق بالزراعة والصناعة، وكان لديهم فائض في المنتجات، ولتصريف الفائض كان لزاماً عليهم امتهان التجارة، وإقامة علاقات تجارية مع الحضارات المجاورة.

امتهن الإغريق التجارة منذ حقب مبكِّرة، ففي عهد حضارة كريت أقام الكريتيون علاقات تجارية مع مصر، حيث استوردت مصر من كريت الفضة الخام، لحاجتها لها في صناعتها، وهذا المعدن لم يكن متوفراً في كريت، فجلبته من جزر مجاورة، ثم صدَّرته إلى مصر[١]، وصدَّرت الأواني إليها[٢]، وكذلك النبيذ وزيت الزيتون، اللذين توفَّرا بكثرة في كريت، وكانت كريت تأخذ بدلاً منهما النحاس المصري[٣]، وفضلاً عن العاج الذي كانت تحصل عليه كريت من ليبيا، فإنها على ما يبدو حصلت على كمية إضافية منه من مصر، فالعاج من المواد الخام التي

---

(1) Sandrs. N. K, The Sea People Warrios of the Ancient Meditereanean 1258-1152 B.C, London, Thameds and Hudison, 1978, p: 57.

(٢) عكاشة، علي، الناطور، شحادة، بيضون، جميل، اليونان والرومان، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط١، إربد، ١٩٩١، ص٢١.

(٣) فركوتيه، جان، قدماء المصريين والإغريق، العلاقة بين الشعبين منذ أقدم الأزمنة إلى نهاية الدولة الحديثة، ترجمة محمد علي كمال الدين، كمل دسوقي، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٠، ص٢٢.

كانت تبحث عنها كريت[١]، لتستخدمها في صناعتها، وكما هو معروف كان هذا المنتج يأتي من إفريقيا، ومصر هي جزء من إفريقيا[٢]. أقام الكريتيون علاقات تجارية مع ليبيا، فقد استوردت كريت من ليبيا العاج والثيران ونبات السلفيون الطبي والتوابل، وصدَّرت إليها الجواهر المصنوعة من الحجر الكريم، والأواني البرونزية، وكؤوساً من الفخار، ومزهريات، وأباريق، وحسب المكتشفات الأثرية، كانت كريت تُصدِّر فخارها إلى قبرص، وربما بعض المصنوعات المعدنية. ارتبطت كريت بعلاقات تجارية مع الساحل الفينيقي، فقد كان لمدة من الزمن حلقة اتصال بين كريت ومصر، وفي الوقت نفسه تاجرت مدنه مع كريت، مثل مدينة جبيل التي كُشف فيها عن أوانٍ فضية كريتية تثبت قيام هذه العلاقات، وأقامت علاقات تجارية مع أوجاريت أيضاً[٣]، تُؤكِّد ذلك المكتشَفات الأثرية في أوجاريت[٤]، التي كان من بينها أوانٍ وقطع فخارية كريتية كانت تُستخدَم في الحياة اليومية[٥]. تبنَّى الكريتيون نظام

---

(١) الناصري، سيد أحمد علي، المرجع السابق، ص٣٦

(٢) إحميم، فيصل، شكمبو، عبد الكريم، النشاط الاقتصادي في المدن الفينيقية، مدينة صور أنموذجاً، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الشهيد حمه الخضر–الوادي، ٢٠١٧–٢٠١٨، ص٢٠.

(٣) يونس، إياد، الحياة الاقتصادية في أوغاريت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠٠٠، ص١٣٦.

(٤) حتى، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد، ج١، بيروت، ١٩٥٨، ص٦٧.

(٥) حيدر، جمال حسن، أوغاريت التاريخ والآثار، دار المرساة، ط١، اللاذقية، ٢٠٠٣، ص٢٧.

المقايضة في تجارتهم، أي إنهم كانوا يستبدلون بالسلعة التي يصدِّرونها سلعة أخرى من المنطقة التي يتاجرون معها.

خامساً-الحياة الدينية:

يُعدُّ المجتمع الإغريقي من المجتمعات المتديِّنة، إذ يؤثِّر الدين في حياة الناس على اختلاف طبقاتهم ووظائفهم، وكانت المعابد مقصداً لكل هؤلاء، ففيها مارسوا الطقوس الدينية المختلفة تحت إشراف الكهنة، الذين أثَّروا في حياة الإغريق تأثيراً كبيراً على المستويين السياسي والاجتماعي، وكانوا يدعون الناس لعبادة الآلهة، ويُشرفون على ممارسة الطقوس الدينية، وكان الناس يتجاوبون معهم تقرباً من الآلهة.

١- الآلهة الإغريقية:

اتصفت الآلهة الإغريقية بصفات مشابهة لصفات البشر[١]، فهي تتزوَّج وتكوِّن أسراً إلهية، وتشعر بالفرح والحزن، وتُقيم الولائم، وتسكن القصور[٢]، وقد انقسمت إلى طبقتين: (آلهة كبرى، وآلهة صغرى)، لكنها اختلفت عن البشر في أنها تبقى خالدة لا تموت، وكان لكل إله أو إلهة وظيفة خاصة تختلف عن وظائف الآلهة الأخرى، وقد أُقيمت لأجلها المعابد، واحتوت هذه الأبنية على تماثيل لها، وكان المتعبِّدون يزورونها لتأدية الطقوس الدينية التي تتعلَّق بها.

---

(١) عبد الهادي، جمال، رفعت، وفاء محمد، المرجع السابق، ص١٩٦.

(٢) نيهاردت، أ.أ، الآلهة والأبطال في اليونان القديمة، ترجمة هاشم حمادي، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٤، ط١، ص١٦.

من أشهر الآلهة الإغريقية آلهة الأولمبوس، التي يُقدَّر عددها باثني عشر إلهاً، وهي الآلهة الكبرى في اليونان، وكانت تُعبد في بلاد الإغريق كلها[١]، ولهذه الآلهة مجمع خاص بها، كان يترأسه إله السماء زيوس[٢]، الذي يعدُّ الإله الأكبر والأعظم في اليونان، انتشرت عبادته في مناطق واسعة منها، وتعدُّ أولمبيا المقرَّ الرئيس لعبادته، وقد بُنِي له معبد فيها، كان من أجمل المعابد اليونانية، لكن دمَّره الزلزال في القرن السادس ق.م[٣]، كان زيوس يرسل المطر والصواعق والرعد من السماء، ويسيطر على الجو[٤]، ويمكن وصفه بأنه كان راعياً للخصب في اليونان، فلولا المطر الذي كان يرسله، لما نمت النباتات التي تعود بالفائدة على الإنسان والحيوان. تنتمي زوجته هيرا إلى المجمع نفسه، حيث كانت ربَّة المدفأة والبيت[٥]، والحامية للنساء، وأُقيم لها معبد إلى جانب معبده[٦]، وتُعدُّ الربَّة أثينا من الآلهة الكبرى في اليونان أيضاً، إنها ربَّة الحرب والحكمة، والحامية للمدن، تُنسَب إليها زراعة أول شجرة زيتون في اليونان[٧]، ومن الآلهة الأخرى أبولّون، إله الشباب والشعر

---

(١) كيتو، هـ، د، المرجع السابق، ص٩٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٦٢.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٦٢.

(٤) علي، عبد اللطيف أحمد، المرجع السابق، ص٢١٥.

(٥) كيتو، هـ، د، المرجع نفسه، ص٩٥.

(٦) الناصري، سيد أحمد علي، المرجع السابق، ص١٥

(٧) نعمة، حسن، موسوعة ميثولوجيا الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٤، ص١٣٤– ١٣٥.

والموسيقا والنبوءات والطهارة، مركز عبادته جزيرة ديلوس مسقط رأسه، وله معبد في مدينة دلفي[١].

إضافة إلى الآلهة الكبرى، كان المجمع الديني الإغريقي يضمُّ آلهة صغرى، هي آلهة الأرض، والحيوانات، والعالم السفلي، وآلهة الأبطال والأسلاف، لكن لم ترقَ هذه الآلهة إلى مكانة الآلهة الكبرى وقيمتها، بل اقتصرت عبادتها بين الفقراء[٢].

٢ـالطقوس الدينية:

عرف الإغريق الكثير من الطقوس الدينية، التي كانوا يسعون من خلالها إلى التقرب من الآلهة وإرضائها، وكان يحقُّ لأي شخص ممارستها، والاقتراب من الإله بحرية للإفصاح عن طلباته، وكانت الدولة هي المسؤولة عن هذه الطقوس، ويُعدُّ ذلك حقاً من حقوقها[٣]، تُمارسه بتوظيف مجموعة من الكهنة في المعابد[٤]، انحصرت مهمتهم في الحفاظ على هذه الطقوس، وإرشاد المؤمنين إلى طريقة تأديتها، وكانوا يقدِّمون النبوءات لهم أيضاً.

انقسمت الطقوس الدينية إلى علنية وسرية، فمن الأمثلة على الطقوس العلنية تقديم الأُعطيات والأضاحي، وبعض الممارسات في الأعياد (الغناء والرقص مثلاً)، أما السرية فقد كان القدماء يمارسون بعضها في

---

(١) نعمة، حسن، المرجع السابق، ص١٣٠ –١٣١.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠١.

(3) Habert O, La religion de la Grèce antique, P. Lethielleux, Libraire-éditeur, Paris, 1910, p: 433.

(٤) ديورانت، ول، المرجع السابق، الجزء الأول، المجلد الثاني٦، ص٣٤٨.

عيد ديميتر الربيعي، حيث كان المحتفلون يقيمون احتفالاً سرياً، وظلت طقوس هذا الاحتفال خفية خلال التاريخ القديم كله، وإذا باح أحد أعضاء الجماعة بأي سر عنها كانت عقوبته الإعدام[١].

ومن طقوس الإغريق تقديم القرابين لآلهتهم في المعابد، حيث كانت تُوضَع على مذابح مخصَّصة لها[٢]، وكان القربان وسيلة تقرّب البشر من آلهتهم، تساعدهم على بناء علاقة جيدة معها، وتدفع الإله لتكفير الذنوب عن المذنبين[٣]، وقد قُدّمت القرابين باسم الملوك والمدن والأشخاص، وكانت تُحفَظ في مكان مخصَّص لها في المعابد[٤].

مارس الإغريق طقس السكب أيضاً، ومن السوائل التي كانوا يسكبونها النبيذ، والماء المخلوط بالعسل، والحليب الذي كان يُراق في الطقوس المخصَّصة للموتى، ويبدو أن النبيذ استُخدِم أكثر من غيره في طقوس السكب، وساد اعتقاد أن الآلهة هي التي كانت تتناوله بعد سكبه، وكان يجب على العباد توفير النوعية الممتازة منه لتتوافق مع أذواق الآلهة، فأحياناً كانوا يخلطونه مع الماء، وأحياناً أخرى يسكبون الماء النقي من دون خلطه مع أي سائل آخر[٥].

---

(١) ديورانت، ول، المرجع السابق، الجزء الأول، المجلد الثاني ٦، ص٣٤٢.

(٢) علي، عبد اللطيف أحمد، المرجع السابق، ص٢١٢.

(٣) ديورانت، ول، المرجع نفسه، الجزء الأول من المجلد الثاني ٦ ، ص٣٤٦.

(4) Habert O, Op.Cit, p.439.

(5)Ibid, p.449.

هدفت الطقوس كلها التي قام الإغريق بها إلى إرضاء الآلهة، والتقرب منها، وجلب المنفعة للمؤمنين الذين يمارسونها، ولا سيما الصلوات والأدعية التي كان المتعبِّد يقوم بها، هادفاً من ورائها إلى إرضاء الآلهة، وجلب المنفعة لنفسه باستجابة الآلهة لدعائه، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الغناء الذي يُريح النفس عند تأدية الطقوس، لأنه يصطبغ بصبغة دينية، وكان يتضمَّن مديحاً للآلهة، ومن هنا يمكن عدُّه طقساً دينياً يُؤدَّى خلال ممارسة طقوس أخرى.

سادساً–اللغة والكتابة: برع الإغريق في الكثير من العلوم، وما كان لهذه العلوم أن تُحفَظ وتُنقَل من جيل إلى آخر لولا وجود لغة متعارف عليها بين الجميع أسهمت في حفظها. وكما هو معروف، لا يمكن للغة وحدها أن تحفظها، بل لا بد من وجود نظام كتابي يُستخدَم لتدوينها بلغتها الشائعة آنذاك.

استخدم الإغريق اللغة اليونانية، التي تنتمي إلى مجموعة اللغات الهندو أوروبية، والتي انقسمت إلى لهجات عدة هي (الإيولية، والدورية، والأيونية، والأتيكية)، وكان أصحاب هذه اللهجات يفهمون بعضهم بعضاً. ولم يقتصر دور اللغة على حفظ العلوم فحسب، وإنما كان لها دور في نقلها إلى الآخرين بطريقة سلسة، ومفهومة، وبتعابير قوية ومؤثرة، ويتوقَّف ذلك في الحقيقة على إمكانيات اللغة ذاتها، فقد تتوفَّر إمكانيات في لغة ما، في حين لا تتوفَّر في أخرى، وهذا ينطبق على اللغة اليونانية الأتيكية التي امتازت بجزالتها، وبقدرتها على التعبير، وبمرونتها، وباستيعابها لتراكيب كثيرة، وباحتوائها جميع أنواع التعبيرات

السامية. من الأمثلة على استخدام اللغة لحفظ العلم كتابات أنكسيمانس التي دُوِّنت باللهجة الأيونية[١].

سابعاً–العلوم:

ظهر العلم الإغريقي في منطقة إيونيا الواقعة على الساحل الغربي لآسيا الصغرى، وهي مستعمرة إغريقية، ساعد على نشوء العلوم وترعرعها فيها تحرّر الإغريق من فكرهم التقليدي الديني، الذي كان يعتمد على تفسير مختلف المسائل تفسيراً دينياً، وفي الوقت نفسه اتصف المهاجرون الإغريق بالنبوغ والذكاء، وخاضوا في مسائل لم يسبق للإغريق اقتحامها من قبل. من العوامل المساعدة على حفظ هذه العلوم ونشرها ونقلها من جيل إلى جيل اللغة والكتابة، حيث اعتمد الإغريق في هذا المجال على اللغة اليونانية بفروعها كلها، وعلى الكتابة الفينيقية التي أدخلوا عليها بعض التعديلات، ومما ساعد على ازدهار العلوم الإغريقية احتكاك الإغريق بالشعوب والحضارات الأخرى، مثل حضارة مصر وبلاد الرافدين، فقد أسهم هذا الاحتكاك في اكتساب معارف جديدة، وبناء الشخصية العلمية الإغريقية[٢]، وكان للثراء – الذي أصابه الإغريق من الأعمال التجارية التي ازدهرت في المستعمرات الإغريقية – دور في توفير حياة رغيدة لهم، وخلق حالة من الاستقرار، حيث هيَّأت هذه الظروف لازدهار العلوم.

---

(١) كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة، المجلد الأول (اليونان والرومان)، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢، ط١، ص٦٠.

(٢) سارتون، جورج، المرجع السابق، ١٦٣.

١ - الفلسفة:

تُعدُّ الفلسفة أحد العلوم، أو بالأحرى من أهم العلوم التي برع فيها الإغريق، وقد ظهرت الفلسفة اليونانية لأول مرة في المستعمرات الإغريقية في آسيا الصغرى، وكان معظم الفلاسفة الأوائل من ملطية في إيونيا[١]، والملفت للنظر أنها كانت تؤثّر في المجتمع تأثيراً عميقاً، وكانت لها انعكاسات على الحياة السياسية، وقد روَّج لها ولأفكارها الكثير من الفلاسفة الذين اتخذوا مواقف مختلفة من الحياة بسبب تباين نظرتهم إلى الحياة والكون. مما يميّز الفلسفة الإغريقية تناولها مسألة نشوء الكون والكثير من القضايا الاجتماعية، على خلاف العلوم الأخرى التي تناول كلٌّ منها جزءاً معيناً[٢]، فكان الفيلسوف يبحث في مسائل مختلفة (النار والماء والتراب والكواكب...إلخ)، مما جعله يخوض في علوم أخرى، ومن الأسباب التي جعلته ينحو هذا المنحى رغبته في معرفة سبب ظهور الكون، وكي يتمكَّن من تفسير ذلك وتقديم إجابات مقنعة، وجب عليه أن يكون ضليعاً في الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية.

من الفلاسفة اليونان طاليس الذي يُعدُّ أول فيلسوف يوناني[٣]، وُلِد في مدينة ميليتوس نحو عام ٦٢٤ ق.م، وهو من أصل فينيقي، بدأ حياته

---

(١) كوبلستون، فريدريك، المرجع السابق، ص٤٣.

(٢) عويضة، محمد، الأعلام من الفلسفة، حصاد الفكر الفلسفي اليوناني، جزء ٢٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥، ط١، ص٩.

(٣) كوبلستون، فريدريك، المرجع نفسه، ص٤٨.

العلمية في ملطية (ميليتوس)، ثم هاجر إلى مصر، وأخذ عن علمائها العلوم الفلكية والرياضية[١]، وتُوفّي في عام ٥٤٨ أو ٥٤٥ ق.م[٢].

من الفلاسفة الآخرين آناكسيماندر الذي تتلمذ على يد طاليس، وحسب وجهة نظره، الماء ليس أصل كل شيء، وتحدث آناكسيماندر عن نشوء الكون، وتطرَّق إلى الأحياء التي كانت تعيش على الأرض.

تتلمذ على يدي آناكسيماندر فيلسوف آخر يُدعى أنكسيمانس، عاش بين عامي ٥٨٨ و٥٢٤ ق. م[٣]، وعلى غرار طاليس وآناكسيماندر، ناقش أنكسيمانس مسألة نشوء الكون، وقد تطابقت رؤيته مع رؤية طاليس في أن الكون نشأ من مادة محسوسة، لكنه اختلف معه في ماهيتها.

وكان فيثاغورس أحد فلاسفة الإغريق أيضاً، وهو من إيونيا[٤]، وُلِد في مدينة ملطية عام ٥٨٠ ق.م، ومات في سن الثمانين، ويُذكر أنه زار جزيرة العرب وفينيقيا وبابل ومصر والهند وغالة[٥]، وكان يتأثَّر بالمناطق التي كان يزورها، ولاسيما مصر التي تعلَّم من كهنتها بعض

---

(١) سارتون، جورج، المرجع السابق، ص٣٦٠.

(٢) مكاوي، فوزي، المرجع السابق، ص٧٤.

(٣) كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص١٦.

(٤) كوبلستون، فريدريك، المرجع السابق، ص٦٣.

(٥) ديورانت، ول، المرجع السابق، الجزء الأول من المجلد الثاني٦، ص٢٩٣.

القضـايا الفلكيـة والهندسـية[١]، أسَّـس فيثـاغورس مدرسـة فـي قروقونـة جنوبي إيطاليا، انتشرت أفكارها في نهاية القرن السادس ق.م، واستمرت حتى القرنين الثالث والثاني ق. م[٢].

عاصر فيثاغورس فيلسوف يُدعى كسينوفانس، وُلِد في كولوفون في آسيا الصغرى[٣]، وعاش ما بين عامي ٥٦٠ و ٤٧٨ ق.م، وكان له موقف فلسفي دافع فيه عن الآلهة منتقداً البشر الذين كانوا يرسمونها على هيئة كائن حي[٤]، فمن وجهة نظره، الآلهة أسمى من المخلوقات كلها، ويجب أن تكون منزَّهة عن التجسيم، لأن التجسيم من صفات البشر والحيوانات، ونادى بالتوحيد داعياً إلى عبادة إله واحد[٥]، ورفض فكرة تعدد الآلهة معتبراً أن تعددها من صنع البشر[٦]، وعلى الرغم من احترامه للآلهة وتقديره للدين، إلا أنه فصل بينها وبين الاتجاه العلمي

---

(١) عبد الهادي، رفعت، المرجع السابق، ص١٢٦.

(٢) إيلين ويث، ماري، تاريخ النساء الفلاسفة في العصرين اليوناني والروماني، ترجمة محمود مراد، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٩١، ط١، ص٤٩.

(٣) طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة (الفلاسفة–المناطقة–المتكلمون–اللاهوتيون–المتصوفون)، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٦، ط٣، ص٢٥٤.

(٤) بشارة، عزمي، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، ج١، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ٢٠١٢، ص٩٠.

(٥) طرابيشي، جورج، المرجع نفسه، ص٥٢٤.

(٦) مصطفى، ممدوح درويش، السايح، إبراهيم، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية، ١–تاريخ اليونان، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، ١٩٩٨–١٩٩٩، ص٧٢.

الـذي تبنَّـاه، واعتمـد فـي منهجـه العلمـي علـى العقـل محـرِّراً إيـاه مـن المعتقدات الدينية[١].

عاصـر الفيلسـوفين الأخيـرين فيلسـوف آخـر يُـدعى هرقليطس، الـذي عاش مـا بين عـامي ٥٣٥ و٤٧٥ ق.م، يعود أصله إلـى مدينـة أفسس في ليديا[٢]، وقد تطرَّق في فلسفته إلى بعض المسائل في الطبيعة.

من فلاسفة اليونـان الآخرين سقراط (٤٦٩ – ٣٩٩ ق.م)، الـذي بنـى بحثـه علـى أسـاس التأمـل الـواقعي الأخلاقـي للنـاس، ظهـر فيلسـوفان عظيمان، هما أفلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧ ق.م)، وأرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م)، وُلِد أفلاطون في أثينـا، وظـلَّ مرافقاً لسقراط حتـى تُوفِّي فـي عـام ٣٩٩ ق.م، ولم يبقَ في أثينا، بل زار مناطق كثيرة، مثل قورينة وصقلية ومصـر، وعـاد إلـى أثينـا فـي ٣٨٧ ق.م، وأسَّـس مدرسـة فيهـا، ثـم خـرج منهـا فـي ٣٦٧ ق.م، وزار منـاطق عـدة، وعـاد إليهـا مجـدَّداً فـي ٣٤٧ ق.م، وتُـوفِّي فيهـا. ممـا تركـه أفلاطـون تلـك المحـاورات التـي تناولـت شخصية سقراط وأفكاره، ومن أهم مؤلَّفاته كتاب "الجمهورية"، الذي تخيَّل فيه الجمهورية الفاضلة التي يسودها العدل، وقسَّم الوظائف فيها حسب أخلاق الناس.

أما بالنسبة لأرسطو فقد وُلِد في مدينة ستاجيرا في إقليم تراكيا في عام ٣٨٤ ق.م، وانضمَّ إلى مدرسة أفلاطون، وبقي فيها حتى وفاة أفلاطون في عام ٣٤٧ ق.م.

---

(١) عبد الهادي، رفعت، المرجع السابق، ص١٢٨.

(٢) طرابيشي، جورج، المرجع السابق، ص٦٩٧.

٢ –الفلك والتنجيم:

ظهر علم الفلك بسبب حاجة الناس إلى ضبط الوقت والتقويم والزمن وقياسه[١]، ويرى البعض أنه ارتبط منذ نشأته بعلم التنجيم[٢].

إن مختلف المسائل التي عالجها علم الفلك تتصل بالحياة اليومية للناس، فعلى سبيل المثال كانت لضبط الوقت أهمية كبيرة في الزراعة، فمن خلال تحديده تحديداً محكماً يصبح الفلاح عارفاً بالوقت الذي يبذر البذار فيه، ووقت حصاد المحصول، ويعتمد الفلاح في ضبط هذه المواعيد على ظهور النجوم واختفائها، مما يساعده في تحديد وقت الحراثة وبذر البذار وحصاد المحصول[٣].

من علماء الفلك الإغريق طاليس[٤]، الذي يُعدُّ أول فلكي يوناني، ويقال: إنه هو الذي نقل هذا العلم إلى بلاد الإغريق، من أهم إنجازاته في هذا المجال تنبؤه بالكسوف الذي حدث في شهر ثارجيليون (٢٨ مايو) سنة ٥٨٥ ق.م.

من فلكيي الإغريق الآخرين كليوستراتوس أحد طلاب طاليس، أو من طلاب أحد طلابه، وتذكر الروايات أنه حدَّد صور البروج من خلال

---

(١) أنيس، عبد العظيم، العلم والحضارة، مصر، ١٩٦٧، ص٥٨.

(٢) الجميلي، المرجع السابق، ص١٣.

(٣) النعيمي، شيماء علي أحمد، الفلك في العراق القديم من القرن السابع إلى القرن الرابع ق.م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، ٢٠٠٦، ص٦.

(٤) أرسطوطاليس، الكون والفساد، ترجمة أحمد لطفي السيد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص٣١.

مشاهداته الفلكية، وله جهد آخر يتعلَّق بالتقويم، من خلال اكتشافه دورة فلكية من ثمانية أعوام، وهي مدة تحتوي على عدد من الأيام والشهور القمرية والسنوات الشمسية (٣٦٥ يوماً وربع x ٨ = ٢٩٢٢ يوماً = ٩٩ شهراً).

وكما ذكرنا سابقاً، يعتقد البعض أن علم الفلك ارتبط بالتنجيم، ونفهم من هذا القول أن علم الفلك ارتبط بالخرافات منذ نشأته، ونرى أن هذا الكلام خاطئ؛ لأن الفلك كان يتناول مسائل واقعية بعيدة عن الخرافات، مثل ضبط الوقت ووضع التقاويم، أما التنجيم فكان يقدِّم نبوءات خرافية عن مصير الأشخاص والدول اعتماداً على حركة النجوم وبعض الظواهر الطبيعية مثل الزلازل والرعد.

يُعدُّ التنجيم إحدى طرق معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل، وكان للمنجِّمين حظوة عند الطبقة العليا في اليونان[١]، فالمنجِّمون هم الكهنة، ويُعرَفون بالعرَّافين، وكانوا يقدِّمون نبوءاتهم للناس في المعابد، من الأمثلة عليهم الكاهنة في معبد أبولّون أو أبوللو (ربُّ الشباب والشعر والموسيقا عند اليونان) في دلفي، التي كانت تجلس على مقعدها الشهير ذي الأرجل الثلاث، وتُتمتِم بكلمات من وحي الآلهة[٢]، وهناك أيضاً متنبِّئ زيوس في دودونا، يدلُّنا على شيوعه بين الناس في اليونان أن القادة كانوا يلجؤون إليه ظناً منهم أن بإمكانه أن يُطلعَهم على نتائج

(١) عويضة، كامل، الأعلام من الفلاسفة، حصاد الفكر الفلسفي اليوناني، جزء ٢٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥، ط١، ص٤٣.

(٢) الناصري، سيد أحمد علي، المرجع السابق، ص١٦.

بعض الأعمال التي كانوا ينوون القيام بها، ولا سيما الحملات العسكرية.

٣-الطب:

ازدهر علم الطب عند الإغريق، وتطوَّر على مراحل عدة تتوزَّع على تاريخ حضارتهم الطويل، ففي المدة التي سبقت عام ١٤٠٠ كانت كريت هي الرائدة في هذا العلم، ومنذ هذا التاريخ انتقلت المنجزات الطبية إلى جنوبي بلاد اليونان (منطقة البلوبونيز)[١]، حيث استقر الآخيون، تؤكِّد ذلك المعلومات الطبية الكثيرة التي وردت في أشعار هوميروس، ولاسيما تلك التي تتعلَّق بمداواة الجروح خلال الحروب، وحسب أشعار هوميروس، عرف الإغريق الطب الباطني الداخلي، والعمليات الجراحية، وقدَّس الإغريق إله الطب أسقليبوس، وشيَّدوا لأجله المعابد[٢]، مما يعني أن الطب اختلط بالدين، ولم يُفصَل بينهما إلا في القرن الخامس على يد الطبيب اليوناني أبقراط[٣].

٤-العلوم الرياضية:

---

(١) انتقلت الحضارة الإغريقية الأولى إلى منطقة البلوبونيز، ومن المؤكَّد أن المعارف الطبية انتقلت إلى هذه المنطقة، غليونجي، بول، قطوف من تاريخ الطب، دار المعارف، القاهرة، ص١٦٦-١٦٧.

(٢) المعلوف، عيسى إسكندر، تاريخ الطب عند الأمم القديمة والحديثة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤، ص٢٠.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٣.

إن ازدهار التجارة في الحضارة الإغريقية اقتضى التعمق في علم الرياضيات وتطويره[١]، فكما هو معروف، يحتاج التاجر من أجل حساب ثمن البضائع والنفقات المتعلِّقة بشحنها ونقلها من مكان إلى مكان، وحساب الأرباح، وأجور العمال، إلى نظام حسابي يضبط له كل هذه الأشياء، وهذا النظام هو جزء من الرياضيات، وفضلاً عن ذلك، يجب تبني مقاييس وأوزان في التجارة، وهي أشياء –برأينا– ترتبط بالعلوم الرياضية.

ومن الجدير بنا ذكره أن العلوم الرياضية تطوَّرت إلى حد تجاوزت فيه مسألة العمليات الحسابية التجارية والأوزان، تؤكِّد ذلك الإنجازات التي حقَّقها العلماء الإغريق، ومن أقدمهم طاليس الذي برع في علم الهندسة، وقدَّم البراهين على الكثير من القضايا الهندسية، إذْ برهن على أن الزوايا المرسومة في نصف الدائرة هي قائمة[٢]، وقطر الدائرة يقسم الدائرة إلى قسمين متساويين، وأن زاويتي المثلَّث متساوي الساقين متساويتان، وأضلاع المثلثات المتشابهة متناسبة، وتطابق المثلَّثين إذا تساوت فيهما زاوية وضلع[٣]، وكان يحسب من فوق برج أبعاد السفن في البحر، وليس معروفاً كيف كان يقوم بذلك، وكان له إبداع آخر في علم الهندسة، إذْ توصَّل إلى نتيجة مفادها أنه في الوقت الذي يكون فيه ظل الشيء مساوياً لمقداره الحقيقي، فإن ظل الأهرام هو مقدار ارتفاعها،

(١) عياد، محمد كامل، المرجع السابق، ص١٤٢.

(٢) كرم، يوسف، المرجع السابق، ص٢٥.

(٣) سارتون، جورج، المرجع السابق، ص٣٦٣.

وأن النسبة الحقيقية تبقى محفوظة بين طول الظل وارتفاع الشيء في أي وقت من أوقات النهار[١].

أما فيثاغورس أحد علماء الرياضيات الإغريق، فمن أهم إنجازاته نظرية المثلَّث قائم الزاوية، التي حملت اسمه (نظرية فيثاغورس)[٢]، وقد برهن فيها على أن مجموع الزوايا الداخلة في أي مثلَّث يساوي قائمتين، وأن المربَّع المقام على الضلع المقابل للزاوية القائمة على المثلَّث قائم الزاوية يساوي مجموع المربَّعين المقامين على الضلعين الآخرين[٣].

(١) كرم، يوسف، المرجع السابق، ص٢٥.

(٢) عبد الهادي، رفعت، المرجع السابق، ص١٢٧.

(٣) ديورانت، المرجع السابق، الجزء الأول من المجلد الثاني ٦، ص٢٩٧.

الفصل الثامن

الحضارة الرومانية القديمة

تمكَّن الرومان القدماء من إقامة حضارة في المنطقة المعروفة حالياً باسم إيطاليا، وبسطوا سطوتهم على المناطق المجاورة، فنجحوا في إقامة إمبراطورية خارج حدود منطقتهم الجغرافية عبر البحار، وقد أسهمت في نشوء هذه الحضارة مقوِّمات عدة ودعامات أساسية كانت السر وراء تفوقها الحضاري في تلك المرحلة من الزمن التي يُسمِّيها المؤرِّخون التاريخ الروماني، أو بالأحرى تاريخ الرومان، أو تاريخ روما القديمة.

أولاً: روما جغرافياً[1]:

كان الإغريق أول من أطلق على الطرف الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية اسم إيطاليا (Italia)، وذلك إبان القرن الخامس قبل الميلاد، وظل هذا الاسم مستخدماً حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد، حيث أُطلِق على شبه الجزيرة الإيطالية كلها، وليس على جزء صغير منها.

تُعدُّ جبال الإبنين الممتدة من الشمال إلى الجنوب العمود الفقري لشبه الجزيرة الإيطالية، تحدُّها جبال الألب من الشمال، ويحيط بها البحر

---

(١) السعدنى، محمود إبراهيم، حضارة الرومان: منذ نشأة روما وحتى نهاية القرن الأول الميلادي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، جامعة الزقازيق، ١٩٩٨، ص٣٩ وما بعد.

المتوسط من جوانبها الأخرى، وتشمل إيطاليا منطقتين مختلفتين في التضاريس هما:

١-المنطقة الشمالية: التي تضمُّ السلسلة الجنوبية من جبال الألب والسلسلة الشمالية من جبال الإبنين، والسهل المنخفض الواقع بينهما، تمتدُّ جبال الألب على هيئة هلال غير منتظم من مدينة نيس Nice على البحر المتوسط إلى مدينة تريستاTrieste على البحر الأدرياتيكي، وتخترقها وديان الأنهار التي تمثِّل ممرات تصلها بالسهل الذي يقع تحتها، حيث يخترقه نهر البو Padus أعظم أنهار إيطاليا، الذي ينبع من غرب الألب، ويجري شرقاً ويصبُّ في البحر الأدرياتيكي، ويُعدُّ سهل البو من أخصب سهول إيطاليا الصالحة للزراعة.

٢- المنطقة الجنوبية: التي تضمُّ شبه جزيرة ضيقة تمتدُّ من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بين البحرين المتوسط والأدرياتيكي، وتنتهي بالحذاء الإيطالي، تتخلَّل هذه المنطقة سلاسل جبال الإبنين المتوازية التي تقسمها إلى تلال ووديان تجعل الاتصال صعباً بين الساحلين الغربي والشرقي، وبين شبه الجزيرة وحوض البو، تبلغ سلسلة الإبنين أقصى ارتفاعها في جانبها الشرقي حيث تقترب من البحر الأدرياتيكي، فلا تترك سوى شريط ساحلي ضيق تقطعه سيول جارفة، أما الجانب الغربي من الجبال فهو منخفض، بينه وبين البحر مساحة فسيحة تحوي منخفضات أو سهول ثلاثة هي: أترويا، و لاتيوم، و كمبانيا، وتجري في غرب جبال الإبنين أنهار متوسطة الطول صالحة لملاحة السفن الصغيرة، مثل نهر أرنو Arnus، ونهر التيبر Tiberis، ونهر ليريس Liris، ونهر فولتورنوس Volturnus.

ثانياً: لمحة تاريخية:

تُعدُّ منطقة إقليم لاتيوم من أقدم المناطق المأهولة[١] في شبه الجزيرة الإيطالية، قامت في هذا السهل مدينة روما صاحبة الفضل الأول على التاريخ الإيطالي القديم، وسُمِّيت باسمها حضارة تلك البلاد، وقد ساعد موقعها في وسط إيطاليا، وإشرافها على نهر التيبر – الذي تحدُّه من ضفته اليسرى (الشرقية) قرب مصبه ثلاثة تلال، وإلى الشرق منه ثمة أربعة تلال أخرى تتاخم مجرى النهر، ولهذا السبب سُمِّيت روما بالمدينة ذات التلال السبعة– في تحقيق أهدافها التوسعية، حيث دانت لها شبه الجزيرة الإيطالية كاملة، وغدت مع مرور الزمن سيدة إيطاليا بلا منازع، ودخلت البلدان الواقعة على حوض البحر المتوسط كلها تحت نفوذها وهيمنتها.

سكن سهل اللاتيوم اللاتين الذين كانوا يعيشون حياة بدائية زراعية حتى القرن السابع قبل الميلاد، ثم ما لبثت أن دخلت هذا السهل مجموعات الإتروسكيين في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وهناك شبه اتفاق على أن روما أُنشئت عام ٧٥٣ ق.م لتكون، على الأغلب، قلعة محصَّنة للدفاع عن اللاتين ضد غزوات الإتروسكيين الذين كانوا يعيشون شمال نهر التيبر.

---

(١) اكتُشِف وجود أقدم مساكن لجماعة بشرية سكنت في إيطاليا القديمة، وذلك قرب مدينة روما، في غربها، في موقع يُسمَّى الآن توريمبيترا Torimpietra، كذلك اكتُشِفت جماجم لإنسان النياندرتال في منطقة تُدعى ساكوباستورى Saccopstore على مقربة من مدخل مدينة روما، للمزيد انظر:
السعدانى، محمود إبراهيم، المرجع السابق، ص ٤٢.

أما نشأة مدينة روما، فالمؤرِّخون يروون قصة نشوئها[1] على نحو أسطوري، مفادها أن رومولوس وأخاه ريموس هما اللذان وضعا أسس المدينة سنة ٧٥٣ ق.م، بعد أن وقع اختيارهم على منطقة اللاتيوم، وقد اختارت الآلهة رومولوس لوضع أسس المدينة، فأخذ محراثه ذا السن النحاسي، وراح يشقّ أخدوداً حول تل اللاتيوم محدِّداً بذلك سور المدينة، وترك في السور ثلاثة أبواب رئيسة للمدينة، بعد ذلك أمر رومولوس أتباعه من اللاتينيين والألبيين بأن يباشروا فوراً ببناء السور الذي يحيط بمدينته ويحميها، وأصبح ذلك السور مقدَّساً، ولم يعد بمقدور أي إنسان أن ينتقل من خارج المدينة إلى داخلها إلا من الأبواب، لكن ريموس استشاط غضباً لأنه لم يقع اختيار الآلهة عليه في وضع أسس المدينة عبر الحائط، وخاطب أخاه قائلاً: "هل لمثل هذه الحواجز أن تصون مدينتك، فاستشاط رومولوس غضباً، ودفعه ذلك إلى قتل أخيه ريموس صائحاً: "هكذا سيهلك كل من يجتاز أسوار مدينتي هذه"، وظل رومولوس السيد الوحيد، وارتفعت أسوار روما على الدماء.

مهما يكن من أمر الأساطير، فإن الروايات التاريخية تذكر أن مدينة روما نشأت في القرن الثامن قبل الميلاد، من سبع قرى فوق سبعة تلال شرقي نهر التيبر وغربه الذي يخرق سهل اللاتيوم ليصبَّ بعد ابتعاده عن روما في البحر الأيوني المتصل بالبحر المتوسط.

---

(١) علي، عبد اللطيف أحمد، التاريخ الروماني، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٩، ص١٤١ وما بعد.

سكن السابينيون في أربع قرى، واللاتينيون في ثلاث منها، وهذا يفسِّر تعاقب الملوك اللاتينيين والسابنيين على عرش روما، ومن بعدهم الإتروسكيين الذين احتلوا المنطقة.

مرَّت روما خلال تاريخها بثلاثة عهود:

١- **العهد الملكي**: الذي يُعرَف بالعهد الإتروسكي، حيث كان الإتروسكيون يسيطرون على منطقة أتروريا، ثم أخذوا يتوسَّعون في المناطق المجاورة، فسيطروا على سهل اللاتيوم ومدينة روما، وكذلك على منطقة سهل البو في شمال إيطاليا، حتى أصبحت منطقة إيطاليا خاضعة لسيطرتهم في القرن السادس قبل الميلاد. بدأ العهد الملكي في روما عام ٧٥٣ ق.م، وانتهى ٥٠٩ ق.م بسقوط النظام الملكي، وبطرد الإتروسكيين من روما، وقد حكم روما في العصر الملكي ملك لاتيني واحد، وثلاثة ملوك سابينيين، أعقبهم ثلاثة ملوك إتروسكيين امتد حكمهم من ٦١٦ – ٥٠٩ ق.م.

٢- **العهد الجمهوري**: بدأ بطرد الملوك الإتروسكيين الأجانب من روما، وتسلم العناصر اللاتينية والسابينية التي أصبحت بعد اتحادها تحمل اسم الرومانيين، لزمام الحكم، أقام الرومانيون في روما نظاماً جمهورياً أرستقراطياً امتدَّ من سنة ٥٠٨ إلى سنة ٣٠ ق.م، وخاضوا حروباً طويلة ضد تحالف بعض المدن اللاتينية في سهل اللاتيوم عُرِفت باسم الحروب اللاتينية، وانتصروا فيها، كذلك واجه الرومان غزوات الغاليين الذين هاجموا روما من الشمال، وردوهم على أعقابهم، كذلك خاضوا حروباً ضد المستعمرات اليونانية في جنوب إيطاليا، وانتصروا

عليها، وأخضعوها لسيطرتهم حتى تمكَّنوا من توحيد إيطاليا تحت زعامتهم.

كما خاض الرومان حروباً خارجية، ومدُّوا نفوذهم إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط، فاصطدموا بقرطاجة التي أسَّسها الفينيقيون في شمال إفريقيا، واستمرت الحرب بين قرطاجة وروما قرناً ونيف من الزمن، تمكَّن القرطاجيون خلالها من تهديد العاصمة الرومانية بقيادة زعيمهم هانيبال، لكن دفاع الرومانيين عن مدينتهم، وفتحهم بعض المعارك الجانبية في صقلية وسردينيا وإسبانيا دفع هانيبال إلى الانسحاب من إيطاليا، والتنازل عن بعض المناطق في حوض المتوسط لصالح روما، ثم ما لبث الرومان أن حاصروا قرطاجة، ودمَّروها كلها، وأعادوا سيطرتهم على حوض البحر المتوسط دون منازع.

٣- **العهد الإمبراطوري:** أخذ النظام الجمهوري في القرن الأول قبل الميلاد يحتضر بعد أن حاول بعض الزعماء السياسيين الاستئثار بالسلطة، وفرض نوع من الحكم الديكتاتوري، فنشبت الفتن والاضطرابات، لكن عندما تسلَّم أوكتافيانوس أوغسطوس الحكم سنة ٣٠ ق.م، اتبع سياسة إصلاحية انتهت ببدء عهد جديد هو النظام الإمبراطوري، الذي امتدَّ حتى سنة ٤٧٦م، حيث سقطت روما على يد البرابرة الجرمانيين.

ثالثاً: الحياة السياسية والإدارية:

أ- العهد الملكي:

اختلفت الحياة السياسية وجهاز الحكم في روما من عهد إلى آخر، ففي العهد الملكي كانت السلطة العليا تتألَّف من الملك، ومجلس الشيوخ، والجمعيات الشعبية، ومجلس ممثِّلي الوحدات أو الجماعات.

١- **الملك**[١]: (إمبريوم) كان الملك هو الرئيس الفعلي للدولة، يصل إلى الحكم عن طريق الانتخابات، وبعد موت الملك تعود سلطاته جميعها، ولمدة مؤقتة، إلى مجلس الشيوخ، حيث يمارس كل عضو من الشيوخ صلاحيات الملك لمدة خمسة أيام، ويتناوب الشيوخ في ممارسة الصلاحيات الملكية حتى يُنتخَب الملك الجديد، ولا يصبح ملكاً شرعياً إلا بعد أن يُجمِع مجلس الجماعات ويُوافق على تعيينه، وتتم الموافقة بالهتاف الجماعي، ثم يصدر بعد ذلك عن مجلس الجماعات قانون يُمنَح بموجبه الملك المختار السلطان المطلق، ويُنتخَب على مدى الحياة، مثَّل الملك السلطة العليا في النواحي السياسية والعسكرية والدينية والقضائية، فهو الذي يعيّن الشيوخ، ويرأس مجلسهم، ويدعو مجلس الجماعات للانعقاد، ويرأس مجلسهم، ويقود الجيش، ويرأس القضاء، وينظر في الجرائم التي تمسُّ أمن الدولة، مثل الخيانة العظمى والعصيان وما شابه ذلك من الجرائم، والملك هو نائب الإله على الأرض، والصلة بين الشعب والآلهة، وليست هناك قوانين تحدُّ سلطته.

٢- **مجلس الشيوخ:** يمثِّل إلى جانب الملك مؤسَّسة مهمة، ازدادت أهميتها في العصر الجمهوري لتصبح الجهاز الأساسي للحكم في مدينة روما.

---

(١) السعدانى، محمود إبراهيم، المرجع السابق، ص٧١ وما بعد.

أُلِّف مجلس الشيوخ من رؤساء الأسر الكبيرة (شيوخها)، وكانت سلطاته استشارية، ومن مهماته المحافظة على أعراف الأجداد وتقاليدهم، وممارسة السلطة الملكية مؤقتاً (عند وفاة الملك كما ذكرنا أعلاه)، وهو الذي يقترح على مجلس الجماعات اسم المرشَّح للمنصب الملكي كي ينال موافقته، ويمنحه السلطات التنفيذية العليا، كما أن الملك هو الذي يعيِّن أعضاء مجلس الشيوخ شريطة ألّا يقلَّ عمر أحدهم عن خمسة وأربعين عاماً، وكان الملك يستشير المجلس في القضايا المهمة، ومن واجب المجلس أن يقدِّم النصيحة للملك، ويحافظ على تقاليد الأجداد، ويُشرِف على قرارات مجلس الجماعات، ويحقُّ له أن يُعيد القرار إليه لإعادة دراسته، ويمتنع عن نشره والسماح بتنفيذه.

٣- **مجلس الجماعات:** انقسم سكان روما الأوائل إلى ثلاث مناطق، وكل قبيلة إلى عشر وحدات، وكانت كل وحدة تنتخب ممثِّلاً عنها لهذا المجلس، وهكذا بلغ عدد أعضائه ثلاثين عضواً، من مهام مجلس الجماعات الموافقة على مقترح مجلس الشيوخ للشخص المرشَّح لمنصب الملك عن طريق الهتاف، وإعلان حالة الحرب والسلم، والتصويت على المشاريع المتعلقة بشؤون الأحوال المدنية والقضائية، وإصدارها بوصفها قوانين بعد التصويت عليها، كذلك يحقُّ لمجلس الجماعات مراجعة الأحكام الصادرة عن الملك أو بعض نوابه، أما قراراته فتُقرُّ حسب رأي الأكثرية، ولكنها لا تُعدُّ نافذة ما لم يوافق عليها مجلس الشيوخ، كما ذكرنا أعلاه، لذا لم يكن دور مجلس الجماعات كبيراً مقارنة مع صلاحيات مجلس الشيوخ أو الملك، وسيتضاءل دورهم أكثر عند تأسيس المجلس المئوي.

وإذا كان الملك قد مثَّل الجانب الملكي من الحكم، فإن مجلس الشيوخ مثَّل الجانب الاستشاري، ومجلس الجماعات مثَّل الجانب الديمقراطي.

ب-**العهد الجمهوري:**

أما نظام الحكم[1] في العصر الجمهوري الذي ساد طيلة خمسة قرون (٥٠٨-٣٠ ق.م)، فلم يكن النظام يستند إلى دستور مدوَّن، وإنما يعتمد على الأعراف والتقاليد الرومانية القديمة، ولم يلغِ الجمهوريون منصب الملك، بل جرَّدوه فقط من سلطاته السابقة تاركين له سلطة دينية رمزية.

١- **القناصل:** حلَّ محلَّ الملك فعلياً قنصلان يُنتخبان من المجلس المئوي، ويحكمان معاً لمدة سنة واحدة فقط غير قابلة للتجديد، ويتمتّع كلٌّ منهما بسلطات الملك جميعها، وهما مسؤولان عن أعمالهما، ويُحاسبان عليها بعد انتهاء مدة حكمهما على يد مجلس الشيوخ، ولكلٍّ منهما حق الاعتراض (فيتو) على أعمال زميله، فكل عمل يقوم به أحدهما من دون موافقة الثاني يُعدُّ ملغياً من الناحية القانونية، ومن مهامهما دعوة مجلس الشيوخ أو المجلس المئوي للتصويت على قراراتهما كاملة بنعم أو لا فقط، من دون حق مناقشتها أو تعديلها.

٢- **الدكتاتور:** عرف النظام الجمهوري منصب الدكتاتور، الذي يُلجأ إليه عند تعرض البلاد لخطر خارجي أو صراع داخلي، حيث يُعلِن مجلس الشيوخ حالة الطوارئ، ويطلب من القنصلين الاستقالة، وتعيين دكتاتور واحد يكون غالباً من القناصل السابقين، وتُمنَح له السلطات

---

(١) السعدانى، محمود إبراهيم، المرجع السابق، ص:٧٥ ومابعد.

كلها لمدة ستة أشهر لا تتجدَّد، ويُحاسَب الدكتاتور على أعماله بعد انتهاء مدة حكمه، وعندما تُعلَن حالة الدكتاتورية يتوقَّف الحكام جميعهم عن ممارسة صلاحياتهم باستثناء نُقباء العوام، تلك المؤسَّسة التي تضمُّ أشخاصاً عدة يتولَّون حماية العامة والدفاع عنها، وتُعرَف باسم المحامين عن الشعب، أو نقباء العوام، وتنحصر مهمة من يتولَّى هذا المنصب في الدفاع عن حقوق عامة الشعب.

٣- **مجلس الشيوخ:** استمر في العهد الجمهوري، وأصبح القناصل يُعيِّنون أعضاءه، وكان الشيوخ يُختارون من بين القناصل والقضاة وغيرهم من كبار الموظَّفين القدماء، طيلة الحياة، وقد زادت سلطة هذا المجلس في العهد الجمهوري، إذ كان يستقبل السفراء ويعيِّنهم، ويُشرِف على المفاوضات السياسية الخارجية، وهو مخوَّل بالمحافظة على التقاليد والأعراف، ويُشرِف على الاحتفالات والطقوس الدينية، ويقرِّر الأعياد، وإليه تُرفَع التقارير والشكاوى من حكَّام الأقاليم، وكذلك يدعو القنصلان مجلس الشيوخ للاجتماع معهما، وهما اللذان يرأسان الاجتماعات.

٤- **مجلس الجماعات:** هو من المجالس التي سادت في العهد الملكي، واستمرت في العهد الجمهوري، واقتصرت مهمته في هذا العهد على الموافقة على انتخاب القناصل من المجلس المئوي، ومنح القناصل السلطة التنفيذية والقضائية والمدنية والعسكرية، لكن دوره تضاءل عما كان عليه في العهد الملكي.

٥- **المجلس المئوي:** هو من المجالس التي مارست السلطة في العهد الجمهوري، من مهامه تعيين موظَّفي الدولة، وانتخاب القناصل،

والتصويت على مشاريع القوانين، وإعلان حالة الحرب في البلاد، والنظر في أحكام الإعدام الصادرة بحق المواطنين.

ج- **العهد الإمبراطوري:** حافظت السلطة الحاكمة على بقاء المؤسَّسات والمجالس التي كانت في العهد الجمهوري مع تغيير في مهامها وصلاحياتها، إضافة إلى إحداث مؤسَّسات ومناصب جديدة، فقد جمع الإمبراطور بيده السلطات كلها، وأبقى في الوقت نفسه منصب القنصلين، ومجلسَي الشيوخ والجماعات، لكن تميَّز هذا العهد بظهور نظام وراثة العرش، فكان الإمبراطور يشارك ابنه في الحكم ليرأس المنصب الإمبراطوري بعده.

رابعاً: الجيش:

كان للجيش والشأن العسكري عند الرومان أهمية خاصة، فالدولة الرومانية قامت أساساً على القوة، وارتهنت قوتها واستمراريتها وتوسعها بوجود جيش قوي ومدرَّب، تكوَّن الجيش في العهد الملكي استناداً إلى التنظيم القبلي Tribus من نبلاء وأتباع "الجماعات الكبرى"، ومثَّل أفرادها عماد الجيش في العهد الملكي، وكان لكل قبيلة نقيب يُدعى تربيوناً Tribunus، مهمته تجنيد الرجال من قبيلته، وجمع المال المفروض عليه من قبل الملك(١).

ضمَّ الجيش ثلاثين وحدة مقاتلة، وضمَّت الوحدة مئة جندي راجل وعشرة فرسان، وبذلك كان عدد الجيش ٣٠٠٠ جندي راجل، و٣٠٠ فارس، وبناء عليه كانت كل قبيلة من القبائل الثلاث تقدِّم ١٠٠٠ جندي

(١) نصحي، إبراهيم، المرجع السابق، الجزء الأول، ص٩٩.

راجل، و١٠٠ فارس[١]، كان الملك يقود الجيش بنفسه، ويعقد المعاهدات، لكنه لا يستطيع أن يقرّر الحرب والسلم بنفسه[٢]، وإنما كان هذا القرار بيد مجلس الجماعات الذي يضمُّ ثلاثين وحدة تنضوي تحت لواء القبائل الثلاث سابقة الذكر. يُعدُّ سلاح الفرسان القوة الضاربة في الجيش الروماني في هذا العصر، وقد ضمَّ في البدء النبلاء فقط، ثم انخرطت فيه فرق المشاة الأتباع، وكانت أسلحتهم مصنوعة من البرونز والحديد، ومؤلَّفة من خوذة ودرع وزرد وحربة وسيف قصير.

ثم تطوَّر النظام العسكري في العصر الجمهوري، وأصبح أكثر الأنظمة العسكرية نجاحاً، وعقد مع المواطنين وحدة وثيقة الارتباط، وقوة عسكرية ليس لها مثيل، حيث تكاملت معداته وتنوَّعت خططه، ومع اتساع نطاق الحروب الرومانية، اضطرت روما إلى زيادة عدد المواطنين الرومان الذين أُلقِي على عاتقهم عبء الخدمة العسكرية، وأصبح عدد المشاة في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد أربعة آلاف مقاتل، وعدد الفرسان ستمئة فارس، ونُظِّمت فرق المشاة في مجموعات سُمِّيت "كتائب" على غرار ما كان مألوفاً في الجيوش الإغريقية.

زاد عدد الجيش في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد حتى وصل إلى ستة آلاف مقاتل، ممن تتراوح أعمارهم بين السابعة عشر والخامسة

---

(١) نصحي، إبراهيم، المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٥٨-١٥٩.

(٢) محفل، محمد، الزين، محمد، دراسات في تاريخ الرومان، الجزء الأول، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٥-١٩٩٦، ص٢٧.

والأربعين[١]، وتألَّف من فرق المشاة الثقيلة، وكان كل جندي فيها يُسلَّح بحربتين (خنجر وسيف)، ويلبس خوذة من البرونز، ودرعاً من الزرد، وجرموقا[٢]ومجناً[٣].

أصبح الجيش الروماني منذ القرن الرابع قبل الميلاد يضمُّ أربع فرق تتوزَّع على جيشين يقودهما قنصلان، كل قنصل يقود جيشاً مؤلَّفاً من فرقتين، في كل فرقة ثلاثة آلاف جندي من المشاة ذوي السلاح الثقيل (مسلَّحين بالسيف والرمح الثقيل)، وألف ومئتا جندي من المشاة المسلَّحين تسليحاً خفيفاً (مسلَّحين بالسيف وأسلحة القذف المختلفة مثل القوس والمقلاع والرماح القصيرة)، وثلاثمئة خيَّال، ويختلف عدد جنود الفرقة من معركة لأخرى[٤].

لا نعرف الكثير عن التغيرات التي طرأت على الجيش الروماني في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، باستثناء ما قدَّمه المؤرِّخ بوليبيوس، الذي ذكر أن الجيش الروماني تألَّف في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد من أربع فرق، كل فرقة تضمُّ أربعة آلاف ومئتي جندي من المشاة المنظَّمين في ثلاثة صفوف وفقاً للثروة والسن، على النحو الآتي:

الصف الأول: تألَّف من الرمَّاحة، وعددهم ألف ومئتا مقاتل.

---

(١) العمر، بديع، الجيش الروماني البري في الفترة الإمبراطورية: ٣١ق.م-٢٨٤م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠١٠، ص٥٣-٥٤.

(٢) الجُرْمُوق: الخُفُّ القصير يلُبس فوقَ خُفٍّ. والمجَنُّ: التُّرْس.

(٣) نصحي، إبراهيم، المرجع السابق، الجزء الأول، ص١٦٠.

(٤) العمر، بديع، المرجع نفسه، ص٥٧.

الصف الثاني: تألَّف ممن يُعرَفون بالزعماء المتقدون، وعددهم ألف ومئتا مقاتل.

الصف الثالث: تألَّف ممن يُعرَفون بمقاتلي الخط الثالث، وعددهم ستمئة مقاتل.

تتألَّف الصفوف الثلاثة السابقة من المشاة ثقيلي العُدَّة وخفيفي العُدَّة، وتلحق بهم وحدة الفرسان التي تتألَّف من مئتي فارس منقسمين إلى عشر فصائل.

أما بالنسبة لتقسيمات الفرقة، فكل فرقة مقسَّمة إلى عشرين سرية موزَّعة توزيعاً متساوياً بين الصفوف الثلاثة، وكل سرية تضمُّ وحدتين مقاتلتين، في كل وحدة ستون جندياً في الصف الأول والثاني، وثلاثون جندياً في الصف الثالث، وكان يلحق بكل وحدة مقاتلة عشرون جندياً من المشاة خفيفي العُدَّة، ويتولَّى القنصل قيادة الفرقة، ويعاونه ستة ضبَّاط يُلقَّبون بترابنة الجنود(١).

ظلت أنظمة الجيش الروماني على ما هي عليه حتى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، حيث قام القنصل ماريوس بإصلاحاته الشهيرة في الجيش الروماني بين عامي ١٠٥-١٠٢ق.م، وتمثَّلت تلك الإصلاحات في إعادة تنظيم الجيش، وتغيير طريقة تسليحه وتدريبه وأسلوب قتاله، حيث ألغى نظام تكوين الجيش على أساس الثروة، فتساوى الجنود، وتسلَّحوا بسلاح موحَّد هو السيف والحربة الطويلة، وأصبحت الفرقة تتألَّف من ستة آلاف جندي، وانقسمت إلى عشر وحدات، وحلَّت الوحدة

---

(١) علي، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص٥٤.

محلَّ السرية، وجعل لكل فرقة راية أو شعاراً على شكل نسر مزخرف بإكليل من الذهب أو الفضة، كذلك ألغى وحدة الفرسان والمشاة خفيفي التسليح[١]، وقد استمر الرومان في استخدام هذا الأسلوب حتى بداية العصر الإمبراطوري.

أصبحت مهمة الجيش، في العهد الإمبراطوري، المحافظة على أمن الأقاليم، والدفاع عن حدود الإمبراطورية، وغدت قواته تتألَّف من:

١- الحرس الإمبراطوري الخاص: تُختار عناصره من فرق الجيش الروماني، مهمته الحراسة الشخصية لمقر إقامة القائد الأعلى (الإمبراطور) وخيمته، وحراسته أينما ارتحل سواء داخل روما أم خارجها، وضمَّت هذه الفرقة جنوداً مشاة وفرساناً، يقودها ضابطان برتبة برايفكتوس، وأصبحت تُعرَف فيما بعد بوحدات الحرس الإمبراطوري[٢].

٢- الفرق[٣]: مثَّلت عماد الجيش في العصر الإمبراطوري، من حيث ظروف الخدمة العسكرية والتجنيد، ومن حيث التأليف والتنظيم، اختيرت عناصرها من سكان روما الذين يملكون حقوق المواطنة عن طريق التطوع الاختياري، على عكس ما كانت عليه الحال في العهد الجمهوري، أهم هذه الفرق:

أ- فرقة حرس مدينة روما وحمايتها.

---

(١) علي، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص٥٥.

(٢) العمر، بديع، المرجع السابق، ص٧٠-٧١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٠ وما بعد.

ب–فرق الجيوش الإقليمية التي يرابط قسم منها في الشرق، وقسم آخر في الغرب، وقسم ثالث على ضفاف نهر الدانوب في الشمال، وغالباً ما كان يحدث صراع بين تلك الفرق، بسبب رغبة كل منها في إيصال مرشَّحها إلى العرش الإمبراطوري، وكثيراً ما كانت نتيجة هذا الصراع موت الأباطرة قتلاً.

خامساً: القانون والحياة الاجتماعية:

لم يكن القانون الروماني [1] في العهد الملكي مدوَّناً، لذا كان الرومان يعتمدون في حل القضايا على ما كان سائداً من أعراف وتقاليد، وعلى بعض المراسيم الملكية والوصايا الكهنوتية، وكان القضاة من رجال الدين يفسِّرون الأعراف والسنن كما يشاؤون، ومع مرور الزمن، في مطلع العصر الجمهوري بدأت طبقة العوام تكافح وتناضل لإرغام الطبقة الحاكمة من قناصل وشيوخ على وضع قانون واضح مدوَّن يسري على الطبقات كافة، وتحت الضغط عُيِّنت لجنة من عشرة أعضاء لوضع مشروع القانون الروماني المشهور.

وأرسلت اللجنة وفداً إلى اليونان للاطلاع على قوانين المشرِّع اليوناني صولون، وبعد ذلك وضعت اللجنة المكلَّفة بعض المواد القانونية ودوَّنتها على عشرة ألواح خشبية، ثم أضافت إليها بعد مدة بعض النواقص مدوَّنة على لوحين آخرين، فأصبح عدد الألواح القانونية اثني عشر لوحاً عُلِّقت سنة ٤٤٩ق.م في الفوروم، ليطّلع عليها المواطنون جميعاً.

---

(١) مصطفى، عمر ممدوح، القانون الروماني، الطبعة الثانية، مطابع البصير، الاسكندرية، ١٩٥٤.

كانت تلك القوانين تسجيلاً لبعض الأعراف والتقاليد والأحكام التي تعود بأصولها إلى العهد الملكي، مع بعض البنود الجديدة التي تطلَّبتها التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في ذلك العصر.

وقد عُدِّلت القوانين منذ أواسط القرن الثاني قبل الميلاد لتلبية حاجة الدولة بعد أن اتسعت رقعتها، وكثرت شعوبها، وتغيَّرت ظروفها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. أهم مصادر التشريع عند الرومان هي القوانين التي يقترحها الحكَّام، وتصويت المجالس المختصة عليها، ومراسيم مجلس الشيوخ، واجتهادات الفقهاء وآراؤهم وفتاواهم.

يُعدُّ القانون الروماني من أكمل ما وصَلَنا من قوانين العصور القديمة وأرقاها صيغةً وموضوعاً، فقد تميَّز باعتماده على العقل، وبمبدأ ضرورة النظر إلى روح القانون في الحكم، لا إلى حرفية النص، وتُعدُّ نصوص القوانين الرومانية من المصادر التاريخية المهمة في التعرف إلى بعض جوانب الحضارة الرومانية القديمة.

أما فيما يخصُّ الحياة الاجتماعية، فقد كانت الأسرة[١] عماد المجتمع الروماني، والفرد عنصر مهم فيها، وكان المجتمع الروماني يستند إلى نظام الجماعات، ولم يقم الفرد بأي دور في ذلك الوقت المبكر إلا بوصفه عضواً في جماعة، وكانت الأسرة أصغر الجماعات، يكسب أفرادها قوتهم من زراعة الأرض، ولم تكن تضمُّ الأب والأخ والأولاد فقط، بل أتباعهم من المستعَبدين والأحرار (مثل الأسرى وأبنائهم، أو الذين استُرِقُّوا لعجزهم عن الوفاء بالدين، أو وبيعوا في أسواق النخاسة)

(١) السعدانى، محمود إبراهيم، المرجع السابق، ص:٦١ وما بعد.

أيضاً، كانت السلطة المطلقة في يد ربِّ الأسرة، وهو الأب والزوج، الذي كان يمارس على الزوجة والأولاد سلطة الأب، وعلى العبيد سلطة السيد، وعلى الأتباع حق الحماية والرعاية، ومن مهامه إدارة أعمال الزراعة، والفصل في مختلف المنازعات التي تنشأ بين الأولاد، ومعاقبة مرتكبي الجرائم.

أما الزوجة فتقع عل عاتقها الأعمال المنزلية الضرورية، مثل الطهو وغزل الصوف لصنع الملابس للأسرة، وكانت لها حرية التصرف داخل المنزل، فهي صاحبة الكلمة العليا داخل جدرانه، أما الأولاد فقد تربُّوا على تلبية الأمر والطاعة والنظام، وتمثَّل عملهم في مساعدة الأب في إنجاز الأعمال خارج المنزل، ومساعدة الأم داخله.

أما فيما يتعلَّق بالترتيب الاجتماعي للمجتمع الروماني، فقد انقسم في العهد الملكي إلى طبقات عدة، هي:

١- طبقة النبلاء أو الأشراف: هم سكان روما الأصليون من العناصر اللاتينية والسابينية والإتروسكية، وينتسب إلى هذه الطبقة ما عُرِف في روما "بالجماعات الكبرى"، ويمتلك أفرادها الأراضي الزراعية، ويتمتَّعون بالحقوق العامة، مثل حق الانتخاب والترشيح للمجالس والمناصب.

٢- طبقة الأتباع: تضمُّ الجماعات الصغرى من عناصر سابينية ولاتينية افتقرت وأفلست، فهم أناس أحرار، وليسوا عبيداً، لكنهم اضطرُّوا إلى تقديم أنفسهم إلى أحد الأسياد الأغنياء، والدخول تحت حمايته، فربطوا مصيرهم بحياة سيدهم ومصيره، وعاشوا حيث يعيش سيدهم، وكانوا يتردَّدون على بيت الأسرة، ويلبُّون طلباتها.

٣- طبقة العوام (العامة): من أكثر الطبقات عدداً، تضمُّ الغرباء الذين ارتحلوا إلى روما، وأخذوا يعملون في الصناعة والتجارة، وهؤلاء الذين افتقروا من سكان روما الأصليين، وهؤلاء الأتباع الذين تحرَّروا من تبعيتهم، وهؤلاء لا يتمتَّعون بالحقوق العامة ولا الخاصة، وقد أُعفوا من الخدمة العسكرية ودفع الضرائب.

٤- طبقة العبيد والعُتَقَاء (الأرقَّاء المحرَّرين): تمثِّل هذه الطبقة أدنى طبقات السُّلَّم الاجتماعي، ضمَّت العبيد من أسرى الحروب والقرصنة، والأحرار المباعين بسبب الفقر، أو الذين تخلَّفوا عن سداد ديونهم.

اتصف العهد الجمهوري بدوام الصراع الطبقي بين العوام وغيرهم من الكادحين من جهة، وبين طبقة النبلاء التي يمثِّلها مجلس الشيوخ من جهة أخرى، وقد أسَّس العوام جمعيات خاصة لتناقش أمورهم وتدافع عن حقوقهم.

استمر النظام الطبقي[١] في العصر الإمبراطوري، فتكوَّن المجتمع الروماني من طبقات عدة، مثَّلت هرماً متفاوت الدرجات على النحو الآتي:

١- الطبقة الحاكمة (السناتوس): هي طبقة قليلة العدد، حكمت الإمبراطورية من العاصمة روما، وكان أغلب أفرادها من كبار ملَّاكي الأراضي، وأصحاب الإقطاعات الواسعة، سواء ما كان منها في إيطاليا نفسها، أم في الولايات الخارجية.

---

(١) السعدانى، محمود إبراهيم، المرجع السابق، ص١٣٠-١٣١.

٢- طبقة رجال الأعمال: اتسمت بكثرة عدد أفرادها، وضمَّت بعض ملَّاكي الأراضي، وتمتَّع أفرادها بالجاه والنفوذ، وكانوا يؤلِّفون أرقى الطبقات ثراء بعد السناتوس في العاصمة روما، وفي بقية مدن إيطاليا.

٣- الطبقة العاملة: ضمَّت أرباب الحِرَف في المدن، وملَّاكي الأراضي من الفلاحين الأحرار ومن العبيد والمستأجَرين المستقرين في الضياع العائدة لملَّاكي الأراضي.

سادساً: الحياة الاقتصادية:

تطوَّرت الزراعة عند الرومان، ولاسيما بعد اتساع مساحة الأراضي العامة التي امتلكتها الدولة بعد اتساع نطاق الإقليم الروماني، نتيجة نجاحهم في الحروب التي خاضوها، فزرعوا مساحات واسعة من القمح الذي استُخدِم في صناعة الخبز، وقد عرف الرومان أصنافاً عدة من القمح، حيث أصبح المحصول الرئيس إلى جانب أنواع أخرى من الحبوب والبقوليات والخضروات، مثل العدس والفاصولياء والبازلاء والبصل والثوم والكراث والقرنب وغيرها.

كذلك اهتمَّ الرومان بتربية الحيوانات، ولاسيما الثيران والأبقار والحمير والأغنام والماعز والخنازير والدجاج والإوز، وقد ربُّوا الأغنام من أجل ألبانها وصوفها، والأبقار والحمير من أجل الحراثة والنقل، كما شاعت تربية النحل لشدة حاجتهم إلى العسل من أجل استخدامه بدلاً من السكر.

إلى جانب الزراعة وتربية الحيوانات، مارس الرومان بعض الحِرَف والتجارة، وتشجيعاً لها لم يُستدعَ أرباب الحرف والتجَّار للخدمة العسكرية إلا في أوقات الضرورة القصوى، وقد اقتصر العمل بالحرف

على بعض العامة من الرومان والإغريق، نزلاء روما الذين جذبتهم إليها أهمية مكانتها، وتشجيع الحكومة من أجل سدّ حاجات السكان الملحَّة. عاش الرومان في العهد الملكي حياة بسيطة اتسمت بالتقشف، ولم تزدهر إلا بعض الحرف المتعلِّقة بصناعة معدَّات القتال، والدليل على ذلك وصول السفن الفينيقية والإغريقية إلى إيطاليا محمَّلة بالبضائع التي تسدُّ حاجات سكانها، لكن في العهد الجمهوري تطوَّرت الحِرَف، ونشأت وُرَش للمصنوعات البرونزية، وتطوَّرت صناعة الفخار، وصياغة الأدوات الذهبية والفضية وزخرفتها.

وقد وقَّعت روما الكثير من المعاهدات من أجل تقوية التجارة، منها معاهدة مع قرطاجة اعترفت لها بموجبها باحتكار التجارة في غرب البحر المتوسط، وأباحت لتجارها دخول روما وأقاليمها بوصفهم تجاراً، شريطة ألا يشتروا أو يبيعوا إلا ما هو ضروري لإصلاح سفنهم، وأداء شعائرهم الدينية، وألا تطول مدة إقامتهم أكثر من خمسة أيام إلا في ظروف الحرب وأحوال الطقس.

استخدم الرومان نظام المقايضة في عمليات التبادل التجاري، لكنهم ما لبثوا أن استخدموا البرونز وسيلة للتعامل، وكان البرونز كتلاً غير مسكوكة، تزن كلٌّ منها رطلاً أو اثنتا عشرة أوقية، وقد أصدرت الدولة الرومانية قانوناً في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد، وقرَّرت بمقتضاه جعل قيمة الثور الواحد أو عشر أغنام معادلة لعشرة أرطال من البرونز تيسيراً للمعاملات، وتسهيلاً لدفع الغرامات للدولة.

ثم ما لبث أن تطوَّر النظام النقدي، واستُخدِمت العملة في التبادل التجاري، وأُنشِئت ورش لسك العملة مهمتها إصدار السبائك التي تزن

كل واحدة منها ستة أرطال، وبعدها أُصدِرت النقود من البرونز والفضة، وصارت العملة الرئيسة في أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية كلها.

سابعاً: الحياة الدينية:

قدَّس الرومان، شأنهم في ذلك شأن الشعوب القديمة، الكثير من الآلهة التي مثَّلت قوى الطبيعة المختلفة، من أهم آلهتهم: جوبيتر[١] الذي كان يمثِّل السماء والشمس والقمر والرعد، ثم أصبح إلهاً للمطر والخصب، وقد شُيِّد له معبد على تل الكابيتول في روما، كما انتشرت عبادته في أنحاء الدولة كلها، وكان يحمل لقب جوبتير العلي الأعظم، وقد اعتاد القادة الرومان على أن يتجهوا إليه فور عودتهم منتصرين من الحملات العسكرية، وخُصِّصت له الكثير من الأعياد السنوية، منها:

١- الألعاب الرومانية: التي تُقام بين ١٤-١٩ سبتمبر.

٢- ألعاب العامة: التي تُقام من ٤-١٧ نوفمبر.

ودرجت العادة أن تُصاحب هذه الأعياد إقامة ولائم دينية رسمية، سُمِّيت بولائم جوبيتر.

وهناك أيضاً إله المريخ (مارس)[٢]، وهو إله الزراعة، ثم أصبح إلهاً للحرب، ورمزاً لروما، وشعاراً لها، ولاسيما أن الشعب الروماني شعب مقاتل خاض الكثير من الحروب، وكان على كل قائد روماني قبل

(١) علي، عبد اللطيف أحمد، المرجع السابق، ص: ٦٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦٧.

الخروج في أية حملة عسكرية أن يهزَّ "حراب مارس" المقدَّسة في قصر الكاهن الأعظم قائلاً: مارس انتبه.

كذلك عبد الرومان إله الزراعة "زحل"، والإلهة يونو (تموز) ملكة السماء والأنوثة والزواج، والإلهة فينوس (الزهرة) ربَّة الجنس والزواج والإخصاب، والإلهة جانو /هيرا/ ربَّة الزواج المقدَّس، وراعية النساء، وكل ما يتصلّ بحياتهن الجنسية، ولاسيما الولادة.

ومن الآلهة الرومانية "فستا" إلهة الموقد، و"منيرفا" إلهة المهارة الفنية والحرف المنزلية مثل الغزل والنسيج وصناعة الفخَّار.

كانت مهمة الدين في روما تأمين رضا الآلهة عن طريق تقديم القرابين لها، وتأدية الطقوس الدينية، وإقامة الاحتفالات المناسبة، وكان تقديم القرابين عن طريق الكهنة، حيث انتظم الكهنة في مجموعات اختصَّت كل واحدة منها بخدمة إله معين، فهناك مجموعة من الكهنة لخدمة آلهة روما، يتصدَّر أفرادها البالغين خمسة عشر عضواً ثلاثةٌ من الكهنة العظام، يقوم أولهم بخدمة جوبيتر، والثاني بخدمة مارس، والثالث بخدمة كورينوس، كما كانت هناك فئة من الكاهنات تخدم في معبد (الإلهة فستا)، وهناك فئة لحراسة الترس المقدَّس، الذي يُعتقَد أنه سقط من السماء، وهناك فئة أخرى اختصَّت بإعلان الحرب وعقد المعاهدات.

عُبِدت الآلهة الرومانية في معابد بناؤها مستطيل الشكل يرتفع عن مصطبة، ويُصعَد إليه بسلَّم مكوَّن من عتبات عدة، وأحياناً كانت المعابد تُبنى على شكل مستدير، وكان أهم ما في المعبد غرفة الهيكل التي يُوضَع فيها تمثال الإله، ولا يدخلها إلا الكاهن، أما المصلُّون فيطوفون حول المعبد فقط. عرف الرومان الكثير من الأعياد، أو ما عُرِف

بالأيام المقدَّسة، فاليومان التاسع والخامس عشر من كل شهر يُحتفَل فيهما بتقديس الموتى والأرواح الشريرة لتجنب أذاها واسترضائها، إضافة إلى أعياد أخرى من هذا النوع يُحتفَل بها في شباط وأيَّار، وكانت تعمُّ البهجة والفرح والسرور في هذه الأعياد، كما كان يُحتفَل في شهر نيسان بعيد الأزهار والينابيع، الذي عُرِف بعيد فلورا، وكان يستمرُّ لستة أيام يسود فيها المرح والسعادة وشرب الخمر.

ثامناً: الحياة العلمية والثقافية:

تعلَّم الرومان الكتابة من الإتروسكيين منذ القرن السادس قبل الميلاد، فدوَّنوا القوانين والمعاهدات، وقرارات مجلس الشيوخ، والشعائر، والجمعيات الشعبية، والقوائم السنوية للحكَّام، وحوليَّات كبار الكهنة.

بعد توحيد شبه الجزيرة الإيطالية تحت سيطرة الرومان، بدأ الأدب الروماني ينمو، وبدأت الأغاني تُنشَد في مأدبات الأثرياء، وظهرت البذور الأولى للمسرح الروماني من خلال الأشعار الشعبية المبتذلة، التي كانت تُنظَم بصيغة حوار، وتُنشَد في حفلات الزواج وأعياد الحصاد ومواكب النصر التي كان يقيمها القادة العسكريون، وقد ترجم الرومان إلياذة هيوميروس، والكثير من المسرحيات الشعرية، وأخذوا كثيراً من علومهم عن الإغريق، ولاسيما في مجال الأدب والفكر والفلسفة، ففي الرياضيات لم يضعوا نظريات جديدة، وإنما طبَّقوا عملياً نظريات العلماء اليونانيين في هندسة البناء، ولم يعرفوا من الطب سوى التداوي بالأعشاب والرُّقى والسحر.

أما في مجال النثر فقد اشتُهِر عدد من الكتَّاب الرومانيين في العهد الجمهوري، منهم فابيوس فيكتور كوليوس، والكاتب المشهور كاتون،

الذي كتب في الخطابة والزراعة والعلوم العسكرية والقانون، واشتُهِر من الخطباء السياسيين يوليوس قيصر وشيشرون، وانتشرت المذاهب الفلسفية في العهد الإمبراطوري، واهتم الرومانيون بالفلسفة الرواقية[١] بصورة خاصة، كذلك ازدهرت العلوم الجغرافية النظرية والعملية، وازدادت المعرفة الجغرافية نتيجة التوسع، فوُضِعت خريطة الإمبراطورية الرومانية ودليل جغرافي، من أشهر الجغرافيين مارنيوس (من صور)، وبطليموس القلوذي (من الإسكندرية)، اللذان ذهبا إلى روما ووضعا أطلساً جغرافياً. كما ازدهر التعليم منذ القرن الأول قبل الميلاد، وأصبحت الدولة تنفق على التعليم وعلى المدرسين، وفُتِحت المدارس في روما وسائر مدن الإمبراطورية.

تاسعاً: العمارة والفنون[٢]:

تميَّزت العمارة عند الرومان بالابتكار والأصالة والإبداع، واختلفت من عهد إلى آخر، ففي العهد الملكي أخذ الرومان عن الإتروسكيين طريقتهم في البناء، فتألَّفت البيوت من سور خارجي وباحة مسقوفة، أو ردهة استقبال في وسطه، وحول هذه الباحة تجمَّعت الحجرات الصغيرة،

---

(١) الرواقية لفظ يطلق على المدرسة الفلسفية الكبيرة التي أنشأها زينون الكتيومى بمدينة أثينا أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، ويطلق على أنصار تلك المدرسة اسم "الرواقيين" أو "اصحاب الرواق" نسبة إلى الرواق المنقوش الذي كانت أعمدته مزينة بنقوش من ريشة الرسام يوليجنوط، وبذلك الرواق كانت تلقى المحاضرات في ذلك العهد، لمعرفة تعاليم هذه الفلسفة ومبادئها انظر: امين، عثمان، الفلسفة الرواقية، مطبعة لجنة التأليف للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥، ص: ٥.

(٢) سلمان، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص٢٧١.

وغالباً ما كان للبيت مدخل ذو أعمدة، أما المعابد فقد تألَّفت من بهو كبير مقسَّم إلى ثلاث حجرات، وقد تأثَّر بناء المعابد عند الرومان في العصر الملكي بالطراز الإغريقي، فكانت الأعمدة والأسقف مصنوعة من الأقواس والقناطر عند مداخل المنشآت المدنية، ولا سيما في الأبنية المبنية لغير الأغراض الدينية، مثل أبواب المدن والأسوار ومجاري المياه، ويبدو أن طريقة بناء الأقواس قد أُخِذت من الحضارات الشرقية عامة، والرافدية والمصرية خاصة، وقد تميَّزت روما بكثرة عدد الأقواس والمنحنيات في أبنيتها، ووصلت إلى ذروتها في العصور اللاحقة.

تطوَّر فن العمارة في العصر الجمهوري، وتميَّز بخضوعه للمؤثِّرات الإتروسكية في مراحله الأولى، ثم للمؤثِّرات الإغريقية الهلنستية في العصور اللاحقة، ولا سيما القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد، وقد استطاع بفضل التفاعل مع هذه التأثيرات أن يتوصَّل إلى تحديد أسلوب وطراز خاصين به، فقد استُخدِمت الحجارة بصورة متزايدة ومنتظمة بدلاً من الخشب، وتغيَّر تصميم البناء من حيث عدد الغرف والحجم، يظهر ذلك واضحاً في المعبد القائم غربي نهر التيبر، الذي بُنِي في أواخر القرن الأول قبل الميلاد، وتميَّز بأعمدته الرشيقة التي بلغ ارتفاعها ما يزيد عن ثمانية أمتار، كما أن الأعمدة الجانبية والخلفية ملتصقة بجدران الهيكل الخارجية، فبدت وكأنها أنصاف أعمدة على نحو يُظهر التأثير الإغريقي فيه.

ثم ما لبث أن تطوَّر فن العمارة في العهد الإمبراطوري، فرُمِّمت المباني القديمة، وأُعيد تخطيطها، وصُمِّمت المعابد من ساحة مربَّعة تُحيط بها قاعات ذات أروقة مؤلَّفة من طابقين، وقد أُضيف إلى هذه

القاعـات الرواقيـة صـالتان لهمـا شـكل المحـراب، يبـدو أنهمـا كانتـا تُستخدَمان للمحاضرات أو ما شابه، وكان يفصلها عن النشاط والضجيج في الفوروم صف من الأعمدة.

وقد صُمِّمت هذه القاعات الرواقية والمحاريب لوضع تماثيل أبطال روما وكبار قادتها فيها، حتى أصبحت شبه متحف، أو قاعة عرض لأجداد السلالة القيصرية، ولمشاهير الرومان والدولة بأكملها.

كانت الأعمدة منحوتة على النظام الكورنثي الذي نشأ عنه تاج مركَّب أكثر زخرفة، أما فيما يتعلَّق بالبيوت، فقد بُنِيت وفق النظام المعماري الروماني التقليدي، نسوق مثالاً على ذلك منزل زوجة الإمبراطور أوغسطوس الذي تألَّف من باحة واسعة مربَّعة الشكل، تطلُّ عليها غرفة وقاعة للاستقبال مؤلَّفة من ثلاثة أقسام، كانت تُزيّنها رسوم بديعة هلنستية الطابع تُعدُّ من أقدم الرسوم الرومانية.

اتسم العهد الروماني بكثرة المباني المشيَّدة وعظمتها، فقد بُنِيت وفق تخطيط معماري يدلُّ على الرقي والتطور الذي وصلت إليه الدولة الرومانية.

أما فيما يتعلَّق بفن النحت، فقد نحت الرومان أشكالاً تمثِّل محاربين وهم يحملون رماحهم، أو تماثيل لحيوانات خرافية، وكانت هذه التماثيل مصنوعة في العهد الملكي من الفخَّار المنتشر في إتروريا كثيراً، ولهذا استُخدِم على نطاق واسع في صنع أعداد كبيرة من النقوش والأواني والتماثيل التي كانت تزيّن القبور والبيوت، وكذلك ازدهرت المصنوعات البرونزية، ولاسيما التماثيل البرونزية.

كما برع الرومان في الرسم، واستخدموا الرسومات لتزيين الأواني الخزفية، وجدران المنازل، وحجرات القبور، وقد صوَّرت الرسوم الجنائزية حفلات المآتم وطقوسها.

أما في العهد الجمهوري، فقد تطوَّر فن النحت، وغلب على منحوتاته التأثير الإغريقي، فنُحِتت الكثير من التماثيل التي زيَّنت مداخل القصور والمعابد، كما اهتمَّ الرومان في هذا العهد بالفنون التزيينية، حيث زُيِّنت بيوت النبلاء وقصورهم بالتماثيل التي دلَّت على المستوى الراقي الذي وصل إليه فن النحت في هذه الحقبة.

استمر فن النحت بالتطور في العهد الإمبراطوري، وتميَّز ببروز ثلاثة اتجاهات:

١- المنحوتات المحافِظة على التراث والصنعة الرومانية البحتة.

٢- المنحوتات التي على الطراز الإغريقي – الهلنستي، فكثيراً ما كانت تُقلِّد التماثيل والمنحوتات الشهيرة.

٣- ظهور طراز جديد يُسمَّى الإغريقي – الروماني، حيث برزت في أعمال هذا الاتجاه الشخصية الرومانية متأثِّرة بالتعاليم الكلاسيكية الإغريقية.

الفصل التاسع

الحضارة الهندية



أولاً– الهند جغرافياً:

نشأت الحضارة الهندية في جزيرة الهند، التي تنقسم إلى ثلاثة أقاليم رئيسة هي: الهند الشمالية، والهضاب الشرقية والغربية، والأرض الجنوبية، يحدُّ الهند من الشمال جبال الهيمالايا والصين وباكستان، ومن الجنوب المحيط الهندي، ومن الشرق بورما وخليج البنغال، ومن الغرب بحر العرب، وتشتمل جزيرة الهند على دول عدة، هي الهند وباكستان وبنغلادش ونيبال.

تُعدُّ الجزيرة الهندية من المناطق الغنية بالماء مما ساعد على ظهور الحضارة الهندية، ففي هذه المنطقة ثلاثة أنهار، من أهمها وأكبرها نهر الهند، الذي ينبع من جبال الهيمالايا، ويفيض في فصل الصيف بسبب ذوبان الثلوج في جبال الهيمالايا، وعلى الرغم من الدمار الذي كان يُحدِثه الفيضان إلا أن السكان أفادوا منه في ري أراضيهم الزراعية، وخزَّنوا قسماً من المياه، وأنشؤوا شبكات لتوزيعها، وعلى ضفاف هذا النهر قامت أقدم حضارة هندية.

أما النهران الآخران، فهما نهر الجنجا ونهر البرهمبترا، يُقدَّر طول النهر الأول بـ ٢٥٠٠ كم، والثاني بـ ٢٦٦٠ كم، ولنهر الجنجا أهميته في الحضارة الهندية، فهو نهر مقدَّس لدى الناس، كانوا يغتسلون بمائه لاعتقادهم بأنه يغسل خطاياهم، كما أنهم كانوا يحرقون الجثث على ضفته، ويلقون الرماد فيه.

ثانياً–حضارة هارابا وموهنجودارو (حضارة وادي السند):

تُعدُّ حضارة هارابا وموهنجودارو من أقدم الحضارات التي عرفتها الهند في عصر البرونز، وعُرِف صنَّاع هذه الحضارة باسم الدرافيديين، ظهرت في الوقت الذي بدأت تظهر فيه الحضارة السومرية في بلاد الرافدين، والحضارة المصرية في مصر في عام ٣٢٠٠ ق.م، تُعدُّ مدينتا هارابا وموهنجودارو من أهم مراكز هذه الحضارة، وإلى جانبهما، شملت هذه الحضارة أربعين قرية ومدينة أخرى، ويبدو أن كل هذه المدن كانت تتبع إلى مملكة واحدة ازدهرت حضارتها في المدة الممتدة من مطلع الألف الثالث إلى منتصف الألف الثاني ق.م.

تفوَّقت حضارة هذه المرحلة على مختلف الصعد، ففي مجال العمارة شُيِّدت المدن المنظَّمة، التي امتازت بشوارعها الواسعة وأسواقها، وزُوِّدت بشبكات لتصريف المياه المستعمَلة، وشيَّد السكان كثيراً من المباني في داخلها، واستخدموا لهذا الغرض الآجر المشوي، واللِّبن المجفِّف تحت أشعة الشمس، والخشب في أعمال البناء، وظهر طراز معماري أُطلِق عليه اسم الطراز الطيني، ولم تُستخدَم الحجارة في أبنية هذا الطراز إلا في بناء الأبواب، والهدف من ذلك حمايتها من الأعداء واللصوص، فالحجر من المواد المتينة التي تزيد من تدعيم البوَّابات[1]. اتسمت عملية البناء بالتنظيم بدليل الشوارع التي كانت تخترق الأماكن التي تضمُّ الأبنية، فقد امتازت الشوارع باتساعها وتنظيمها وتنسيقها، واتصفت الأبنية بكثافتها، ففي موهنجودارو مثلاً لم يكتفِ السكان بتشييد أبنيتهم على السهول، بل شيَّدوا قسماً منها في المناطق الجبلية المرتفعة، ويُعدُّ ذلك إشارة إلى الكثافة السكانية التي شهدتها هذه الحضارة، كما تميَّزت بعض الأبنية بفخامتها، إذ كانت مجهَّزة بالسلالم والحمَّامات وأماكن مخصَّصة لرمي القمامة.

مارس السكان أنشطة اقتصادية متنوعة خلال هذه المرحلة، من أهمها الزراعة التي مثَّلت أساس اقتصاد الدولة، فكان الفلاحون يزرعون الحبوب والفواكه، ويربُّون الأغنام والثيران والأبقار والماعز والجواميس والفيلة والدجاج.

---

(١) الندوي، محمد إسماعيل، الهند القديمة حضاراتها وديانتها، دار الشعب، ١٩٧٠، ص٣٦.

واهتمَّ السكان بالصناعة أيضاً، فصنعوا الأواني الفخارية باستخدام الدولاب، وزخرفوها برسوم جميلة، وصنعوا الأختام التي كانت تُستخدَم في الشؤون الإدارية والحكومية والتجارية، واتخذت الأختام أشكالاً مختلفة، منها ما هو مربَّع مصنوع من الحجر، وله ظهر محدَّب ووجه محفور يحتوي على نقش، ومنها ما هو على شكل أقراص نحاسية مسطَّحة، حملت على أحد وجهيها كتابات، ونُقِش على الوجه الآخر مشهد فني، ومنها ما هو مستطيل الشكل مصنوع من الحجر الصابوني، وقد نُقِشت على هذه الأختام مشاهد أسطورية وحيوانية وهندسية. أنتج الحرفيون أدوات متنوعة من النحاس والبرونز، مثل السكاكين والآلات والبلطات، والأسلحة مثل الحراب والخناجر والنبال، إضافة إلى ذلك صنعوا تماثيل صغيرة لراقصات، ونماذج لعربات، وصنعوا الحلي والأساور والعقود والطاسات من مواد ثمينة، مثل الذهب والفضة والعاج واللازورد، وازدهرت صناعة الغزل والنسيج أيضاً، بدليل العثور في البيوت على بقايا مغازل.

أقامت حضارة وادي السند خلال هذه الحقبة علاقات تجارية مع الحضارات الأخرى، مثل بلاد سومر، التي عُثر فيها على أختام وأوانٍ من الهند تُثبت وجود هذه العلاقات، وتوجَّهت القوافل التجارية إلى بلوشستان للحصول على القار، وإلى شمال أفغانستان لجلب الرصاص واللازورد، وقد قادت مدينتا هارابا وموهنجودارو هذه الأعمال التجارية، وحصلتا على جزء كبير من الأرباح.

أما بالنسبة إلى الحياة الدينية، فلم يتمكَّن المختصُّون من التعرف إليها على نحو جيد، بسبب عدم التمكن من فك رموز الكتابة التصويرية التي

تُنسَب إلى هذه الحضارة، فالكتابة، كما هو معروف، قد تبوح بالكثير من أسرار الحياة الدينية، وبجوانب حضارية أخرى، لكن على الرغم من ذلك، أمكننا التعرف إليها جزئياً استناداً إلى المكتشَفات الأثرية، فمثلاً هناك مبانٍ يُعتقد أنها كانت معابد، لكنها لم تحتوِ على تماثيل تكشف عن هوية الآلهة التي كانت تُعبَد فيها، ويسود اعتقاد أن الإلهة الأم كانت تُعبَد في موهنجودارو، لكن لا يتوفّر دليل قطعي على ذلك، والدليل الوحيد الذي يستند إليه صاحب هذا الرأي ارتباط موهنجودارو بعلاقات مع حضارات عرفت هذه العقيدة، ومن المحتمل أنها انتقلت إلى موهنجودارو من خلال الاحتكاك بها. عبد السكان الإله شيفا، إله الحيوانات وكبير الآلهة، وقد عُرِف ذلك من خلال نقش ختم بدا فيه جسده عارياً، وإلى جانبه بعض الحيوانات، كما عبدوا الأشجار، مثل شجرة بيبال، والحيوانات أيضاً مثل الأسد والفيل، لأنها مسكن الأرواح حسب معتقداتهم.

اتبع الناس تقاليد جنائزية خاصة، حيث كانوا يحرقون الجثث، ويضعون الرماد في قدور، ثم يدفنونها في مقابر، وأحياناً يلقون الجثث في الغابات، فتفترسها الوحوش، وتبقى الهياكل العظمية منها فيدفنونها، وثمة جثث حُرِق نصفها، ووُضِع النصف الثاني في قدر ودُفِن[1]. نستنتج من ذلك أن الهنود اتبعوا طرقاً مختلفة في الدفن.

بدأت هذه الحضارة تنهار في نحو عام ١٧٠٠ ق.م بسبب العوامل الطبيعية، ولاسيما الفيضانات التي حدثت بسبب ذوبان الثلوج في منطقة

---

(١) مجيب، محمد، تاريخ حضارة الهند، ترجمة محمد نعمان خان، الطبعة الأولى، مؤسسة الفكر العربي، بيروت، ٢٠١٦، ص٤٧ –٥٩.

الهيمالايا، فعندما كان يحدث الفيضان، كانت مياه نهر الهند تطغى على المناطق المحيطة، وتُخرِّب الأبنية، وكان الناس يعيدون بناء ما دمَّرته الفيضانات، ثم تطغى الفيضانات مرة أخرى، وتُخرِّب ما بُنِي، وهكذا، ومما أضعف حضارة الهند أيضاً تعاقب بعض الملوك الضعفاء على الحكم، فسادت الفوضى والاضطرابات، وبدأت معالمها الحضارية تختفي.

شجَّعت هذه الأوضاع الآريين، الذين بدؤوا يتدفَّقون إلى الهند منذ النصف الأول من الألف الثاني من الشمال والشمال الغربي لمهاجمة المدن الهندية، واستطاعوا تدميرها، والقضاء على مظاهر المدنية فيها، فتحوَّلت موهنجودارو إلى أطلال، ولم يستطع الدرافيديون، السكان الأصليون للبلاد، مقاومتهم بسبب تفوق الآريين عسكرياً عليهم، كما أن الآريين كانوا أكثر عدداً من السكان الأصليين، فسقطت حضارة هارابا وموهنجودارو في عام ١٥٠٠ ق.م.

ثالثاً-الآريون:

الآريون هم أحد الشعوب الهندو أوروبية، يتصفون ببشرتهم الفاتحة، وقاماتهم الطويلة، وهم من البدو الرُّحَّل[١]، كان موطنهم الأصلي وادي نهر الدانوب الذي هاجرت قبائلهم منه إلى مناطق مختلفة، ووصلوا إلى الهند عبر مضيق دانيال وإيران وآسيا الصغرى، وبعد انتصارهم على السكان المحليين احتلوا سهول شمالي الهند والشمال الغربي منها، مثل سهل الغانج، وسهول حوض السند الأعلى، ومع مرور الوقت استوطنوا

(١) السواح، فراس، موسوعة تاريخ الأديان، الهندوسية، البوذية، التاوية، الكونفوشوسية، الشنتو، الكتاب الرابع، الشرق الأقصى، ط٤، دار التكوين، ٢٠١٧، ص١٤.

معظم المناطق الشمالية، والشمالية الغربية من الهند، واندمج بهم قسم من الشعوب التي حاربتهم سابقاً، وانعزل عنهم قسم آخر استقر في الجبال في شمالي الهند[١].

تعني كلمة آري في اللغة: الصالح والنبيل، وتُظهِر هذه التسمية تفوق الآريين على غيرهم من الأجناس البشرية، ويبدو أنهم كانوا يسعون من خلالها إلى إظهار أنفسهم على أنهم أعلى شأناً من سكان المناطق التي هاجروا إليها، فهم السادة، وسكان تلك المناطق هم العبيد من وجهة نظرهم، وكانوا يتحدَّثون باللغة السنسكريتية، واتصفوا بالقسوة والوحشية، وكانوا متفوقين في الحروب لامتلاكهم الخيول والعربات التي لم تكن معروفة في الهند، كما أنهم استخدموا أسلحة مصنوعة من الحديد مما زاد من تفوقهم العسكري، وكانوا يميلون إلى الحياة القروية أكثر من ميلهم إلى حياة المدن، وقد تجلَّى ذلك من خلال إنشاء الكثير من القرى في وادي نهر الهند، وفي السهول الخصبة المجاورة.

رابعاً-عصر الفيدا (١٥٠٠ – ١٠٠٠ ق.م):

أُطلِق على هذا العصر اسم عصر الفيدا، لأن مصدر تاريخ هذه الحقبة يُدعى الفيدا، والفيدا هي مجموعة من الأغاني والترانيم والأقوال المأثورة الهندية القديمة، وهي مدوَّنة باللغة السنسكريتية، دُوِّنت عندما قَدِم الآريون إلى الهند، وكانوا قد أخذوها عن كبار رجال الدين في مجتمعهم الذين توارثوها شفهياً عن رجال الدين الأقدم منهم، اصطبغت

(١) عبد الله، فيصل، مرعي، مرعي، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص٣٥١.

الفيدا بصبغة دينية، وهي تعني: العلم المقدَّس أو المعرفة لكسب رضا الإله الخالق، وتنقسم الفيدا إلى أربعة أقسام:

١-الريغفيدا: التي تتكوَّن من عشرة أجزاء تضمُّ ١٠١٧ ترنيمة، وهذه الترانيم تعكس حالة التقوى للمتعبِّدين الذين كانوا يقرؤونها بصوت عالٍ متوسِّلين إلى الآلهة، وكانت تُوجَّه إلى آلهة تقيم في السماء والأرض والهواء.

٢- السامفيدا: هي تراتيل دينية كانت تُؤدَّى عند شرب شراب السومو المقدَّس، وشراب السومو هو مشروب شهي محلي من الهند، وقد أضفى الآريون الأساطير على شراب السومو المقدَّس، فحسب معتقداتهم، كانت الآلهة الهندوسية تتناوله لتعيش حياة خالدة، كما أنه يمنع الأمراض القاتلة، وذكرت الأساطير أن السومو يتخذ صوراً عدة، فهو يتمثَّل في نور سماوي، أو في صورة طائر، وهو مصدر الوحي والإلهام والمبادئ، وهو حلقة اتصال بين الإنسان والآلهة في السماء.

٣- الياجورفيدا: هي ترانيم دينية تتكوَّن من نسختين، الأولى تُسمَّى النسخة البيضاء، والثانية النسخة السوداء، وكانت هذه الترانيم تُنشَد أثناء تقديم القرابين.

٤- الأثارفافيدا: تشتمل الأثارفافيدا على الرُّقى والتعاويذ السحرية التي من شأنها حماية الإنسان من الأمراض والأرواح الشريرة والبلايا، وكانت هذه الفيدا تُمارَس من قبل الفقراء، في حين أن الفيدات الأخرى كانت حكراً على الأغنياء، ومن الترانيم التي كانت تبعد الشر عنهم قولهم: "ليحلَّ بعيداً عنَّا الشر الخالد ذو الألف عين".

وفضلاً عن المعلومات الدينية التي قدَّمتها الفيدات، نجد أنها احتوت على معلومات اجتماعية واقتصادية تتعلَّق بالآريين خلال عصر الفيدا، فهي من المصادر المهمة المتعلِّقة بهم، حيث عاش الآريون في مجتمعات قروية، وأخذت حياة البداوة تختفي شيئاً فشيئاً من مجتمعاتهم لصالح حياة القرية، ومارسوا الزراعة، فزرعوا القمح والشعير، واهتموا بتربية الحيوانات، مثل الأبقار والماعز والخيول والكلاب، واعتمدوا على الماشية للحصول على الوجبات الأساسية التي يتغذون عليها، وهي الحليب واللحم، وأُلقيت مهمة رعي القطعان على عاتق الرجال، في حين كانت المرأة تهتم بأعمال البيت والزراعة، ثم شهد المجتمع تطوراً لاحقاً، فقد ظهرت المدن، وازدهرت فيها الحرف، مثل الصاغة والحلاقة والنجارة وصناعة الخزف، وكانت النساء تمارس أعمال الغزل ونسج القماش والحُصر والخياطة في بيوتهن.

عبد الآريون الكثير من الآلهة، مثل إندرا المزمجر إله العواصف والحرب، وإله الجبال رودرا، وفايو إله الريح، وسوريا إلهة الشمس، وياما إله الموتى، وآغني إله النار، وفارونا إله القوانين والأخلاق، ويوشاس إلهة الفجر، لكن لم يعرف الآريون المعابد، بل مارسوا طقوسهم الدينية في الأماكن المكشوفة، حيث كانوا يشعلون النيران فيها، ويمارسون طقوسهم الدينية هناك، ومن تقاليدهم خلال ممارسة الطقوس ترك مقاعد فارغة قرب النار لضيوف ربانيين لا يمكن رؤيتهم، وإضافة إلى ذلك، كان الكهنة يقدِّمون القرابين التي تشتمل على الزبدة والقمح والماعز والأغنام والبقر والثيران، وكانوا يقدِّمون الأضاحي، ويتولَّى كاهن يحمل لقب أدفاريو تحضير المذبح المخصَّص لذلك، ويدير عملية نحر الأضحية، وثمة كاهن آخر لقبه الهوتار، كان يسكب الزيت أو الخمر

على القربان، وهناك كاهن ثالث يُسمَّى أغنيد كان يُشعِل النار لطبخ الأضحية، وبعد نضوج الطعام، كان الكهنة يخصِّصون جزءاً منه للآلهة بسكبه على وسائد من عشب، والقسم الآخر يأكله المشاركون في الأضحية.

كان المجتمع الآري مجتمعاً قبلياً، لكل قبيلة منه زعيم يرأسها يُسمَّى الراجا، ويصل إلى منصبه بالوراثة، ومع اتساع الأراضي التي أصبح يمتلكها في نهاية العصر الفيدي صار يعيش حياة مترفة جداً، ولا سيما أنه كان يعيش في قصر فخم، ويُحاط بحاشية كبيرة، وكان أقرباؤه يبنون بيوتهم إلى جانب قصره، وكذلك بنى الأشخاص الذين لهم صلة بالحكومة بيوتهم في محيط القصر، وكان الراجا يتزعَّم جيشاً لحماية شعبه، ويُحيط به عدد من الكهنة ليجلبوا البركة لرعيته، وليكونوا حلقة وصل بينه وبين الآلهة، وكان العدد الأكبر من شعبه من الفلاحين، في حين كان الناس يسكنون في بيوت من القصب والخشب، ومن وسائل التسلية التي كانوا يمارسونها الصيد، وسباق العربات ذات العجلات الأربع، والغناء، والرقص.

انقسم المجتمع الآري خلال هذه الحقبة إلى طبقات عدة، تميَّز بعضها عن بعض، فكان على رأس الهرم الاجتماعي البراهمة أو طبقة الكهنة، التي مهمتها إدارة شؤون المعابد، وإدارة الطقوس الدينية وممارستها، والإشراف على التعليم، وسن القوانين، ويُعتقَد أن هذه الطبقة خُلِقت من رأس براهما سيد الآلهة، أو فمه، وكان الكهنة البراهمة متسلِّطين على غيرهم من الطبقات، فقد ذكرت إحدى الروايات أن أميراً رفض التنحي

عن طريق أحد الكهنة، فضربه الكاهن بالصوت[١]، ثم تأتي طبقة الكشاتريا التي تضمُّ الفرسان وقوَّاد الجيش والأشراف، الذين خُلِقوا من كتفي براهما ويديه، وتأتي بعدها طبقة الفايش التي تضمُّ التجَّار والفلَّاحين والحرفيين، وتمثِّل عامة الشعب الآري، خُلِق أفرادها من فخذي براهما، أما الطبقة الأخيرة فهي طبقة الشودرا أو العبيد السود من غير الآريين، وقد مارس هؤلاء المهن المتدنية، مثل التنظيف وغسل الملابس وصناعة الجلود، ولم يُسمَح لهؤلاء قراءة الكتب المقدَّسة، أو الاستماع إلى ما فيها، ولا ممارسة الطقوس الدينية وتحصيل العلم[٢]، وخُلِق هؤلاء من قدمي براهما، وكان الزواج ممنوعاً بين هذه الطبقات، وقد فُرِضت قيود على العلاقات الاجتماعية بينها، فلا يصحُّ الشرب من كأس واحدة، أو الجلوس على مائدة واحدة.

خامساً- حضارة عصر البطولة (١٠٠٠ – ٥٠٠ ق.م):

كان المجتمع الآري في عصر الفيدا مجتمعاً قبلياً، يتزعَّم القبيلة شيخ، وقد بدأ المجتمع خلال هذا العصر يتحوَّل من نظام القبيلة إلى نظام الإمارة، واستُبدِل بشيخ القبيلة الأمير، وكانت الهند مقسَّمة إلى عدد من الإمارات، على رأس كل إمارة أمير، وكانت هذه الإمارات تتصارع فيما بينها، وبرز خلال هذا الصراع عدد من الأبطال كانوا على مستوى عالٍ من الشجاعة، ولهذا السبب سُمِّي هذا العصر عصر البطولة. استمد الباحثون المعلومات عن هذا العصر من ملحمتين كُتِبتا باللغة السنسكريتية، هما المهابهارتا والرامايانا.

---

(١) مجيب، محمد، المرجع السابق، ص٨٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٩.

تناولت ملحمة المهابهارتا الشعرية المعارك الدامية التي نشبت بين فرعين من قبيلة بهارتا الآرية التي كانت تحكم مدينة دلهي، وبعض المناطق التي تجاورها، ودُوِّنت هذه الملحمة في القرن الخامس الميلادي، ويبدو أن الأجيال كانت تتناقلها شفهياً قبل تدوينها، وخلال عملية تناقلها شفهياً أُضِيفت إليها إضافات غيَّرت صورتها الأولى، وصبغتها بصبغة أسطورية، وتقول الملحمة: إنه ورث الحكم رجلان اثنان من قبيلة بهارتا، هما باندو ودهيراتا راشترا، لدى الأول ستة أولاد، ولدى الثاني مئة ولد، وتنازع الطرفان على الحكم، ودارت رحى الحرب بينهما، وفي النهاية رجحت الكفة لصالح الأولاد المئة الذين نفوا الأخوة الستة إلى الغابة، وخلال إقامتهم في الغابة مارسوا الطقوس الدينية، وكان الكهنة يزورونهم، وعاشوا فيها مدة من الزمن، ثم خرجوا منها ليستعيدوا العرش مما أدَّى إلى نشوب الحرب الدامية من جديد.

وعلى غرار ملحمة المهابهارتا صيغت ملحمة الرامايانا شعراً، ودارت أحداثها في زمن، ثم دُوِّنت في زمن آخر (ربما في القرن الخامس ق.م)، ويُعتقد أن عدداً من الشعراء ألَّفها، وتمحورت حول البطل راما، الذي كان له الحق في ولاية عهد أجودهيا، غير أن زوجة أبيه أرادت أن يكون ابنها بهارت ولياً للعهد، فأجبرت زوجها على نفي راما إلى الغابة، فذهب راما مع زوجته سيتا إلى الغابة، ورفض أخوه بهارت اعتلاء العرش، وتوجَّه إلى الغابة لإقناعه بالعودة إلى العاصمة واستلام الحكم، فوجده يعيش في كوخ صغير، فطلب منه العودة، لكنه رفض، وقرَّر البقاء أربع عشرة سنة في الغابة، وخلال إقامته في الغابة مرَّ أمير سيلان من هناك، ورأى سيتا زوجة راما، وأُعجِب بها، وطلب منها أن تتزوَّجه، لكنها رفضت، فخطفها، وأُصيب راما بالحزن، فتوجَّه إلى

سيلان، وأنقذ زوجته، وهزم أمير سيلان، وعاد إلى وطنه بعد أن أمضى أربع عشرة سنة في الغابة، واعتلى العرش هناك بدلاً من أخيه الذي ناب عنه في غيابه.

تُعدُّ هاتان الملحمتان من أهم الأعمال الأدبية التي تُنسَب إلى الآريين في الهند، فمن خلالهما عُرِفت الصراعات على الحكم بين بعض الأسر الآرية التي حكمت الهند، كما أنهما تضمَّنتا بعض المعاني الأخلاقية الراقية، مثل الحب والوفاء، يبدو ذلك جلياً في إنقاذ راما لزوجته من أمير سيلان الذي خطفها، وكذلك ركَّزت الملحمة على شخصية البطل، الذي اختلطت بطولته بحبه لزوجته ووفائه لها، وتطرَّقت الملحمتان إلى الجانب الديني لدى الآريين، ولاسيما أنهما أشارتا إلى ممارسة الطقوس الدينية لأبطال الملحمتين في المنفى، ولم يكن النفي والتشريد في كلتا الملحمتين حائلاً دون تحقيق الأهداف، فقد سعى الأبطال في الملحمتين إلى الوصول إلى العرش بعد إمضاء مدة في المنفى.

سادساً-الجاينية والبوذية في الهند:

تربَّع الكهنة البراهميون على قمة الهرم الاجتماعي الآري في الهند، وانحصرت مهمة ممارسة الطقوس الدينية في أيديهم، مما جعلهم أكثر قوة من غيرهم، فنظروا إلى الطبقات الأخرى نظرة عنصرية، وسَخَّروا الدرافيديين، السكان الأصليين للبلاد، لخدمتهم، واستنزفوا قوتهم لتحقيق أهدافهم الشخصية. إضافة إلى ذلك، كان كثير من الناس يجهلون اللغة السنسكريتية التي استخدمتها الكتب المقدَّسة للديانة البراهمية، فكان من الصعب تعلم هذه الديانة، والتعرف إلى طقوسها، وفي الوقت نفسه كان الكهنة يمنعون الطبقة الدنيا في المجتمع من الحصول على المعارف

الدينية، ونتيجة تصرفات الكهنة البراهميين توصَّل الناس إلى قناعة مفادها أن كهنتهم –من خلال نفوذهم الديني– يسعون إلى تحقيق مآرب دنيوية مثل السلطة والحياة المرفَّهة، مما جعل الطبقة المستنيرة في الهند تنبذ النهج الذي نهجه الكهنة البراهميون، وبدأت تبحث عن طرق جديدة تجلب الطمأنينة للنفس، مما أدَّى إلى حدوث ثورة فكرية تمخَّض عنها ظهور ديانتين جديدتين، هما الجاينية والبوذية.

أُسِّست الجاينية على يدي مهافيرا (٥٥٠ – ٤٤٧ ق.م)، الذي وُلِد في فايشالي في مقاطعة بيهار الواقعة شمالي الهند حالياً، وكان ينتمي إلى عائلة من طبقة الأشراف، فأبوه زعيم (راجا) لقبيلة آرية كانت تقيم قرب فايشالي، ومعنى اسم مهافيرا: الإنسان العظيم أو البطل، وهو لقب تشريفي حصل عليه، أما اسمه الحقيقي فهو ناتابوتا فارذامانا، لم يكن مهافيرا الابن الأكبر لوالده مما ساعده على التخلص من مسألة وراثة العرش، والتفرغ للدعوة إلى الديانة الجديدة التي قامت على أساس الزهد والتقشف وتهذيب النفس ونبذ مُتع الجسد على خلاف الديانة البراهمية التي مال كهنتها إلى حياة الرفاهية، وإشباع ملذَّات الجسد، مستفيدين مما كانوا يكسبونه من الطبقات الأخرى اعتماداً على سلطتهم.

اشتُقَّت كلمة جاينية من الجينا، والجينا لقب لُقِّب به مهافيرا، ومعناه: المنتصر أو الغالب، أي المنتصر على ملذات الجسد وشهواته بالميل إلى حياة الزهد، ولُقِّب أتباعه بالجاينيين. قبل أن يؤسِّس مهافيرا الجاينية كان على اتصال مع مجموعة الرهبان الزاهدين الذين أسَّسوا نظاماً رهبانياً يتوافق مع أفكاره في الزهد والتقشف، وأثناء ذلك كان مهافيرا لا يزال يحيا حياة القصور، وكان والداه على قيد الحياة، ولم يشأ في هذا

الوقت التحول إلى حياة النسَّاك احتراماً لهما، لكن بعد وفاتهما قرَّر الانتقال إلى حياة الرهبنة التي تتسم بالزهد والتقشف، وأول عمل قام به هو التخلي عن الذهب والفضة، إذْ وزَّع كنوزه ووهبها للآخرين، من أسباب دعوة الجاينية إلى الزهد الرغبة في تطهير النفس، فمن دون الزهد لا يمكن تطهيرها وتخليصها من الشر، وللحفاظ على طهارتها يجب عدم إلحاق الأذى بأي مخلوق.

دعت الجاينية إلى التأمل لكشف أسرار الوجود، وحرَّمت الكذب والسرقة والزنى، ومنعت تقديم القرابين وأكل اللحوم إشفاقاً على الحيوانات، لأنها كانت تُحرِّم قتل الكائنات الحية، وأهملت الحياة الزوجية ودعت إلى تركها والتحول إلى الرهبنة، ومن لم يرضَ بذلك من الرهبان سُمح له بممارستها، لكنها حرَّمت العلاقات غير الشرعية تحريماً تاماً، ودعت إلى الحياة البسيطة التي يعيشها الإنسان بأدنى المستويات، ونبذت الحياة الفاخرة التي تتطلَّب الكثير من الكماليات، ولا سيما أن اعتماد الحياة الفاخرة يقود إلى التعالي والمفاخرة، ويتناقض ذلك مع الزهد الذي يمثِّل جوهر هذه العقيدة.

لم تنتشر الجاينية إلا في الهند بسبب تعاليمها القاسية، إضافة إلى أنها انقسمت بعد موت مؤسِّسها إلى جماعتين، ومن الأسباب الرئيسة التي أدَّت إلى الانقسام مسألة التعري التي كان يدعو إليها مهافيرا، والتي لم تلقَ قبول بعض أتباع هذه العقيدة، حيث كانت الجماعة الأولى تُدعى جماعة الشفيتامبارا (اللباس الأبيض)، وتدعو إلى ارتداء ثوب واحد على الأقل، في حين عُرِفت الجماعة الأخرى بالديحمبارا (العراة الذين يلتحفون السماء).

أما الديانة الثانية فهي البوذية، التي أُسِّست على يدي بوذا، اسمه الحقيقي غوتاما، أما بوذا فهو لقب حصل عليه لاحقاً، ويعني: المستنير، أو الذي اهتدى، وُلِد غوتاما في عام ٥٦٠ ق.م، وتُوفِّي في عام ٤٨٠ ق.م، ويبدو من خلال هذه التواريخ أنه عاصر مهافيرا غير أن تعاليمه لم تنتشر إلا بعد مهافيرا بجيل، وعلى غرار مهافيرا كان غوتاما من طبقة النبلاء، فهو ابن أمير كان يتزعَّم إحدى الإمارات شمالي الهند على مقربة من جبال الهيمالايا، وقد اتخذ موقفاً سلبياً من الديانة البراهمية، وأنكر قداسة الكتابات الفيدية، ونبذ نظام الطبقية الاجتماعية الذي نادت به البراهمية، وترجم ذلك بوقوفه إلى جانب الفقراء، والشعور بمعاناتهم، وربما كان ذلك أحد الأسباب التي جعلته يترك حياة البذخ والقصور، ويذهب إلى الغابة ويستقر فيها، ويعيش حياة زهد وتقشف على غرار مهافيرا.

وحسب الروايات توجَّه غوتاما إلى منطقة تُدعى بود – غايا، تقع داخل غابة في مقاطعة بيهار، وجلس تحت شجرة المعرفة أو شجرة البودي، وبدأ يتأمَّل، وكزَّ على أسنانه، وقرَّر البقاء تحت هذه الشجرة ولو بلي جسده حتى يأتيه النور العظيم، وفي هذه اللحظات استقبل التنوير العظيم، وأصبح اسمه بوذا أي المستنير، وبدأ ينشر الديانة البوذية، وصار له كثير من الأتباع. على خلاف الجاينية التي لم تنتشر إلا في الهند، انتشرت البوذية في الهند وخارجها، مثل الصين وكوريا وسيلان وبورما، ويُعزى ذلك إلى اعتدالها في مسألة الزهد والتقشف، في حين أن الجاينية بالغت في هذه المسألة، فقد دعت إلى الابتعاد عن الملذات ابتعاداً تاماً، ومن مظاهر المبالغة الدعوة إلى الجوع حتى الموت.

تبنَّت البوذية فلسفة تمثِّل جوهر هذه الديانة، وحسب هذه الفلسفة رأت البوذية أن الحياة كلها آلام[١]، فالإنسان يعاني من داء الشيخوخة والعجز، وداء الولادة، وداء الموت، وداء فقدان الأشياء، أو عدم الحصول عليها، وعليه فالحياة ألم، وهنا تكمن المشكلة، فسبب هذه الآلام الشهوات والرغبات التي تحملها النفس البشرية، وهذه الرغبات تحضُّ على التناسخ والظهور مجدَّداً بعد بلاء الجسد (تؤمن البوذية بتناسخ الأرواح والتقمص)، فعندما تظهر الروح مجدداً يسعى صاحبها لتحقيق رغباته، ولا يخلو ذلك من الطمع والحرص، ويهدف هذا السلوك إلى تحقيق الذات، وكي يتخلَّص الإنسان من هذه الآلام التي تتسبَّب بها الرغبة في تحقيق الذات، يجب عليه التحرر من الرغبات والشهوات، وكي يتحرَّر منها يجب أن يكون صادقاً في تفكيره وسلوكه ومعيشته وكلامه وجهوده، وعند تحرره من الرغبات والشهوات يتخلَّص من الألم، لأنه لن يُولَد من جديد، فالولادة الجديدة هي التي تجلب الآلام للإنسان، لأنه سيقع في فخ الرغبات من جديد.

سابعاً- اللغة والآداب والعلوم والفن:

أصبحت اللغة السنسكريتية منذ دخول الآريين إلى الهند اللغة الرئيسة في الهند، ومن أسباب انتشارها وازدهارها أنها لغة الآريين الأقوياء الذين سيطروا على الهند، واستخدامها في تأليف الكتب الآرية كلها، وكونها لغة الطقوس الدينية في الديانة البراهمية، كما استخدمها الآريون في كتابة الملحمتين اللتين تعودان إلى عصر البطولة المهابهارتا والرامايانا،

---

(١) هينليس، جون. ر، معجم الأديان، ترجمة هاشم أحمد محمد، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠، ص١٢٣.

واتصفت هذه اللغة بصعوبتها، ومع مرور الزمن دخلت إليها بعض الكلمات الدرافيدية، وبدأت شيئاً فشيئاً تفقد صعوبتها، وأصبحت أسهل وألطف من قبل، وفي القرن الرابع ق.م تمكّن النحوي باي نيني من سبر أغوارها ووضع قواعد نحوية لها.

إلى جانب السنسكريتية انتشرت لهجات عامية، لكنها لم تكن لغات رسمية، وإنما اقتصر استخدامها على العامة، وقد اضطرَّ بوذا –عندما دعا إلى ديانته الجديدة –إلى استخدام إحداها لنشر ديانته بين العامة، وهي اللغة البالية، التي لاقت إعجاب الناس، وأخذت تنافس السنسكريتية، وأصبحت لغة الدولة الرسمية في عهد أشوكا.

ازدهر الأدب بألوانه المختلفة في الهند، مثل كتب الفيدا التي ضمَّت تراتيل دينية مختلفة، وكان الهدف منها اكتساب رضا الخالق، ومن الألوان الأدبية الأخرى الملاحم، مثل ملحمتي المهابهارتا والرامايانا اللتين كُتِبتا بالسنسكريتية، وازدهرت القصص أيضاً، ولعل أشهرها تلك التي رُوِيت على لسان الحيوانات، مثل كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه ابن المقفَّع إلى اللغة العربية.

أسهمت الكتب الأدبية في استنهاض المواهب الفنية لتأليف المسرحيات، حيث امتازت هذه الكتب بأسلوب قريب من أسلوب المسرحيات، ولاسيما فيما يتعلَّق بالعرض والشرح والسرد والحوار، وقد عزا الآريون الفن المسرحي إلى الآلهة، فالإله الأكبر براهما هو الذي دعا إلى بناء المسرح الذي كان في قصور الملوك والأمراء، وهو الذي استنبط العناصر الأربعة للمسرحية من كتب الفيدا (الإلقاء، والغناء، والفن الإيمائي، والعاطفة، والألم)، وقدَّمها بطريقة جديدة، ثم تطوَّرت

المسرحية لاحقاً على يدي الإله شيفا، الذي أضاف إليها الرقص، من أشهر المؤلّفين المسرحيين كاليداس الذي ظهر في القرن الأول ق.م، وألَّف عدداً من المسرحيات، ولعل أهمها مسرحية شكنتلا التي تحدَّثت عن بنت اسمها شكنتلا وُلِدت في أحد الأديرة، وعندما كبرت تعلَّق بها الملك، وتزوَّجها، لكنه نسيها لاحقاً بسبب لعنة أحد الآلهة التي حلَّت عليه، وصعدت شكنتلا إلى السماء، والتقت به مجدَّداً في عالم الآلهة.

وازدهرت العلوم في الهند، ولاسيما الفلك والهندسة والرياضيات. وتأثَّرت في هذه المجالات بالحضارات الأخرى التي احتكت معها، مثل اليونان، وإيران، ومصر، وبلاد الرافدين، وقامت بتطويرها، فمن مظاهر تقدم علم الفلك لديهم مراقبة القمر والشمس والنجوم، ومعرفتهم للمراحل التي يمرُّ بها القمر، ولظاهرتي الكسوف والخسوف. وفي علم الرياضيات كان للحضارة الهندية إنجازاتها، فقد عرف الهنود نظام الترقيم، والكسور والمثلَّثات والجذر التربيعي والتكعيبي، كما ازدهر الطب في الهند، واستخدم الأطباء العقاقير والأعشاب في العلاج، وأجرى الأطباء عمليات جراحية، وتمكَّنوا من معرفة بعض الأمراض، مثل أمراض النساء والأطفال، وعلى غرار الحضارات القديمة مارس الهنود السحر والتعاويذ في العلاج أيضاً.

ازدهرت الفنون في الحضارة الهندية القديمة، مثل العمارة والنحت والرسم، ولاسيما في عهد الإمبراطورية المورية، وتأثَّرت الفنون الهندية في هذه المرحلة بالفنون اليونانية والرافدية والمصرية والفارسية بسبب إقامة علاقات مع هذه الحضارات، ظهر هذا التأثير جلياً في قاعة كبيرة بناها تشاندرا غوبتا على طراز قاعة في أحد القصور الفارسية، وفي

عهد أشوكا أُنشئت منارات كبيرة يُقدَّر قطرها بثلاثة أقدام، ويبلغ ارتفاعها خمسين قدماً، ووزِّعت على المناطق التي يمرُّ بها الناس من أجل الاطلاع على تعاليم البوذية التي نُقِشت عليها، وتأثَّرت المنارات بفنون الحضارات الأخرى، فالقسم الأوسط من المنارة متأثِّر بالفن الفارسي.

الفصل العاشر

حضارة الصين القديمة

تُعدُّ الحضارة الصينية من أعرق الحضارات التي عرفتها البشرية، ومن أوفرها إسهاماً في تقدمها على مرّ التاريخ، فقد نمت وتطوَّرت وازدهرت في منطقة واسعة تبلغ ما يقارب تسعة ملايين ونصف كيلو متر مربَّع، تمتدُّ بأصولها إلى آلاف السنين، وهي من الحضارات الأولى المبكِّرة التي عاش فيها الإنسان القديم، فقبل قرابة أربعمئة ألف سنة ظهر الإنسان منتصب القامة (الهوموواريكتوس)، أو ما يُعرَف بإنسان بكين، كما ظهر تأثير الحضارة الصينية العميق في كثير من الجوانب، من أهمها الفلسفة، فقد وضعت الأساس الثقافي لحضارة شرق آسيا، ولا سيما اللغة والفنون والموسيقا والآداب والأسس السياسية والاقتصادية والدينية.

أولاً- الصين جغرافياً[1]:

تمتدُّ الصين على مساحات واسعة، مما جعلها تضمُّ مناطق طبيعية مختلفة، فهناك السهوب (السهب المغولي، وهو مزيج من الأراضي المعشبة الجافة، والصحراء المأهولة بعدد قليل من السكان، حيث تسود

(١) نيدهام، جوزيف، موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين، ترجمة محمد غريب جودة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٥، ص ٤١-٤٧.

الحياة البدوية التقليدية)، والسهول (سهل الصين الشمالي، والسهل المنشوري)، والصحاري (صحراء جوبي، وصحراء أوردوس)، والتلال والجبال العالية (الجبل المقدَّس تهاي شان، وجبال التبت)، والهضاب (هضبة سيجوان، وهضبة كويجو)، وأحواض الأنهار الكبرى (حوض النهر الأصفر)، والوديان (وديان كوانتونج المطلة على بحر الصين الجنوبي)، هذا الامتداد الواسع جعلها ذات طبيعة متنوعة مناخياً، فالمنطقة الشمالية يسودها المناخ البارد، والمنطقة الجنوبية يسودها المناخ المداري، بينما يسود المناخ المعتدل في الشواطئ، والمناخ شبه الاستوائي في هضبة كوانجسي ووديان كوانتونج، ويُعدُّ نهر يانغ تسي yangtse (النهر الأزرق) أطول أنهار الصين، حيث يبلغ طوله ما يقارب ٥٢٢٦كم، كذلك يخترقها نهر هوانغ Huanghe (النهر الأصفر) من الغرب إلى الشرق، ويصبُّ مع نهر يانغ تسي في المحيط الهادي.

يحدُّ الصين حالياً من الغرب باكستان وأفغانستان وطاجيكستان وقرغيزستان وكازاخستان، ومن الشرق المحيط الهادي، ومن الشمال روسيا ومنغوليا وكوريا الشمالية، ومن الجنوب الهند ونيبال وبورما ولاوس وفيتنام.

ثانياً- تاريخ الصين:

تمتاز الصين بوفرة المصادر التاريخية التي تتحدَّث عن تاريخها، ولا سيما السجلات التاريخية الرسمية، والحوليات التي نجت من الاندثار، أما العصور التي سبقت الكتابة فقد استُقِيت معلوماتها من بقايا الآثار، مثل الصور الموجود على جدران الكهوف، وبقايا العظام الموجودة فيها،

حيث عاشت في العصر الحجري القديم جماعات من الصيَّادين وجامعي القوت، ومنهم إنسان بكين منتصِب القامة (الهوموإريكتوس)، الذي اكتُشِفت آثاره وبقايا عظامه في كهف تشوكوديان قرب بكين في عام ١٩٢١، وقد عرف صناعة الأدوات البسيطة، واكتشف النار واستخدمها[١].

ظهرت تجمعات سكانية في العصر الحجري الحديث (قرابة ٥٠٠٠ق.م) في مناطق عدة من الصين، وسادت الثقافة النيوليتية المختلفة، وازدهرت صناعة الفخَّار الملوَّن والمزيَّن، وصنعوا الأبر والمناجل والمناشر من قرون الوعول والأصداف[٢]، وبُنِيت الأسوار المحصَّنة حول المستوطنات.

مثَّلت هذه التجمعات التي أسَّسها الصينيون نواة لتكوين تحالفات يقودها زعماء، مهمتها صدّ هجمات الجيران المعادين.

عُرِف أحد رؤساء هذه التحالفات بـ هوانج تي إمبراطور يلو، وهو أحد أقوى الزعماء في منطقة نهر يلو، وكان أول حاكم لهم طبقاً للسجلات الصينية، وكانت هذه مرحلة انتقال من العصر الحجري الحديث إلى العصر البرونزي[٣].

---

(١) عبد الله، فيصل، مرعي، عيد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص ٣٧٦.

(٢) هوخام، هيلدا، تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين، ترجمة أشرف محمد كيلاني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٧.

ظهرت في هذه الحقبة أُسر قوية كوَّنت سلالات حاكمة، وعُرِفت من هذه الأسر أسرة كسيا أو شيا (٢٠٧٠ ق.م) التي أسَّسها يو العظيم، والتي تُعدُّ أول سلالة ملكية في الصين استمرت في الحكم حتى القرن السادس عشر قبل الميلاد، حيث تمكَّنت سلالة شانغ المجاورة من هزيمتها، وبسط نفوذها عليها، وإحكام سيطرتها على المناطق الوسطى والسفلى للنهر الأصفر، وهكذا أُسِّست أسرة شانغ الحاكمة[١]، التي يعود الفضل في تأسيسها إلى زعيم قبيلة شانغ تشن تان في شمال شرقي مقاطعة هونان الحالية في وادي نهر هوانغ هي، وقد أرَّخت هذه الأسرة تاريخها بكتابة نقوش على عظام الحيوانات وقواقع السلاحف، وقد بلغ عددها أكثر من مئتي ألف نقش، تحدَّث معظمها عن تنبؤات الملوك للمستقبل[٢].

استمرت سيطرة أسرة شانغ على مقاليد السلطة والحكم حتى عام ١٠٤٥ق.م، حيث قضت قبيلة تشو المجاورة لمملكة شانغ على هذه المملكة، وتمكَّن زعميها أوفان من إقامة دولة استمرت حتى عام ٢٥٦ ق.م، انقسم هذا العصر إلى حقبتين: حقبة تشو الغربية (١٠٤٥-٧٧١ ق.م)، وحقبة تشو الشرقية (٧٧٠-٢٥٦ق.م).

في مطلع القرن الثالث قبل الميلاد تفتَّتت مملكة تشو المركزية إلى عدد من الإمارات الإقطاعية المتناحرة فيما بينها، إلى أن تمكَّنت أسرة

---

(١) مجموعة مؤلفين، تاريخ الصين، الجزء الأول، سلسلة سور الصين العظيم، مجلة بناء الصين، بكين، ١٩٨٦، ص ١٠-١١.

(٢) نيدهام، جوزيف، المرجع السابق، ص:٦٠-٦١.

تشين[1]/ صين/ المستقرة في شمال غربي الصين على يد زعيمها شي هوانغ تي من أن تُخضِع تحت سلطتها الإمارات الصينية جميعها، ومن هذا الاسم أخذت الصين اسمها الحالي، واتخذ تشي هوانغ تي سنة ٢٢١ ق.م لقب إمبراطور، وكان أول إمبراطور في الصين، وقد عمل على تقوية الجيش، وخاض حروباً عدة مع قبائل الهون والمغول في الشمال، ثم أمر ببناء سور ترابي يطوِّق الحدود الشمالية للصين ليحمي البلاد من غارات القبائل المغولية، واستخدم في بناء سور الصين العظيم ثلاثمئة ألف إنسان معظمهم من أسرى الحروب والمحكومين بالسجن، وقد امتدَّ السور عام ٢١٤ق.م مسافة ٢٥٠٠كم عبر التلال والوديان، وبلغ ارتفاعه بين ٦-١٠ أمتار، وله أبراج مربَّعة للحراسة في مواقع مختلفة.

استمرَّ حكم أسرة تشين حتى عام ٢٠٧ ق.م، حيث استطاع أحد القادة المتمرّدين، وهو ليو بانغ، القضاء على آخر ملك من أسرة تشين، والتخلص من منافسيه، وتأسيس سلالة حاكمة (سلالة هان) حكمت الصين قرابة أربعة قرون، كان ليو بانغ زعيماً لإحدى وحدات الجيش، وقد استطاع أن يجمع حوله القوى المعارضة للإمبراطور، وأعلن نفسه ملكاً على هان إحدى المقاطعات داخل إمبراطورية تشين، وفي عام ٢٠٢ ق.م أعلن نفسه إمبراطوراً، وتبنَّى اللقب الإمبراطوري غاوتسو، وبنى عاصمته شانغان في سهل نهر واي، وسُمِّيت سلالته التي حكمت حتى عام ٢٢٠م باسم سلالة هان[2]، ودخلت الصين بعد هذا التاريخ

---

(١) مجموعة مؤلِّفين، تاريخ الصين، الجزء الأول ص: ٣٠-٣٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٧.

في حالة من التمزق السياسي، إذ انقسمت إلى ممالك عدة تتنازع فيما بينها، كذلك تعرَّضت لهجمات القبائل البدوية من مغول وهون وأتراك، استطاعت أن تنتصر على القوات الصينية، وأسَّست إمارات مستقلة في شمالي الصين، وقد تحالفت مع بعض العائلات الصينية، ونتج عن ذلك ظهور سلالات جديدة حكمت الصين، منها سلالة سوي التي أعادت توحيد الصين بالقوة (٥٨١-٥٨٩م) بعد أكثر من ثلاثة قرون من الانقسام والحروب الأهلية.

أُسِّست هذه السلالة على يد حاكم إحدى المقاطعات يانغ جيان في شمالي الصين، الذي تمكَّن من السيطرة على المقاطعات الجنوبية بما فيها مقاطعة تشين، وقد وضعت سلالة سوي -على الرغم من قصر عهدها- الأسس لنهوض الصين وازدهارها في القرنين الثامن والتاسع(١).

كان مصير سلالة سوي مثل غيرها من السلالات التي سبقتها، حيث سقطت عام ٦١٧م على يد أحد قادة الجيش، وهو يوان الذي أسَّس سلالة حاكمة جديدة عُرِفت بسلالة تانغ(٢)، وبلغت الصين أوج قوتها واتساعها في عهد الإمبراطور هسوان-تسونغ سادس إمبراطور من سلالة تانغ، الذي عُرِف بلقب مينغ-هوانغ (الإمبراطور اللامع)، وأصبحت الصين في عهده أقوى إمبراطورية في العالم في ذلك الحين، وأقامت صلات اقتصادية وثقافية واسعة مع مناطق كثيرة، مثل اليابان وكوريا والهند وإيران وشبه الجزيرة العربية، وامتدت من منشوريا الحالية

(١) عبدالله، فيصل، مرعي، عيد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص٣٨٨.

(٢) هوخام، هيلدا، المرجع السابق، ص ١٣٣ وما بعد.

فـي الشـمال الشـرقي إلـى فيتنـام والتبـت فـي الجنـوب الغربـي، وضـمَّت سلسلة من المحميات في وسط آسيا على طول طريق الحرير.

بدأت علامات الانهيار تصيب سلالة تانغ منذ منتصف القرن الثامن، حيث شهدت الإمبراطورية تهديدات خارجية تمثَّلت بتقدم قبائل تبتية وبدوية باتجاه الحدود الغربية والشمالية للصين، كما شهدت تمردات داخلية تمثَّلت بتمردات الفلاحين في سنة ٨٧٤م، بسبب الضرائب الثقيلة التي فُرِضت عليهم، مما أدَّى إلى ضعف الحكومة المركزية وانحلالها، وظهور عدد من الممالك الصغيرة، وقد دامت الأوضاع على هذه الحال حتى عام ٩٦٠م، حيث تمكَّن أحد القادة العسكريين تشاو كونغ ين من تأسيس سلالة حاكمة جديدة في شمالي الصين عُرِفت بسلالة سونغ[١]، وقد تمكَّن، وهو الذي عُرِف بالإمبراطور تاي- تسو، ومن بعده أخوه الذي خلفه على العرش، تمكَّنا من السيطرة على بقية مناطق الشمال والجنوب، وتوحيد الإمبراطورية في عام ٩٨٧م، كما أسَّس عاصمة جديدة للإمبراطورية في كاي-فينغ في الشمال، واستمر عصر هذه السلالة حتى سقطت على يد الإمبراطورية المغولية عام ١٢٧٩م.

ثالثاً- الحياة السياسة والإدارية:

كان الملك هو القائد السياسي والعسكري والديني في الدولة، مثَّل رأس الهرم الإداري، وقاد الحملات العسكرية، وقام بدور الكاهن الأعلى في عبادة الأسلاف، وقد حمل الملوك الصينيون ألقاباً كثيرة، منها لقب وانغ

(١) مجموعة مؤلفين، تاريخ الصين، الجزء الثاني، سلسلة سور الصين العظيم، مجلة بناء الصين، بكين، ١٩٨٧، ص٧ وما بعد.

في عصر سلالة شانغ، وابن السماء في عصر سلالة تشو (لاعتقادهم بوجود علاقة وثيقة بين الملك والسماء)، ولقب الإمبراطور الأول في عصر سلالة تشين، والإمبراطور اللامع في عهد سلالة تانغ.

كانت الصين في عهد سلالة تشو مقسَّمة إلى مقاطعات يحكمها مالكو الأراضي من الإقطاعين، يصلون إلى السلطة بالوراثة، وكثيراً ما استغلوا ضعف السلطة المركزية، واستأثروا بالسلطة، وكوَّنوا إمارات خاصة بهم، مما دفع الملوك في عهد سلالة تشين إلى إلغاء نظام الحكم الإقطاعي والوراثي في المقاطعات، والاستعاضة عنه بتعيين حكام منتخَبين وفقاً لمقدرتهم وقدرتهم على الإنتاج.

واتخذ الملوك الكثير من الإجراءات الإدارية من خلال إصدار مجموعة قوانين صارمة هدفت إلى تعزيز قوة السلطة المركزية ومكانتها.

رابعاً- الحياة الاقتصادية:

ساعد الامتداد الواسع للصين، واتساع مساحتها على تنوع مناخها وثرواتها، مما أدَّى إلى تنوع أنشطتها الاقتصادية من زراعة وحرف وتجارة.

١- **الزراعة:** اهتمَّ الصينيون بالجانب الزراعي، فزرعوا القمح والشعير والذرة والدخن، وزرعوا شجرة التوت التي استُخدِمت أوراقها لتغذية دودة القز المستخدمة في صناعة الحرير، وزرعوا الرز على أودية الأنهار. وقد نظَّمَ الفلاحون أنفسهم في فرق عمل، وعملوا في أراضي الملك، وانتشرت زراعة القطن هناك في القرن الثاني عشر.

تجلَّى اهتمام الدولة بالزراعة من خلال إقامة دائرة مسؤولة عن إدارة شؤون الزراعة، وتربية دودة القز في أنحاء البلاد، وإرسال المرشدين الزراعيين لتفقد أحوال الإنتاج الزراعي في أنحاء البلاد كافة، ومطالبتهم بتزويد الحكومة المركزية بتقارير عن أوضاع الزراعة ومتطلباتها[١].

وقد عملت دائرة الزراعة على مراجعة الكتب القديمة، وجمع الخبرات والتجارب المتقدِّمة، وتأليف كتاب بعنوان: "مهمات الزراعة وتربية دودة القز"، وتوزيعه على أنحاء البلاد بهدف تشجيع الناس على ممارسة العمل الزراعي[٢].

كما عملت الدولة على استصلاح الأراضي البور، وإلغاء الكثير من الضرائب المفروضة على الفلاحين، واستخدمت الأسمدة والمحاريث المتطورة، مما رفع إنتاج المحاصيل الزراعية.

كذلك أُنشئت دائرة مسؤولة عن إدارة شؤون حفر القنوات والري، وحشد الأيدي العاملة، وتأمين اللوازم لترميم النهر الأصفر، وتشييد منشآت الري[٣]، وقد ساعد استخدام الري في الزراعة على زيادة المحصول، وكان يُخزَّن الفائض من الغلال في المدن المحصَّنة.

اهتم الصينيون بتربية المواشي، ولا سيما في المناطق شبه الجافة حيث المساحات الرعوية كبيرة، كذلك توسَّعت تربية الحيوانات المختلفة، من أهمها الخنازير والبقر والغنم والخيل والكلاب.

---

(١) مجموعة مؤلفين، تاريخ الصين، الجزء الثاني، ص:٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص:٣٥.

(٣) المرجع نفسه، ص٤٧-٧٦.

٢- **الحِرَف**[١]:

تطوَّرت الحِرَف اليدوية مثل صناعة الفخاريات، وازدهرت صناعة البرونز في أواخر عصر سلالة سانغ، وأسَّس العمال تنظيمات، واستُخرِجت معادن النحاس والقصدير والرصاص الخام من المناجم، وأُنتِج الفحم الخشبي لصهر المعدن الخام، الذي استُخدِم لصهر النحاس والقصدير، بعد تسخينه حتى درجة ألف مئوية، ليُصبَّ بعد ذلك في قوالب طينية مجهَّزة مسبقاً، نُحِتت عليها الخطوط والأشكال المراد إبرازها، ومن الأدوات التي صنعوها من البرونز قدور ثلاثية الأرجل ، وأقداح ذات مقبض وفوهة جانبية، والأسلحة مثل البلطة والرمح، وقد تطلَّب هذا العمل وجود حرفيين مهرة لتصنيع الأدوات البرونزية المختلفة، كما استُخدِمت الأدوات البرونزية لأغراض الطقوس الدينية.

كذلك ازدهرت صناعة الحديد في عصر سلالة تشو، حيث مارس حرفيون صناعة الحديد، وعرفوا سبك الحديد وصبه، وصنعوا في ورش خاصة الأدوات، مثل البلطات المستخدَمة في قطع أشجار الغابات، التي كانت تغطي أجزاء كبيرة من الصين، والمحاريث الزراعية المصنوعة من الحديد بدلاً من المحاريث الحجرية المستخدمة في حراثة الأراضي وفلاحتها، كذلك الأسلحة الحديدية المستخدمة في حروبهم.

تطوَّرت الحرف في عصر سلالة تانغ، فعرفوا فنون الغزل والنسيج والصباغة والخزف وصهر المعادن وصناعة السفن، وشهد عصر سلالة

---

(١) عبد الله، فيصل، مرعي، عيد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص٣٨٠- ٣٨١- ٣٩٠-٣٩٣.

سونغ تقنية صناعة الحديد عالية التطوير، مثل صناعة الفحم الخشبي، واختراع البارود الذي استُخدِم في صناعة القنابل والمفرقعات المتفجرة، وإنتاج الحرير والبورسلان.

٣- التجارة:

أدَّى وجود زراعة متطوِّرة، وصناعة متقدِّمة، إلى انتعاش الحركة التجارية، وتنشيط التبادل التجاري الداخلي والخارجي، ولاسيما بعد أن حلَّت العملات النقدية من الذهب والنحاس محلّ تبادل البضائع، وقد مكَّن استخدام النقود الدولة من أن تجمع أكثر من نصف ضرائبها نقداً.

كذلك اتُّخذت الكثير من الإجراءات من أجل إصلاح الأمور التجارية على صعيد السوق الداخلية، فعُيِّن بعض الموظَّفين للتدخل في تحديد أسعار السوق، وإعطاء القروض النقدية من الخزينة للحد من استغلال المرابين، وازدهرت التجارة الداخلية، ولا سيما تجارة الملح والحديد، ونشطت التجارة البرية والبحرية مع آسيا ومناطق الشرق العربي، كانت صادرات الصين من المنتجات الحرفية النفيسة، مثل الحرير والبورسلان والخزف، والمنتجات الزراعية مثل الشاي، والمنتجات الصناعية مثل العملة النحاسية، في حين كانت الواردات من المواد الكمالية، مثل الجواهر والتوابل والعاج والأخشاب عالية الجودة والمنسوجات القطنية[١].

خامساً-الحياة الاجتماعية:

---

(١) هوخام، هيلدا، المرجع السابق، ص:١٩٥.

حظيت الأسرة بمكانة مرموقة في المجتمع الصيني، وقامت على الروابط الأبوية بمعنى أنها خضعت لسلطة الأب ومحبة الأم التي يجب عليها الخضوع التام لسلطة زوجها، ولاسيما بعد تطور الزراعة ورعي المواشي، فقد أخذ الرجل القيادة من المرأة في الإنتاج والحياة اليومية[١].

شهد قيام الدولة في الصين نشوء النظام الطبقي، إذ تحوَّل زعماء العشائر إلى قادة أغنياء، وخاضوا الحروب، وأسروا الكثير من الرجال، واسترقّوهم بدلاً من قتلهم، فتحوَّلوا إلى عبيد، وهكذا ظهر المجتمع العبودي على أشلاء المجتمع البدائي، فتفكَّكت الملكية العامة، وأُلغِيت المساواة بين الناس.

في عصر أسرة كسيا (شيا) ظهرت طبقتان أساسيتان، هما ملَّاك العبيد والعبيد، وإلى جانبهما طبقة العامة المنحدرة من المجتمع العشائري، والتي يزاول أفرادها الزراعة والحرف اليدوية[٢].

كان القائد الأعلى لطبقة ملَّاك العبيد الأرستقراطيين ملك كسيا، وقد عاشت هذه الطبقة حياة الترف والبذخ في الوقت الذي عانت فيه طبقة العبيد من القهر والاضطهاد والجوع.

تلاشت طبقتا ملَّاك العبيد والعبيد في عصر سلالة تشو، فتحوَّلت طبقة ملَّاك العبيد من الطبقة الأرستقراطية إلى مالكي الأراضي، وكوَّنوا طبقة جديدة عُرِفت بطبقة الإقطاعيين، في حين أصبح العبيد فلاحين

---

(١) هالة، أبو الفتوح أحمد، فلسفة الأخلاق والسياسة المدنية الفاضلة عند كونفشيوس، دار قباء للنشر والتوزيع، د،ط، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٤٢.

(٢) مجموعة مؤلفين، تاريخ الصين، الجزء الأول، ص: ١٠.

يعملون في الحقول مقابل الحصول على قوتهم، واستمر النظام الطبقي على هذا المنوال في عصر المملكة الصينية الأولى[١]، حيث عُزِّزت الملكية الإقطاعية للأراضي في أنحاء البلاد من خلال قيام تشي هوانغ تي بإصدار تشريع ألزم كلاً من الملَّاكين والفلاحين بتسجيل ما بحوزتهم من أراضٍ، ودفع الضرائب حسب المساحة المسجَّلة[٢].

شهد عصر سلالة هان انتقال ملكية الأراضي من الفلاحين إلى الملَّاكين من كبار الموظَّفين والتجَّار والنبلاء، الذين أصبحوا وحدهم القوة السائدة في المجتمع، أما الفلاحون الذين فقدوا أراضيهم، فأصبحوا أقناناً يعملون في أراضي كبار الملَّاكين[٣]، واستمر الأمر على هذا المنوال حتى عصر سلالة تانغ، حيث استرجع بعض الفلاحين أراضيهم التي استولى عليها كبار الملَّاكين، وتحرَّروا من الضرائب الفاحشة، وأعمال السخرة التي فرضتها عليهم الدولة الإقطاعية، لكن هذا لم يحُل دون استئثار كبار الملَّاكين بمساحات هائلة من الأراضي الخصبة[٤].

سادساً- الحياة الدينية:

عبد الصينيون أجدادهم، واهتموا ببعض الطقوس عند الدفن، لاعتقادهم بتأثيرهم في حياتهم، لكنهم لم يهتموا مثل المصريين القدماء بإقامة قبور ضخمة لهؤلاء الأجداد، كما آمن الصينيون، مثلهم في ذلك

---

(١) مجموعة مؤلفين، تاريخ الصين، الجزء الأول، ص١٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٣١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٤.

(٤) المرجع نفسه، ص٧٤-٧٥.

مثل غيرهم من الشعوب، بوجود آلهة متنوعة، واعتقدوا أن بعض الظواهر الطبيعية والاختراعات من صنع قوى طبيعية، دفعهم الخوف من مظاهر الطبيعة وخوارقها، إلى عبادة الأرواح الكامنة وراء الأشياء، وتقديس ما على الأرض من صور رهيبة، وخشية السماء وعبادتها، من أشهر الآلهة الصينية القديمة الإلهة نيوفا التي أوجدت العالم وأخضعت لها السماء.

في القرن الأول الميلادي دخلت الديانة البوذية إلى الصين من الهند، وانتشرت بين السكان انتشاراً كبيراً، لكن طرأ عليها تطوّر يتناسب مع ظروف حياة الصينيين، فالبوذية الصينية اهتمت بفكرة خلاص البشر، وعيشهم حياتهم الثانية بخير وسعادة برئاسة بوذا، وتركت أثرها الكبير في الفنون المختلفة، مثل الرسم والنحت والعمارة التي سُخِّرت لخدمتها.

في القرن السادس الميلادي ظهر في جنوب الصين رجل سمَّى نفسه بوذا الأبيض، وحاول إقناع الإمبراطور الصيني بأن العقل والصفاء الروحي هما خير من العمل الصالح، وأن على الإنسان أن يبحث عن البوذا في قلبه، لكن الإمبراطور نفاه، وقضى بقية حياته في المنفى، وقد كثرت الخرافات والأساطير في الأدب والشعر الصيني حول هذا البوذا الجديد.

سابعاً- اللغة والكتابة[1]:

تتألَّف اللغة الصينية من كلمات وجمل قصيرة، وهي ذات مقطع واحد، وعدد الأصوات فيها قليل، لذا فإن المقطع الواحد يحتمل معاني عدة،

(١) جوزيف، نيدهام، المرجع السابق، ص ٢٣ وما بعد.

مما يعني أنها لغة نغمية، يمكن للنغمات فيها أن تعطي معاني مختلفة للكلمة الواحدة.

ترجع اللغة الصينية بأصولها إلى مجموعة اللغات الصينية التبتية، وقد وُضِعت الكتابة الهيروغليفية الصينية في الألف الثاني قبل الميلاد، واستمرت حتى الوقت الحاضر مع بعض التغييرات التي طرأت عليها، وقد زاد عدد الرموز الهيروغليفية حتى بلغ في عهد سلالة هان ثمانية عشر ألف رمز، بينما لم يزد في عهد سلالة شانغ عن الألفين، كُتِبت النصوص الهيروغليفية على صورة مقاطع عمودية من اليمين إلى الشمال، واستُخدِمت في الكتابة عيدان مبرية، ثم ريش الطيور الذي يُغمَس في الصباغ، وفيما بعد بالحبر، أما مادة الكتابة فقد كانت في بداية الأمر الخيزران، وفيما بعد أصبحت قطعاً من قماش الحرير، وبما أن الحرير غالي الثمن، والخيزران ثقيل، اختُرِع في القرن الأول الميلادي الورق، الذي صُنِع من لحاء الشجر والقنب والأقمشة البالية، ويعود الفضل في ذلك إلى تساي-لون الذي عاش في بلاط سلالة هان الشرقية في عهد الإمبراطور هو-تي، وقد نال هذا الاختراع تقدير الإمبراطور وثناءه.

ثامناً – العلوم:[1]:

استدعت متطلَّبات الري والزراعة والبناء معرفة العلوم المختلفة، ففي الكيمياء كتب واي-بو-يانغ في القرن الثاني الميلادي كتاباً في الكيمياء

(١) فرح، نعيم، تاريخ وحضارات العالم القديم وما قبل التاريخ، د.ط، دمشق، ١٩٧٥، ص٢٧١.

بعنوان: "توحيد المبادئ الثلاثة"، وظهر في أوائل القرن الرابع كتاب عن الكيمياء النظرية والعملية.

وفي الرياضيات وُضِع في القرن الأول الميلادي بحث في العلوم الرياضية، وقد عرف الصينيون حساب المساحة والمحيط للمثلَّث والمربَّع والمستطيل، كما عرفوا العمليات الحسابية الأربع، وقد ساعدت رحلات الحجَّاج الصينيين البوذيين إلى الهند في تبادل المعلومات بين الهند والصين في مجال الرياضيات، وثمة كتب رياضية تبيِّن تقدّم الصينين في مجال الرياضيات.

وفي مجال الفلك راقب الصينيون النجوم منذ القديم، وقد عُثِر على أقدم الأدلة على وجود تقويم في عصر سلالة شانغ، فالتواريخ المسجَّلة تُبيِّن أن سلالة شانغ حسبت الوقت بالأيام والأسابيع والأشهر، وكان الأسبوع عشرة أيام، والشهر ثلاثون يوماً، والسنة اثنا عشر شهراً، وبما أن السنة قمرية، أضافوا إليها شهراً بين مدة وأخرى لمطابقة السنة القمرية مع السنة الشمسية، وقد اخترع الصينيون البوصلة المغناطيسية في القرن العاشر، واستخدمها البحَّارة والمسافرون لتحديد الجهة.

وفي عهد سلالة هان وُضِع مصوَّر لنجوم السماء، ظهر فيه ٢٨ برجاً[١]، متجمِّعين حول نجم البليار[٢]، وقد اختلط علم الفلك عند الصينيين بالتنجيم المزيَّف للكشف عن المستقبل، ويُنسَب إلى كونفوشيوس كتاب في التنجيم تحت عنوان: " كتاب التغيرات".

---

(١) البرج: مجموعة نجوم.

(٢) نجم القطب.

في مجال الطب، اعتقد الصينيون أن المرض ينتج عن عدم التوازن بين قوتي الحياة الين واليانغ، اللتين تجريان في الجسم، لذلك فإن الأدوية تهدف إلى إعادة هذا التوازن، وكانت الأدوية تُستخرَج من الأعشاب والأشجار والحبوب والمعادن والحيوانات، وقد قسَّموها إلى أصناف: صنف حلو يغذِّي الجلد، وصنف حامض يغذِّي العضلات والعظام، وصنف مالح يغذِّي الأوعية الدموية، وصنف مرّ ينشِّط الجسم.

تاسعاً–الفلسفة الصينية:

بدأت تظهر في الصين ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد مدارس فلسفية عدة، حاول مؤسِّسوها وضع حلول لمشكلات الناس وقضايا الحكم والمجتمع، وكان ظهورها نتيجة التنافس بين حكَّام الممالك المختلفة في البحث عن أساليب تقوية نفوذهم لدى المفكِّرين والعلماء والمعلِّمين.

من أهم هذه المدارس الفلسفية:

١– المدرسة الكونفوشيوسية: تُعدُّ الفلسفة الكونفوشيوسية[١] أشهر الفلسفات التي سادت في الصين لقرون طويلة، قامت تعاليمها على النقاط الآتية:

---

(١) سُمِّيت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسِّسها كونفوشيوس، الذي وُلِد في عام ٥٥١ق.م، في مملكة لو شمال الصين (حالياً مقاطعة شاندونغ) لأسرة نبيلة، كان أبوه قائد مقاطعة في مملكة لو، وعندما تُوفِّي والده كان عمره ثلاث سنوات، فعاش مع والدته في فقر مدقع، وقد أجبره الفقر على أن يعمل موظَّفاً صغيراً، ثم اعتزل، وبدأ

أ- يميل كونفوشيوس إلى تأييد ثبات التقاليد القديمة، واستمرار النظم الاجتماعية السائدة، ويقوم مذهبه في الحياة على حب الناس، وحسن معاملتهم، والرقة في الحديث، والأمانة، فالسيد يجب أن يبقى سيداً، والصغير يجب أن يخضع للكبير، ويجب احترام الأكبر سناً والأكبر مقاماً، وتقديس الأسرة، وطاعة المرأة لزوجها.

ب-ويرى أن التعليم وسيلة لنشر الأفكار والآراء، من أقواله: "التعليم الذي لا يكمّله التفكير جهد ضائع، والتفكير الذي لا يكمِّله التعليم خسارة كبرى"، أي إن التعليم والتفكير متمِّمان لبعضهما بعضاً.

ت- عظَّم كونفوشيوس الفضائل والمبادئ الإنسانية، مثل إنكار الذات من أجل سعادة الأخرين، والاستقامة، والصداقة، ومعنى الواجب، وحثَّ تلاميذه على أن يصبحوا أفاضل يسلكون مسلك الاستقامة والواجب، أكثر من الرجال الحاقدين الذين يتبعون مصالحهم الشخصية.

ث- تطرَّقت أفكار كونفوشيوس إلى واجبات الحكومة تجاه الشعب، فهي وُجِدت لخدمة الشعب، وليس العكس، ورأى أن الشعب أهم عناصر الدولة، وأن إرادة السماء من إرادة الشعب، وأن السلطة يجب أن تُمارس لصالح الشعب، ويجب على الحكومة توفير مستلزمات الحياة من مواد غذائية، والحصول على ثقة رعيتها.

يتنقَّل من مكان إلى آخر لنشر تعاليمه، فالتفَّ حوله عدد كبير من الأتباع، ثم اشتُهِر كمعلم، واسم كونفوشيوس هو اسم لاتيني، أما الاسم الصيني فهو كونغ-فو-تشو، وتعني كلمة كونغ: الفليسوف أو المعلِّم، تقلَّد عدداً من المناصب الإدارية، فكان حاكماً لإحدى المناطق، ثم وزيراً للجنايات في مملكة لو، لكنه لم يستمر طويلاً في هذا المنصب، وقد تُوفِّي في مسقط رأسه في عام ٤٧٩ق.م. انظر: جوزيف، نيدهام، المرجع السابق، ص ١٣٤ وما بعد.

ج- ومن أقوال كونفوشيوس التي تدلُّ على حكمته: "أحبَّ لغيرك ما تحبُّه لنفسك".

ترك كونفوشيوس الكثير من الأعمال التاريخية، منها "حولية الربيع والخريف"، وهي كتاب في تاريخ مملكة لو بين عامي ٧٢٢-٤٨١ق.م، وقام بنشر تعاليمه بعد وفاته تلاميذه وأتباعه من خلال تدوينها في كتاب يُعرَف باسم لونيو (مقتطفات)، الذي يُعدُّ مصدراً موثوقاً عن حياته ومبادئه.

يعود الفضل الرئيس في انتشار أفكار كونفوشيوس بعد وفاته بقرن إلى تلميذه مينكيوس Mencius، المعروف أيضاً باسم مينغ-تسو، حيث قام بعد دراسة فلسفة معلِّمه بالترحال من مقاطعة إلى أخرى شارحاً مبادئه، ومبيّناً للحكَّام واجباتهم تجاه رعيتهم.

ومن الجدير بالذكر أن الكونفوشيوسية أصبحت العقيدة الرسمية للمجتمع في عهد سلالة هان، وكان هان-كاو-تسو أول أباطرة الهان، الذي قدَّم القرابين في معبد أسرة كهونج تكريماً لكونفوشيوس، وبعد ذلك أمر الإمبراطور هان منج تي عام ٥٩م بتقديم القرابين له في كل مدرسة في أنحاء البلاد، منتزعاً بذلك عبادة كونفوشيوس من أسرة كهونج، وناقلاً إياها للدولة، ومحوِّلاً كونفوشيوس من مجرَّد نموذج يحتذيه طلاب العلم، إلى قديس حامٍ لموظَّفي الدولة من أهل العلم.

٢- **المدرسة الطاوية**[١]: نافست الفلسفة الطاوية[٢] مذهب الفلسفة الكونفوشيوسية، وجاءت في المرتبة الثانية بعد الفلسفة الكونفوشيوسية

---

(١) جوزيف، نيدهام، المرجع السابق، ص ١٤٨ وما بعد.

من حيث تأثيرها في المجتمع الصيني، وضع أسسها الفليسوف لاو–تزو الذي وُلِد في مقاطعة هونان، وكان معاصراً لكونفوشيوس، قامت مبادئها على النقاط الآتية:

أ– يجب على الإنسان أن يكيِّف حياته حسب نظام الطبيعة، لأن ذلك يؤدِّي إلى الخلود.

ب–حثَّت الطاوية الفرد على الانصياع لمعايير النظام الاجتماعي المثالي، فعلى الإنسان أن يرفض الاعتراف بإملاءات المجتمع، وأن يبحث فقط عن الأشياء المتفقة مع مبادئ الكون، أو الطريق الذي لا يمكن وصفه بالكلمات، أو تصوّره بالعقل.

ت–يجب على الإنسان، حتى يكون في حالة انسجام مع "الطاوية"، ألا يفعل أي شيء، أي ليس مجبراً على شيء مصطنع أو غير طبيعي.

ث–يتمكَّن الإنسان عبر الاستجابة التلقائية للنزوات الذاتية، وإفراغ الذات من كل المبادئ والمعارف، من الاتحاد مع الطاوية، واستخلاص قوة خفية منها تمكِّنه من تجاوز الاختلافات الأرضية كلها، بما في ذلك الحياة والموت.

ج– دعت الطاوية، على الصعيد الاجتماعي والسياسي، إلى العودة إلى الحياة الزراعية البدائية التي يمكن أن يسود فيها الاتجاه الطبيعي.

ح– رأى لاو–تزو أن النظام المثالي في الحكم هو النظام الشمولي الذي يرأسه ملك–فيلسوف.

---

(٢) الطاوية تعني: الطريق، أي الطريق التي يعمل بها الكون، ويسير بمقتضاها، وهي في الواقع نظام الطبيعة.

من أهم مؤلَّفات لاو– تزو رسالة فلسفية بعنوان: "داو–دي–جينع"، أي "كلاسيكية الطريق وتأثيره"، التي تُعدُّ المصدر الرئيس عن الطاوية، وكان لها تأثير كبير في التفكير والثقافة الصينية.

دخلت على الطاوية، في العصور المتأخِّرة، بعض الأفكار التي جعلتها تشبه الديانة الزرادشتية الفارسية، مثل فكرة الصراع بين قوة تمثِّل النور والربيع والخير والحياة والخصب من جهة، وقوة تمثِّل الشر والظلمة والخريف والموت والفناء من جهة أخرى، ومن ثمَّ تبنَّت مبدأ الصراع بين قوتي الخير والشر في الكون.

٣– **الفلسفة الشرعية:** قامت على أيدي المفكِّرَين هان–فاي، وولي–سي، وهما من أتباع الفليسوف الكونفوشيوسي كسونزي، الذي كان يرى أن الناس يُولَدون أنانيين، وأنهم عبر التربية والطقوس فقط يتعلَّمون وضع المبادئ الأخلاقية قبل مصالحهم الشخصية.

قامت أفكار المفكِّرَين هان–فاي وولي–سي على تعاليم أستاذهما كسونزي القائلة: إن الطبيعة البشرية شر لا يمكن إصلاحه، وإن المراقبة الدقيقة ضرورية لتنظيم السلوك الإنساني، لذلك طوَّر فلاسفة الشرعية فلسفة سياسية تؤكِّد القوانين الدقيقة والعقوبات الشديدة لتنظيم كل جانب من جوانب المجتمع الإنساني.

٤– **الفلسفة الموهية:** أُسِّست على يد الفليسوف مو–تزو، الذي يرى أن المنفعة والحب المتبادلين يجب أن يسودا بين الناس بصرف النظر عن المنبت العائلي والعلاقات الاجتماعية، وأفضل شيء يفعله الإنسان هو التضحية بمصلحته الشخصية من أجل مصلحة المجتمع.

٥– **الفلسفة الطبيعية:** ظهرت خلال القرن الرابع قبل الميلاد، ورأت

أن عمل الكون قائم على مبادئ كونية محدَّدة، أهمها الين واليانغ (مُظلَّل ومشمِس)، اللذان يشيران إلى تفاعل في الثنائية في الطبيعة، مثل مذكَّر ومؤنَّث، وظلّ وضوء، وصيف وشتاء.

الفصل الحادي عشر

معالم حضارات إفريقيا القديمة

أولاً- إفريقيا جغرافياً:

تُعدُّ إفريقيا إحدى قارات النصف الجنوبي للكرة الأرضية، ويكاد خط الاستواء يقسمها قسمين متساويين ومتناظرين تقريباً في الامتداد، مما جعلها قارة استوائية، مدارية وشبه مدارية يقطعها مدار السرطان في الشمال، ومدار الجدي في الجنوب، وتتناظر فيها النطاقات المناخية والنباتية تقريباً مع تباين مساحاتها على جانبي خط الاستواء، إذ إن إفريقيا شماله أوسع مساحة من إفريقيا جنوبه. أما الأطوال الجغرافية، فتقع القارة بين خطي الطول ١٧ درجة و٣٣ دقيقة غرباً، و٥١ درجة و٢٣ دقيقة شرقاً، ويمرُّ خط طول غرينتش في جزئها الغربي.

تبلغ مساحتها نحو ٣٠٣٠٢٠٠٠ كم٢، أي ما يعادل ثلاثة أضعاف مساحة أوروبا، تحيط بها مياه البحار والمحيطات من جميع أطرافها; إذ تشرف على مياه المحيط الأطلسي في الغرب، وعلى مياه البحر المتوسط في الشمال، ومياه البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي في الشرق، وتلتقي مياه المحيطين الهندي والأطلسي في جنوب القارة، حيث تصبح نهايتها مدبَّبة عند رأس الرجاء الصالح متوغلة جنوباً باتجاه مياه البحر (المحيط) المتجمِّد الجنوبي والقارة القطبية الجنوبية. من أبرز أنهار هذه القارة نهر (الكونغو)، وهو أقصر من نهر (النيل)، ويأتي نهر (النيجر) في المرتبة الثالثة طولاً بعد (النيل) و(الكونغو)، وهناك نهر (أورانج)، ونهر (السنغال)، ونهر (الزامبيزي)، ونهر (ليمبوبو)، ونهر

(تانا)، ونهر (جوبا)، و(شبلي)، ونهر (الشاري)، ونهر (باتا)، ونهر (أوكوبانغو)، وغيرها الكثير من الأنهار [١].

تضمُّ قارة إفريقيا اليوم خمساً وخمسين دولة منفصلة، تشترك في بعض الخصائص وتختلف في أخرى، وهي الأكثر تنوعاً في العالم من حيث اللغة والثقافة، وذلك نتيجة تراكم حضاري له علاقة وثيقة بماضيها; إذ إن إفريقيا مهد البشرية، حيث تطوَّر البشر لأول مرة ومن ثم انتشروا ليستقروا في بقاع الأرض المختلفة [٢]، وسيتضح ذلك في الصفحات الآتية.

ثانياً- التسمية:

الآراء حول اسم إفريقيا متضاربة، فهناك من قال: إنه مأخوذ من أفريقس بن أبرهة ملك اليمن، وهناك من قال: إنه مشتق من فَرَق، لأن تونس الحالية، التي تفصل بين المغرب ومصر، كانت تُعرَف بإفريقيا، أما تسمية (أوبريكا Oprica) اللاتينية فتعني: الحار أو المشمس، ويرى بعضهم أنه اسم القارة الأصلي. وهناك اشتقاقات وتفسيرات أخرى في مؤلَّفات البكري والمسعودي والمقريزي وابن الشَبَّاط، بعضها أسطوري لا سند له، والمرجَّح اليوم أن التسمية مشتقة من) آفري)، اسم السكان القدماء لتونس الشمالية، ومنه) آفريكا) أي بلاد الآفري باللاتينية، وكان العرب المسلمون يقصدون بـ إفريقيا مدينة قرطاج (قرطاجة) وضواحيها أو تونس الشمالية، وهناك من كان يرى إطلاق تسمية إفريقيّا (بالتشديد)

---

[١] عبد السلام، عادل، إفريقيا، الموسوعة العربية، المجلد الثاني، دمشق، ١٩٨١م، ص ٨٥٤.

[٢] دافيدسون، باسيل، إفريقيا القديمة تُكتشَف من جديد، ترجمة: نبيل بدر وآخرون، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٨-١١.

على القارة كلها، ومن دون تشديد على الأجزاء العربية الإسلامية منها، أي على إفريقيا شمال الصحراء الكبرى في القرون الوسطى. وبسبب غلبة العنصر الأسود، وكونها مصدر الرقيق في عصر الاستعمار الأوروبي، عُرِفت إفريقيا باسم «القارة السوداء» في الأوساط والمصادر الاستعمارية. تمتاز إفريقيا بأنها مركز ثقل العرب والمسلمين، ففيها أكثر من ثلثي العرب في العالم، كما كانت ممراً سلكه الإسلام والعرب إلى أوروبا عن طريق شبه جزيرة إيبريا (أباريا) وجزيرة صقلية وجزر البحر المتوسط الأخرى، ونقلوا إليها أسس الحضارة والمعرفة مباشرة أو بطرق غير مباشرة [١].

ثالثاً– الاكتشاف:

لم تلقَ إفريقيا السوداء في البداية اهتماماً يُذكر، فقد أُقصيت عن ركب الحضارة; إذ قال مؤرّخون وباحثون أمثال ديفيد هيوم[٢]، وترولوب[٣]،

---

[١] عبد السلام، عادل، المرجع السابق، ص٨٥٤.

[٢] ديفيد هيوم: فيلسوف إسكتلندي الأصل، وُلِد في أدنبرة في عام ١٧١١م، وتُوفِّي فيها في عام ١٧٧٦م. انظر: هيوم، ديفيد، رسالة في الطبيعة الإنسانية، ترجمة وتقديم: وائل علي سعيد، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، الجزء الثاني، دمشق ٢٠٠٨م، ص٩.

[٣] أنتوني ترولوب: روائي إنكليزي (١٨١٥–١٨٨٢م)، وُلِد في لندن وتُوفِّي فيها، عمل مدرّساً، ثم مراقباً للبريد، ثم رُفِّع لمنصب "نائب مشرف" على البريد في إيرلندا، انطلق في مهمات حول العالم، مما جعله يكتب كتباً عن أسفاره، من أبرزها كتاب "جزر الهند الغربية والبر الإسباني"، وكتاب "أمريكا الشمالية"، وكتاب "جنوب إفريقيا". اليافي، ثناء، ترولوب (أنتوني)، الموسوعة العربية، المجلد السادس، دمشق، ١٩٨١م، ص٣٧٦.

وتـوينبي[1]: "إن إفريقيـا لـم تُسـهم مسـاهمة مهمـة فـي الحضـارة الإنسانية"[2]، ولم يقتصر الأمر على المؤرّخين فحسب، وإنما شمل التصور الأوروبي العام، الذي رأى أن إفريقيا ليس لديها تاريخ يمكن الحديث عنه، فلم تكن مجتمعاتها تحظى بالاحترام، وكان يُعتقد أنهم بدائيون، وغير متطوّرين، وأنهم لا يمتلكون وعياً تاريخياً جماعياً، كانت تلك التصورات العنصرية جزأً لا يتجزَّأ من عصر الإمبريالية الأوروبية وُظِّفت لتسويغ الغزو الاستعماري لإفريقيا، وبهدف استغلال مواردها. ومن هنا كانت مسألة التاريخ الإفريقي مجالاً للجدل والتنازع عليها، لكن ما لبثت أن تغيَّرت تلك الفكرة عندما بدأت الدراسات والكتابات التي تستند إلى الآثار الباقية تظهر في منتصف القرن العشرين، وأثبتت وجود ممالك تعود لعصور تاريخية قديمة، كان لها دورها في الحضارة العالمية.

دلَّت المكتشَفات الأثرية في شرقي إفريقيا وجنوبها على أنه عاشت في إفريقيا قبل ما يزيد عن نصف مليون سنة أنواع مختلفة من البشر [3]; فالإنسان العاقل هو ابن العصر الحجري القديم، وقد ظهر ممثِّلاً لسلالة البشر منذ ما يقارب مئتي ألف عام قبل عصرنا هذا، ولنقل تحديداً في

---

[1] توينبي (١٨٨٩– ١٩٧٥): مؤرّخ ومفكِّر وفيلسوف بريطاني صاحب نظرية "التحدي والاستجابة" في فلسفة التاريخ، تحدَّثنا عنه سابقاً في الفصل الأول: "الحضارة– شروطها ومظاهرها".

[2] شلقم، عبد الرحمن، إفريقيا القادمة: دراسة في الفن والتاريخ الإفريقي، اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، ليبيا، ط١، ١٩٨٢، ص٥.

[3] جديون، س. وير، تاريخ جنوب إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دار المريخ للنشر، د. ت، ص١٥.

العصر الحجري القديم والوسيط، إذ نشأ الإنسان العاقل الذي نشط في ممارسة الصيد، وعرف النار، واعتمد على النباتات البرية في غذائه، وكان له ميل إلى الفن، فمثلاً رسم نفسه وحيواناته وآلهته بنمط تصويري وتجريدي ورمزي [1].

كما كان لاكتشاف الزراعة مع مرور الزمن دور مهم، فقد عاش الزنوج قبل سبعة آلاف سنة في وسط إفريقيا وشمالها، منهم الفلاحون ومربُّو الماشية الذين احتكوا مع المصريين القدماء، أما فيما يخصُّ معرفة المعادن في إفريقيا عامة، فقد كانت مصر السبَّاقة إلى ذلك، حيث عرفت الذهب والقصدير والنحاس والبرونز، أما في غربي إفريقيا فقد عُرِف الحديد نحو ٤٠٠– ٣٠٠ ق.م.

رابعاً– الممالك الإفريقية القديمة:

يبدو أن الأفارقة احتكوا بالحضارات المجاورة لهم، مثل الحضارة المصرية القديمة، وحضارة جنوبي الجزيرة العربية، ومن ثم تمكَّنوا من إقامة ممالك ذات حضارات مزدهرة، سنحاول أن نُلقي الضوء على بعض تلك الممالك الإفريقية القديمة، ونبيِّن أبرز معالمها الحضارية.

١– مملكة أكسوم[2](إثيوبيا):

أ– أكسوم جغرافياً:

تقع شرق إفريقيا، تحدُّها أرتيريا شمالاً، والسودان غرباً، وكينيا جنوباً، والصومال وجيبوتي شرقاً، وهي مجموعة ممالك صغيرة على رأسها

---

[1] شلقم، عبد الرحمن، المرجع السابق، ص٢٧.

[2] مدينة قديمة في شمالي إثيوبيا، وهي اليوم مركز ديني ومدينة سياحية مشهورة بآثارها، تتميَّز بوجود ١٢٦ مسلة طويلة من الغرانيت في ساحتها المركزية. مرعي، عيد، رحلة في عالم الآثار: أثاريون ومدن أثرية، ص١٠٩.

ملوك يخضعون بدورهم لسلطة ملك الملوك (الإمبراطور) بما يشبه الحكم اللامركزي.

ب- التسمية:

تعني كلمة إثيوبيا يونانية الأصل: ذوي الوجوه المحروقة، أي السود [١]، فهي بلاد الوجوه المحروقة، ومن هنا جاءت التسمية.

وقد ورد ذكرها في كتابات هوميروس (الأوديسة والإلياذة)، وعند أبي التاريخ هيرودوت، واسترابون وديودوروس الصقلي وبلينوس، ومع ذلك لم يكن المراد بها إثيوبيا الحالية، وإنما المراد بلاد قريبة أو بعيدة عنها يسكنها أقوام ذوو بشرة داكنة [٢]. عدَّها الفيلسوف الفارسي ماني واحدة من أربع قوى عالمية عظمى إلى جانب روما وبلاد فارس والصين [٣]، أما الاسم الآخر لإثيوبيا فهو الحبشة، وقد ورد أول مرة في النقوش اليمنية القديمة بدءاً من أواخر القرن الثاني الميلادي إشارة إلى أكسوم أقدم دولة قامت هناك [٤].

ج- الاكتشاف:

لم يبدأ الاهتمام بتاريخ مملكة أكسوم إلا في العصر الحديث. وتم

---

[١] دشّو، عبد الحميد، القارة السمراء- التّطور التّاريخي والتّنوع الجغرافي، ط٢، منبج، ٢٠١٥م، ص ٦- ٧.

[٢] هزيم، رفعت، تاريخ إثيوبية وحضارتها، الموسوعة العربية، المجلد الأول، دمشق، ١٩٨١، ص٣٥٤.

[3] Woldeyohannes, Hiluf Berhe, Aksoum (Ethiopia), an inquiry into the state of documentation and preservation of the archaeological and heritage sites and monuments. Archaeology and Prehistory, Université Toulouse le Mirail - Toulouse II, 2015, p:1.

[٤] هزيم، رفعت، المرجع نفسه، المجلد الأول، ص٣٥٤.

تسجيل أكسوم على قائمة التراث العالمي في عام ١٩٨٠م[١].

يمكن أن نذكر أهم البعثات المنقِّبة عن آثار تلك البلاد فيما يأتي:

-كانت البداية على يد العلماء الألمان **عام** ١٩٠٦م، ثم تبعهم علماء الآثار الإيطاليون أثناء الاحتلال الإيطالي لأريتريا وإثيوبيا بأعمال التنقيب في مدينة أكسوم القديمة، وبعد الاستقلال في عام ١٩٤١م قامت الحكومة الإثيوبية بأعمال التنقيب الأثري بمساعدة بعض الآثاريين الفرنسيين المهتمين بدراسة تاريخ مملكة أكسوم وحضارتها، كما أسهم المعهد البريطاني في شرق إفريقيا في التنقيب في الموقع في أوقات مختلفة، استمرت من عام ١٩٧٢م حتى ١٩٧٤م، ومن عام ١٩٩٣م حتى ١٩٩٧م، ونشرت نتائجها عام ٢٠٠٠م، وكذلك أسهم مشروع مشترك بين المعهد الجامعي الشرقي في إيطاليا وجامعة بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية بالتنقيب من عام ١٩٩٣م حتى عام ٢٠٠٠م، كما شاركت بعثة هامبورج الأثرية الألمانية في أكسوم بأعمال التنقيب في شمال مركز أكسوم عام ٢٠٠٠م، وهناك أيضاً البعثات المحلية المستمرة في التنقيب.

د- تاريخ أكسوم القديم:

يرى الباحثون بناء على ما قدَّمته المصادر القديمة ونتائج التنقيبات الأثرية وجود حضارة ما قبل أكسوم، ومن المرجَّح عبور جماعات يمنية البحر الأحمر في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، وتمكنها من الاستقرار وتشكيل حضارة شبيهة بحضارة اليمن القديم، والدليل على ذلك النقوش المكتشفة، والطراز المعماري، وأسلوب النحت. وهناك رأي سائد يقول بمشاركة السكان المحليين في صنع

---

(1) Woldeyohannes, Hiluf Berhe, Aksoum (Ethiopia), Op.Cit, p: xiii.

حضارة هذه الحقبة عبر مرحلتين، الأولى مرحلة سبئية- إثيوبية مشتركة من عام ٥٠٠ قبل الميلاد حتى عام ٣٠٠ قبل الميلاد، والمرحلة الثانية يظهر فيها التأثر بمملكة مروى في الشمال، ويتضح ذلك في الأساليب الفنية الممثَّلة في الأدوات المصنوعة من البرونز ومن الحديد ومن الفخار، وفي الحلي الذهبية، وكذلك هناك تأثير من مصر في الحقبة الهلنستية، ولاسيما في الأساليب الفنية في النحت، وتنتهي هذه المرحلة في نهاية القرن الأول الميلادي.

اتسم تاريخ أكسوم القديم بالصراعات بين أجزائها بسبب التنافس بين حكَّامها من أجل الوصول إلى السلطة والسيادة، حيث أُسِّست مملكة أكسوم في عام ٣٢٥ ق.م، واستمرت عدة قرون، واتخذت مدينة أكسوم عاصمة لها [١].

في القرن الرابع الميلادي اعتنق عيزانا ملك إثيوبيا النصرانية، وأصبحت كنيسة إثيوبيا كنيسة الدولة، فبلغت مملكة أكسوم ذروة مجدها السياسي والحضاري في هذا القرن.

هـ- المظاهر الحضارية:

١- الإدارة ونظام الحكم:

كان على رأس النظام الملك، ثم الكاهن الأكبر والقاضي وقائد الجيش. وقد قُسِّمت البلاد إلى أقاليم، على رأس كلٍّ منها حاكم يعيِّنه الملك، وكان الجيش مكوَّناً من فرق مسلَّحة بالحراب والفؤوس الصغيرة والسيوف، إضافة إلى استخدام الفيلة في الحرب، وكان هناك أسطول

---

(1) Fauvelle, Francois-Xavier, l'Afrique Ancienne de l'Acacus au Zimbabwe- 20000 avant notre ere- xviie siècle, belin, 2018, p: 2-3.

من أجل حماية التجارة في البحر الأحمر.

ملوك أكسوم: عرفنا من خلال مدوَّنات النصوص والعملات المعدنية ومن مصادر أخرى أسماء ملوك أكسوم، نذكر أبرزهم: افيلاس، سمبروتس، عيزانا، ايلا اميدا الهاليني، انديبيس[1].

٢-الحياة الاقتصادية:

أ- **الزراعة:** كان لموقع أكسوم الجغرافي وتنوع بيئاتها دور مهم في إمكانية زراعة محاصيل مناسبة لوفرة مياه الأمطار، فزرع المزارعون محاصيل عدة مثل القمح والشعير والذرة والعدس والعنب، واهتموا بتربية الماشية مثل الأغنام والماعز، واستخدموا المحراث لتحسين الزراعة، وحفروا الأقنية المائية، وبنوا السدود لتخزين المياه والاستفادة منها.

ب- الصناعة: تمكَّنت أكسوم في زمن ازدهار اقتصادها من صناعة أعداد كبيرة من الأواني الفخارية المنزلية الفخمة، كانت بأشكال متنوعة وأحجام مختلفة، مثل الجِرار (كان على جوانب بعضها مقابض)، والقصعات والأباريق والأكواب.

صُنِعت تلك الأواني من الطين الأسود أو الأحمر، ومن ثم صُقِل سطحها الخارجي باستخدام الطلاء، وزُخرِفت برسوم هندسية بسيطة، كشكل حبال متدلية أو خطوط متعرجة وحلزونية.

ج- التجارة: نشطت أكسوم تجارياً، وازدهرت تجارتها البحرية، وأقامت تحالفات تجارية، ووطَّدت علاقاتها مع الرومان، ومع بلدان البحر

---

[1] شرابي، فوزية، وبلعريبي، لمياء، مملكة أكسوم في الحبشة ودورها الحضاري من القرن الأول الميلادي إلى القرن السابع الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجيلالي بونعامة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، ٢٠١٩م، ص٨٦.

المتوسط والمحيط الهندي والممالك المجاورة، ومع العرب أيضاً. صدَّرت العاج والصدف والذهب والعطور والحيوانات، واستوردت بعض السلع المصنَّعة، مثل النبيذ والأرز والبلح وقصب السكر والأقمشة القطنية وأدوات الزينة والأسلحة، ولعبت التجارة دوراً مهماً في اقتصاد أكسوم، ولا سيما أنها أنشأت أسطولاً بحرياً لأجل التجارة والحملات البرية والبحرية، واهتمت بالطرق البرية والنهرية، وتعهَّدت بحمايتها، وأقامت المعاملات التجارية على أساس المقايضة، لذلك كانت لبعض السلع مثل الملح والحديد والذهب وظيفة النقود، إلى أن سُكَّت عملة خاصة بها.

كانت للعملة الأكسومية أهمية في النشاط التجاري، وهذا مؤشر ودليل مهم على قوة أكسوم التجارية التي جعلتها تُصدر عملة معدنية دامت ما يقارب أربعة قرون، ولما كان الملك يمثِّل الدولة فقد ظهرت صورته على وجهَي العملات الذهبية، وكذلك نُقِش اسمه عليها، وبعض الصور الرمزية مثل صور الآلهة أو الحيوانات أو الطيور.

وتجدر الإشارة إلى أنه في الحقبة الوثنية نُقِش على العملات رمز القرص والهلال، ثم استبدلهما الملك عيزانا بالصليب عند اعتماده الديانة المسيحية، وتم إصدار العملات من المعدن مثل الذهب والفضة والنحاس والبرونز، وتبيَّن أن أكسوم استعملت العملة في النشاط التجاري في الأسواق الداخلية والأسواق الخارجية، وكانت المملكة الوحيدة في إفريقيا في العصور القديمة التي سكَّت عملتها الخاصة، وقد استمرت بسكها من القرن الثالث الميلادي حتى بداية القرن السابع الميلادي [1].

٣- الحياة الدينية: سادت في أكسوم عقائد عدة:

---

[1] شرابي، فوزية، وبلعريبي، لمياء، المرجع السابق، ص٨١.

-**الوثنية:** تشبه ما كان يدين به أهل جنوب الجزيرة العربية من تعدد الأرباب، ولهذه الوثنية خصائص العبادات الزراعية والرعوية.

-**اليهودية:** يسمّي اليهود أنفسهم كيلا أو بيت إسرائيل، ويسمّيهم الإثيوبيون فلاشة أي المنفيون أو المهاجرون.

-**المسيحية:** تنسب المصادر الإثيوبية المترجمة من اليونانية دخول المسيحية إلى مملكة أكسوم إلى غلام يُدعى فرومنتيوس استطاع بعد أن تقلَّد منصب «راعي القانون وكاتب أكسوم» تنصير الملك «عيزانا» الذي حكم في القرن الرابع – وقيل الخامس – ثم ارتحل إلى مصر، فعيّنه بطريرك الأقباط أول مطران لإثيوبيا.

-**الإسلام:** بدأت صلة إثيوبيا بالإسلام مع هجرة المسلمين إلى الحبشة في عام ٦١٤م، ثم بدأ الإسلام ينتشر في مطلع القرن العاشر من خلال التجَّار والمهاجرين المسلمين من الساحل إلى الداخل [١].

٤ – اللغة:

تُقسَم اللغة في إثيوبيا إلى ثلاث مجموعات كبيرة: الكوشية وأهمها الصومالية، والأورومو، ونيلية، وتضمُّ مجموعة من لغات القبائل الصغرى في أريتريا ومنطقة الحدود مع السودان، وهي محدودة الانتشار، والسامية وأهم لغاتها ست: الجعزية والأمهرية والتغرينية والتغرية والغوراجية والعربية، وتُعدُّ الجعزية أقدمها وأهمها، لأنها لغة النقوش الأكسومية ولغة التراث الإثيوبي، وخطها متطور عن الخط

---

[١] هزيم، رفعت، المجلد الأول، المرجع السابق، ص٣٥٤.

انظر أيضاً: الجمل، شوقي عطا الله، وآخرون: الموسوعة الإفريقية– لمحات من تاريخ القارة الإفريقية، المجلد الثاني، دار مجدي محمود للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٥٧.

العربي الجنوبي المُسند [١].

أما الأدب الإثيوبي فيتسم بسمتين مميزتين: أولهما غلبة الطابع الديني عليه، وثانيهما أنه أدب مترجم، وربما يعود ذلك إلى كون التعليم كان خاصاً برجال الكنيسة الذين لم يعيروا انتباههم إلى آداب اليونان والرومان والعرب وفلسفتهم وعلومهم، بل جعلوا الكتاب المقدس وما يتصل به من علوم لاهوتية مصدر المعارف كلها.

مرَّت الترجمة بمرحلتين، الأولى من القرن الخامس إلى القرن الثامن الميلادي، وكانت من اليونانية، وتضمَّنت الكتاب المقدَّس وبعض الأسفار، والثانية بدأت أواخر القرن الثالث عشر، وتميَّزت بتحول المؤلَّفات العربية إلى مصادر الترجمة [٢].

٥- العمارة والنحت:

تتجلَّى المظاهر المعمارية بـ:

١- **المسلات:** التي كانت كثيرة العدد، ضخمة الحجم، مصنوعة من قطعة حجر واحدة من الغرانيت، ومنقوش عليها كتابات، وقد تهشَّم بعضها، وبقي منها اثنتان أُخذت إحداهما إلى روما في عام ١٩٣٩م، وبقيت الثانية في مكانها، وهي بارتفاع ٣٣متراً، نُقش على أحد جوانبها رسم يمثِّل مبنى مؤلَّفاً من تسع طبقات. كما عُثِر على عدد من المسلات الأصغر حجماً في أكسوم، واللافت في تلك المسلات ما كُتِب عليها من كتابات. وُجِد على إحدى المسلات نقش باليونانية يمثِّل تخليداً لانتصارات الملك، ويتحدث عن القتلى الذين قتلهم الملك عيزانا.

٢- **العروش الحجرية:** التي كانت تُقام على مصاطب لأجل الآلهة،

---

[١] هزيم، رفعت، المجلد الأول، المرجع السابق، ص٣٥٤.

[٢] المرجع نفسه، ص٣٥٤.

وللأسف لم يبقَ منها سوى المصاطب، وهناك التماثيل التي تمثِّل شخصاً جالساً، وعليها نقش، وهناك تماثيل صغيرة لأبي الهول ولثيران.

٣- **المعابد، والكنائس المنحوتة:** من الكتل الحجرية، ومثال عليها كنيسة (لاليبيلا) التي احتوت على أعمدة مزينة بأنواع مختلفة من الصلبان، إضافة إلى الكثير من اللوحات المصوَّر عليها القديسون والحيوانات ورمزا الشمس والهلال.

٤- **القصور والقلاع والبيوت وأحواض المياه القريبة وقبور الملوك:** آثارها قليلة، فقد نحت بعضها في الصخور، وعُثِر في بعضها على عمود وأقبية في أسفله على كل جانب، ويحتوي الجزء الآخر مقبرة مزدوجة ومزوَّدة بسلَّم يتألَّف من سبع عشرة درجة، تطلُّ من فوقها مسلة. تمثِّل الحضارة الإثيوبية المسيحية ثلاثة مراكز كبرى، وهي أكسوم ولاليبيلا وغوندر، نجد طراز العمارة الأكسومي متأثراً بنظيره في اليمن القديم –من حيث شكل البناء المربَّع والمستطيل، والقاعدة المدرَّجة، واستخدام الحجارة والخشب، وبروز بعض العوارض في الجدران– وهناك كنيسة القديس جورج المنحوتة على شكل صليب مربَّع في منخفض عميق، أما الطراز المعماري الغوندري فيشبه الطراز المعماري في أوروبا في عصر النهضة. يمكننا ملاحظة البساطة في التصميم، والبعد عن التكلف، واستخدام الزخارف الهندسية والنباتية البسيطة الخالية من التعقيد.

و- نهاية مملكة أكسوم:

بدأت مملكة أكسوم تتراجع وتتلاشى في القرن السابع الميلادي، وغابت عن ساحة الأحداث سياسياً وتجارياً، ربما نتيجة الأسباب الآتية:

١- سبَّب قيام الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية وبلاد الشام

والعراق وفارس ومصر في إبعاد أكسوم سياسياً، وتخلي حليفتها بيزنطة عن الشرق.

٢- ضعف دور أكسوم التجاري البري والبحري بعد قيام الأمويين بفتح جزائر دهلك في خليج مصوع، وسيطرتهم على الطرق التجارية في البحر الأحمر.

٣- قيام إمارات مسيحية في الشمال الغربي منافسة لأكسوم، وأبرزها علوة ومقرة والنوبة، وزحف قبائل البجة من الشمال، مما أجبر الأكسوميين على الابتعاد نحو الجنوب، واستبدلوا أكسوم بحاضرة جديدة هي الناصرة [١].

وهكذا غاب ذكر أكسوم، ولم يعد يَرِد حديث عنها، ولم يُعرف عنها شيءً يُذكر بعد القرن السابع الميلادي.

٢- مملكة كوش:

أ- كوش جغرافياً:

تمتدُّ كوش جنوب مصر وشمال السودان، وهي تقع بين الشلال الأول جنوبي أسوان والشلال السادس شمالي الخرطوم [٢].

ب- التسمية:

أطلق الإغريق اسم (كوش) على بلاد النوبة [٣]، ويعود اسم النوبة إلى كلمة نب، ومعناها في اللغة النوبية: الذهب، أي: بلاد الذهب نتيجة

---

[١] شرابي، فوزية، وبلعريبي، لمياء، المرجع السابق، ص٩٩.

[٢] حسين، عبد الله، السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، ج١، نسخة إلكترونية عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٣، ص٥٩.

[٣] كعدان، صباح، إفريقيا تاريخياً، الموسوعة العربية، الجزء الثاني، دمشق، ١٩٨١، ص٨٥٤.

وفرة هذا المعدن في صحاريها [١]، كما يُسمّيها المؤرّخون مملكة كوش النوبية، أو الأسرة الخامسة والعشرين.

أما أصل النوبيين فهناك من يقول: إنه سكن هذه البلاد (النوبة) قوم اجتمعوا في نسبهم بقدماء المصريين، وقد ذهب المؤرّخ ديودور إلى القول بأن أصل المصريين جالية نوبية نزحت من الجنوب، وذهب آخرون إلى أن النوبيين نزحوا قديماً من مصر إلى الجنوب، وحملوا معهم بذور الحضارة والعقائد المصرية، وسواء أكان المصريون جالية نوبية نزحت إلى الشمال، أم كان النوبيون جالية مصرية هاجرت إلى الجنوب، فإن مما لا شك فيه أنهما من عنصر واحد كما أثبتت الأبحاث [٢].

ج- الاكتشاف:

قامت حملة في عام ١٩٠٧م بحفريات أثرية واسعة في المنطقة لإنقاذ آثار النوبة خشية أن تغمرها مياه خزان أسوان، وقد شارك في هذه الحملة علماء آثار من بلدان مختلفة لهم باع في التنقيب الأثري، يُذكر منهم عالم الآثار (ريزنر)[٣]، الذي شارك في عام ١٩١٣م مع بعثة أثرية لجامعة هارفرد ومتحف بوسطن، وقد تمكَّنت هذه البعثة من أن تكتشف المقابر الملكية الخاصة بالأسرة المالكة (**الكوشية**)، التي اتخذت

---

[١] حسين، عبد الله، المرجع السابق، ص٥٩.

[٢] المرجع نفسه، ص٥٩-٦٠.

[٣] جورج أندرو ريزنر: عالم آثار أمريكي بارز (١٨٦٧- ١٩٤٢م) ، له دور مهم في عمليات التنقيب عن حضارة مصر القديمة وحضارة السودان القديمة، حَسّن من أساليب عمليات التنقيب، واهتم بدقة بأصغر الأشياء.

Reisner George, A History of the Giza Necropolis, 1 volumes, London, 1942, p:24.

من **(نباتا)** عاصمة لها، واستطاعت بعد ذلك أن تمدَّ نفوذها إلى مصر نفسها مكوِّنة الأسرة الخامسة والعشرين[١]، ونباتا مدينة سودانية قديمة على الضفة الغربية للنيل الأزرق، على بعد ٤٠٠ كم شمال الخرطوم عاصمة السودان حالياً، أُسِّست نَباتا على أيدي النوبيين في عام ١٣٤٥ قبل الميلاد[٢].

وبقيت نباتا العاصمة حتى عام ٥٩٠ ق.م، ومن ثم أصبحت العاصمة «مروي» حتى عام ٣٥٠ ق.م[٣] كما سيتضح ذلك لاحقاً.

د- تاريخ مملكة كوش:

تكشف الدراسات على ضوء المكتشفات الأثرية عن حضارة قامت قبل كوش، وتركزت في الجزء الجنوبي من بلاد النوبة قرابة ٢٥٠٠ قبل الميلاد، وهي حضارة كرمة (نسبة إلى اسم مينة كرمة البلد)، وعُرِفت بحضارة النوبة أيضاً، مارس أبناؤها الزراعة والصيد، وقاموا بتربية الماشية، وصنعوا بعض المواد والأدوات من الفخار والمعدن مثل الحديد في ورش التصنيع، واهتموا ببناء المعابد والمقابر باستخدام الطوب من الطين [٤]، وتميَّزت حضارتهم بوضع الميت على سرير من الخشب، وعادة دفن الحيوانات الأليفة مع صاحبها في القبر. وبعد انهيار حضارة كرمة ظهرت مملكة كوش نحو ٧٥٠ ق.م، وكانت عاصمتها نَباتا على

---

[١] الجمل، شوقي عطا الله، وآخرون: المرجع السابق، ص٤٥.

[٢] مرعي، عيد، رحلة في عالم الآثار: أثاريون ومدن أثرية ، ص٢٧٨.

[3] Willie F. Page, revised edition by R. Hunt Davis, Jr, Editor, Encyclopedia of African History And Culture, Volume I Ancient Africa (Prehistory to 500 CE), Printed in the United States of America, New York, 2005, p:165.

[4] Reisner George, Excavations at Kerma, parts I-III, Peabody Museum of Harvard University, Cambridge, U.S.A. 1923.

الشلال الرابع للنيل قرب جبل برقل شمالي السودان.

في أواخر أيام الأسرة العشرين المصرية، وبسبب ضعف الملوك عمَّت الاضطرابات في أرجاء البلاد المصرية، وأدَّت في النهاية إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية في البلاد، وشاعت السرقات حتى طالت المقابر الملكية، مما أجبر الكاهن الأكبر لمعبد أمون على نقل مومياءات الملوك وجمعها في مكان آمن وكبير في الدير البحري، بينما هجر الكهنة طيبة باتجاه الجنوب إلى بلاد النوبة، فرحّب بهم أهل النوبة، واستقروا في نباتا، حينها استغل أمراء نباتا هذه الظروف وأعلنوا أنفسهم حكَّاماً مستقلين في مناطقهم. وأصبح حكَّام نباتا يصرحِّون بأن طيبة العاصمة الدينية وما يقع جنوبها يعتبر من ممتلكاتهم، وهكذا نظر النوبيون لمدينتهم نباتا بوصفها طيبة النوبية.

أهم ملوك نباتا: الملك بيعنخي، الملك كاتشا، الملك شبكا، الملك شبتاكا، الملك تهارقا، الملك تانوت أمون.

هـ- المظاهر الحضارية:

ظهرت بعض مظاهر الحياة المختلفة في عهد ملوك (نباتا):

١- **الناحية الإدارية:** كانت نباتا العاصمة الأولى لمملكة كوش، وهي من جذور نوبية، وكانت مقسَّمة إلى إقطاعات، على رأس كلٍّ منها **أمير**، ولكل أمير جيشه، وكان الأمراء يتمتَّعون بثراء كبير.

٢- **الناحية الاقتصادية:** تحقَّق التقدم في الزراعة والرعي والصناعة والتجارة بين مصر وبلاد النوبة، ولأن بلاد السودان كانت تمثِّل المصدر الرئيس للذهب والأحجار الكريمة المختلفة، فقد اشتُهِر ملوك (كوش) بالثروة، واهتموا باقتناء الخيول.

٣- **الناحيـة الدينيـة:** كـان لعبـادة الإلـه آمـون رع مكانـة فـي نفـوس الأسرة الملكية في كوش، لأن أساس قيام مملكة كوش هم كهنة الإله آمون في طيبة، الذين هاجروا من مصر إلى نباتا. وقد تتبَّع ملوك كوش الشعائر الدينية في مصر، واهتموا ببناء المعابد، وقدَّموا الهبات لكهنتها.

٤- **الناحيـة الثقافيـة:** قام بعض الأثريين بدراسة اللوحات التي عُثِر عليها من العصر الكوشي، مثل لوحة الملك بيعنخي، ولوحة الملك شبكا، وقد انتهت دراستهم إلى وجود طبقة من الكتّاب قد تأثَّرت بالكتابة المصرية، إضافة إلى ما عُثِر عليه من وثائق مكتوبة بالديموطيقية متعلِّقة بالمعاملات بين الأفراد، وعقود خاصة بالبيع والشراء والملكية [١]. من أبرز آثار المملكة، الأهرامات، إلى جانب المعابد والتماثيل الضخمة، فهناك ثلاثة عشر هرماً في جبل البرقل، وخمسة وعشرون تجاهه في نوري عند الشلال الرابع، وهي مبنية من الحجر الرملي على هيئة أهرامات مصر إلا أنها أصغر حجماً منها، وفي واجهة كل هرم إيوان، كأواوين المعابد المصرية [٢]. كما تجدر الإشارة إلى أبرز ما اكتشفه عالم الآثار «ريزنر»، وهو الأهرامات الأربعة لملوك النوبة: بيعنخي وشبكا، وشبتاكا وتانوت آمون.

بعد أن اضمحلت مملكة نباتا بعد سقوط الأسرة الحاكمة، واستقلت كل من مصر والنوبة، وتعاقب على مصر الفرس والبطالمة والرومان، قامت في النوبة مملكة مروى [٣].

---

[١] الجمل، شوقي عطا الله، وآخرون: المرجع السابق، ص٤٨.

[٢] حسين، عبد الله، المرجع السابق، ص٦٥.

[٣] المرجع نفسه، ص٦١.

٣- حضارة مروى:

أ-مروى جغرافياً:

انتقلت العاصمة نتيجة ضعف دولة **(نباتا)** جنوباً إلى مروى، التي تقع قرب شندي الحالية[١]، وبيَّن الأثري إمري Emery [٢] بوضوح: "أنه انتقلت العاصمة السياسية من نباتا إلى مروى في الجنوب على الضفة الشرقية للنيل ما بين الجندلين الخامس والسادس، وبقيت نباتا العاصمة الدينية"[٣]، الأمر الذي جعل نفوذ مملكة مروى يمتدُّ من الشلال الأول إلى حدود الحبشة، وجاء موقع مروى مهماً، لأنها بعيدة عن مصر، وفي مفترق طرق التجارة البرية والنهرية والبحرية، إضافة لوفرة الأمطار ومجاري الوديان، مما وفَّر أراضيَ خصبة للزراعة ومراعيَ مناسبة للحيوانات، وزاد في ثرائها وجود معادن مهمة مثل الذهب والنحاس والحديد.

ب-المظاهر الحضارية:

---

[١] دافيدسون، باسيل، إفريقيا القديمة تُكتَشف من جديد، ترجمة: نبيل بدر وآخرون، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٢٥- ٢٦.

[٢] إمري: (١٩٠٣- ١٩٧١) أثري بريطاني سخَّر حياته كلها، باستثناء ست سنوات في الجيش، وأربع سنوات في السلك الدبلوماسي، لتنقيب المواقع الأثرية على طول وادي النيل، وعمل أستاذاً للمصريات في جامعة لندن ١٩٥١-١٩٧٠، واختير لزمالة الأكاديمية البريطانية في عام ١٩٥٩م، أبرز مؤلَّفاته: المقابر العظيمة للأسرة الأولى (ثلاثة مجلدات) ، ومصر العتيقة، ومصر وبلاد النوبة. انظر: إمري، والتر، مصر وبلاد النوبة، ترجمة: تحفة حندوسة، مراجعة: عبد المنعم أبو بكر، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨، ص٢٦-٢٧.

[٣] المرجع نفسه، ص٢٣٢.

١- تدلُّ الآثار المكتشَفة [١] في مروى على أن حضارتها كانت مزدهرة، وأنها تأثَّرت بالحضارات الفرعونية والإغريقية والرومانية والحبشية.

٢- كان العرش في مروى وراثياً داخل السلالة المالكة [٢]، واتسم النظام السياسي الذي ساد النوبة وشمال السودان ما بين القرنين الثامن قبل الميلاد والرابع الميلادي بالاستقرار والاستمرار.

أما ما يخصُّ النظام الاجتماعي: فقد كانت هناك طبقة عليا حاكمة شملت الملك وأقرباءه ورجال البلاط، وطبقة أرستقراطية محلية شغلت المناصب الإدارية والعسكرية، ثم طبقة كهنة المعابد، والطبقة الوسطى من الصنَّاع وأصحاب الحرف والتجَّار وصغار الموظَّفين والخدم والمزارعين، وفي نهاية السلَّم الاجتماعي نجد الرقيق ومصدرهم من أسرى الحروب.

٣- كشفت المكتشَفات الأثرية وجود عدد كبير من الأهرامات والمعابد في قسطل والبلانة، وقد عُثِر على تيجان للملوك والملكات من الفضة المرصَّعة بالجواهر، وعلى مجموعة من الحلي والأسلحة والأطباق، وتحف من البرونز، ورقعة للشطرنج من العاج والأبنوس، وسروج للخيل من الجلد المصبوغ بعضها مطَّعم بالأحجار الكريمة [٣].

٤-أظهرت المكتشَفات ظاهرة وضع الطعام والشراب في قبر الميت،

---

[١] هناك قسم خاص بالآثار التي تبيِّن تاريخ بلاد النوبة وحضارتها في المتحف المصري، إضافة إلى وجود الكثير من الآثار في المتاحف الأوروبية وصلت عن طريق البعثات التنقيبية التي أُرسلت إلى تلك المنطقة.

[٢] لكلان، ج، المرجع السابق، م٢، ص٢٩٩.

[٣] الجمل، شوقي عطا الله، وآخرون، المرجع السابق، ص٤٩.

فهناك حياة بعد الموت [١] مثل مصر، وكذلك دفن العبيد والخيول والكلاب، التي كانت في خدمة الملك، مع الملك، ولا شك كانت مقابر الأغنياء تختلف عن مقابر الفقراء.

٥- يعتقد إمري، الذي اكتشف في عام ١٩٣١ مقابر النوبة في قسطل والبلانة، أنها تعود إلى الملوك والأشراف، وقد عُثِر على آثار تدلُّ على وجود قنوات مائية قديمة [٢].

٦- تمكَّن المرويون من تطوير أبجدية كتابية مشتقة من الهيروغليفية المصرية، وعوضاً عنها، مكوَّنة من ٢٣ حرفاً لكتابة اللغة المروية في المملكة.

٧- ذكر سترابون [٣]" أن العاصمة مروى جزيرة جبلية كبيرة فيها مناجم للنحاس والحديد والذهب والأحجار الكريمة الأخرى، وقد بنى سكان مروى منازلهم في المدن الرئيسة من فروع الأشجار، واستخدموا القوس الخشبي في حروبهم، وعبدوا الآلهة المصرية إلى جانب آلهتهم، ونجد في هذه العبارة إشارة واضحة إلى تأثر المرويين بالمصريين، أما أهم الحبوب التي استخدمها المرويون، فهناك إشارة واضحة من سترابون إليها، حيث ذكر أن المرويين اعتمدوا في عيشهم على الذرة والشعير،

---

[١] أحمد، محمود عبد الحميد، مروى، الموسوعة العربية، دمشق، المجلد الثامن عشر ١٩٨١، ص٤٤٦.

[٢] الجمل، شوقي عطا الله، وآخرون، المرجع السابق، ص٥٠.

[٣] "سترابون": (و٦٤ ق.م ، ت ٢٠ م) عالم جغرافي ومؤرّخ يوناني. انظر: سترابون، الجغرافيا- سبعة عشر كتاباً في جزأين، ترجمة: حسان ميخائيل إسحق، ط١، دار ومؤسسة رسلان، دمشق، ٢٠١٧م.

وكانوا يُعدُّون منها مشروباً يُعرَف بِالمريسة[١].

٨- انتشرت المسيحية في مملكة مروى عند وصول القديس جوليان، فاعتنق أهلها وملكها المسيحية.

كانت نهاية المملكة المروية عندما بدأت تظهر عوامل الضعف والخلافات فيها، وراحت تنقسم مما سهَّل شن غارات عليها من الأحباش بقيادة ملكهم عيزانا، ودُمِّرت قرابة القرن الثالث الميلادي.

٤- حضارة مملكتي مقرة وعلوة:

أ- **المملكتان جغرافياً:** مملكة مقرة مملكة نوبية، كانت تقع في شمال السودان الحالي وجنوب مصر، امتدت بمحاذاة نهر النيل من الشلال الثالث حتى الشلال السادس. أما مملكة علوة فهي ثاني مملكة نوبية قامت جنوب السودان ووسطه، وكانت قريبة من الخرطوم عند التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض.

ب-**تاريخ المملكتين:** ذكرنا سابقاً أنهما مملكتان نوبيتان قامتا في بلاد النوبة على إثر سقوط مملكة كوش، وبعد انتشار المسيحية فيها عن طريق مصر، ويرى المؤرِّخون أن المسيحية دخلت من مصر إلى بلاد النوبة منذ القرن الأول الميلادي على يد مصريين مسيحيين كانوا قد نزحوا إلى بلاد النوبة في القرنين الأول والثاني الميلاديين [٢].

ج-المظاهر الحضارية:

١- انتشرت المسيحية في المملكتين عن طريق المهاجرين من أقباط مصر، أو من الذين اعتنقوا المسيحية في مملكة مقرة.

---

[١] الجمل، شوقي عطا الله، وآخرون، المرجع نفسه، ص٥٠.

[٢] المرجع نفسه، ص٥١

٢- حوَّل النوبيون عدداً من المعابد الوثنية إلى كنائس وأديرة مع بقاء الأفكار الوثنية إلى جانب المسيحية، وقد أفادت بذلك البعثات الأثرية التي عثرت على عدد من الكنائس في مناطق "إبريم"، و"دنقلة"، و"فرس"، و"بهين"، وغيرها من بلاد النوبة.

٣- كانت الصلوات والأدعية تُؤدَّى في الكنائس والأديرة في النوبة باللغة الإغريقية، إلى أن بدأت الكلمات القبطية تدخل رويداً رويداً مع بداية القرن الثامن الميلادي.

٤- كان على رأس كل مملكة من مملكتي النوبة ملك سلطته مطلقة، ونظام الحكم فيها وراثي، وقد قُسِّمت المملكة إلى أقسام إدارية، وإلى جانب الملك كان هناك موظَّفون يرأسهم نائب الملك، إضافة إلى أسقف المملكة أو مطرانها المُعيَّن بأمر بطريرك الإسكندرية.

٥- قُسِّم المجتمع إلى طبقتين: الطبقة الأولى هي الحاكمة ضمَّت الأسرة المالكة وحكَّام الأقاليم والموظَّفين، والطبقة الثانية ضمّت أفراد الشعب.

٦- يعتمد الاقتصاد النوبي على التجارة عن طريق المقايضة بالرقيق والمواشي والحبوب والحبال والحديد، كما كان للملك النوبي دوره في الجانب التجاري من خلال علاقاته التجارية إن كان مع مصر أو مع إثيوبيا. أما فيما يخصُّ الزراعة، فقد اتخذ النوبيون مناطق ضفاف نهر النيل والجزر المنتشرة فيه من أجل الزراعة، فزرعوا الذرة والشعير والسمسم والكروم وأشجار النخيل.

كانت نهاية المملكتين عندما حلَّ الضعف وسبَّب انهيار الممالك النوبية المسيحية، فانتهت مملكة مقرة في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وأوائل القرن الرابع عشر الميلادي، وانتهت مملكة علوة في

أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

٥- حضارة زمبابوي:

أ- المملكة جغرافياً:

تقع زمبابوي في جنوب قارة إفريقيا، تحدُّها شمالاً زامبيا، وغرباً بتسوانا، وجنوباً جمهورية إفريقيا، وشرقاً موزامبيق، وعاصمتها هراري.

ب- التسمية:

أُخِذ اسم زمبابوي من المنطقة التي كانت تسكنها بعض قبائل البانتو، أجداد قبائل الماشونا، حيث قامت فيها مملكة عظيمة على يد فرع من شعب الزولو[١]، وقد حاول بعض الأثاريين واللغويين تفسير كلمة زمبابوي التي كان الوطنيون يُطلقونها على بلدهم بعد استقلالها عن الإنكليز، فمنهم من ذكر أن زمبابوي هي كلمة بانتوبة تعني: المدينة الرئيسة، أي العاصمة، في حين ذهب بعضهم إلى أنها تعني: المباني الحجرية، وأرجع آخرون تسميتها إلى قبائل زامباس تلك القبائل القوية التي كانت تسكن هذه البلاد.

ج-اكتشاف المملكة:

توجَّهت الأنظار إلى آثار زمبابوي نتيجة ما قدَّمه الرحَّالة، ولا سيما الرحَّالة الأمريكي آدمز رينديرس Adam Renders، والألماني كارل ماوخ Karl Mauch[٢] من أعمال مكتوبة على ضوء ما شوهد من آثارها، وعلى إثر ذلك بدأت أعمال التنقيب في زمبابوي، وكثرت الدراسات عنها.

تشير الآثار التي وجدت في المنطقة المعروفة حالياً باسم زمبابوي

---

[١] دشّو، عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١١٢.

[٢] الجمل شوقي عطا الله، وآخرون: المرجع السابق، ص٦٠.

إلى أن هذه المنطقة كانت مأهولة منذ العصر الحجري، وقد استطاع سكان هذه البلاد استخراج المعادن والمتاجرة بها، وفي القرن الحادي عشر الميلادي قامت مجموعة من قبائل الشونا ببسط سيطرتها على المنطقة، وأنشأت فيها مدينة سمَّوها زمبابوي، أي بيت الحجر بلغة الشونا [١].

ويمكننا ذكر أبرز ما توصَّلت إليه البعثات التنقيبية:

-آثار منطقة زمبابوي: عُثِر فيها على المعبد البيضاوي، والأكروبول[٢]، وآثار وادي الخرائب، والمباني المعمارية، وأدوات وتماثيل مختلفة.

- آثار منطقة خامي Khami: تقع غربي مدينة "بولاوايو"، وتُعرَف باسم "هيدبارك"، ويبدو أن هذه المنطقة كانت مركزاً لتعدين الذهب، وقد عُثِر فيها على بعض الأدوات والآلات التي استخدمها الإنسان.

- آثار "بلنجوي Belingwe": تقع جنوب غرب منطقة زمبابوي الأثرية، وتحتاج مكتشَفاتها إلى دراسة وتمحيص.

- آثار دهلو دهلو Dhlo Dhlo : تقع شرق بولاوايو، وقد نُشِرت أبحاث عدة عنها، بيَّنت أن هناك مبانيَ تمثِّل حصناً دفاعياً في المنطقة الأثرية مبنية من حجر الجرانيت، وهناك بعض الأواني الفخارية لحفظ المياه، وبعض الأدوات المصنوعة من الزجاج.

- آثار إنيانجا Inyanga: عُثِر على آثار هذه المنطقة في أرض

---

[١] رهبان، عبد الرؤوف، زمبابوي، الموسوعة العربية، المرجع السابق، المجلد العاشر، ص٣٩٣.

[٢] مصطلح أثري يدلُّ على الجزء المرتفع من المدينة الأثرية، و"أكروبول" كلمة إغريقية الأصل تعني: المدينة العالية.

"الماشونا"، ولاسيما المصاطب في التلال، وبعض الآثار في الوديان.

٦- ممالك إفريقيا الغربية:

أ- مملكة غانا Ghana: تشير المكتشَفات الأثرية إلى أن الوجود البشري في غانا يعود إلى ١٥٠٠ق.م[١]، فغانا مدينة قديمة، وهي خربة اليوم تقع في جنوب غربي مدينة تمبكتو على نهر النيجر، وقد كانت عاصمة مملكة إسلامية أنشأها شعب البوهل في القرن العاشر الميلادي[٢].

امتدت من جنوب شرقي موريتانيا إلى جنوب غربي مالي، وتمكَّنت من أن تصبح مملكة قوية غنية بالمعادن، ولا سيما الذهب، وقد حقَّقت النجاح اقتصادياً وسياسياً.

عرَّف بها المؤرِّخون العرب، من أبرزهم الشريف الإدريسي، واليعقوبي، وابن خلدون، وتحدَّثوا عنها، ووصفوا موقعها [٣]، وأشاروا إلى أن اسمها مأخوذ من اسم ملك من ملوكها كان اسمه "غانا"، أما عاصمتها فهي مدينة "كومبي صالح"[٤]. كان بروز مملكة "غانا" على مسرح الأحداث خلال المدة الممتدة ما بين القرنين الثامن والحادي عشر الميلادي،

---

[١] عبد الله، فيصل، مرعي، عيد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ٤١٩- ٤٢٠.

[٢] بيطار، عبد الرحمن، غانا "إمبراطورية"، الموسوعة العربية، دمشق، المجلد الثالث عشر، ١٩٨١م، ص٧٤٩.

[٣] ذكر الإدريسي في الجزء الثاني من كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" وصفها، واهتمام أهلها بالتجارة، وأنها مقصد للتجار من البلاد المحيطة بها جميعها، كما بيَّن نسب ملكها. انظر في الكتاب المذكور: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، المجلد الأول، ٢٠٠٢، ص ٢٢-٢٣.

[٤] دافيدسون، باسيل، المرجع السابق، ص٨٨.

نتيجة مجموعة من العوامل الطبيعية والاقتصادية والدينية.

تميَّزت المملكة بنظام سياسي ملكي استبدادي، وبامتلاكها لجيش قوي ذي أعداد كثيرة وعتاد قوي، وقد قُسِّمت المملكة إلى ولايات على أساس المركزية، فلكلٍّ منها حاكم يُدير شؤونها، ونظام الحكم وراثي، ينتقل إلى ابن الأخت، إلا أنه مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي –زمن انتشار الإسلام– أصبح الملك يُورِّث الابن.

أما نهاية المملكة، فكانت نتيجة تراكم مجموعة من العوامل، مثل الجفاف الذي دفع الناس إلى الهجرة، وحملات المرابطين.

ب–مملكة كانيم بورنو: قامت على إثر سقوط مملكة غانا في منطقة بحيرة تشاد، واستمرت من القرن التاسع حتى القرن التاسع عشر[١]، أسَّسها شعب هو مزيج من الزنوج والبربر، واعتمد اقتصادها على التجارة[٢].

ج– مملكة مالي: هي أكبر ممالك غربي إفريقيا وصلت إلى أوج قوتها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وحكمها ملوك سلالة كيتا[٣]، ضمَّت مملكة "**مالي**" مناجم ذهب، وسهولاً زراعية خصبة في وادي نهر النيجر، لكن على الرغم من ازدهارها إلا أنها ضعفت وبدأت تنهار حين أخذت المدن والمقاطعات الشمالية تثور إلى أن قامت مملكة سونغاي.

د– مملكة سونغاي: قامت هذه المملكة عند المنحنى الكبير لنهر النيجر، وكانت عاصمتها جاو التي يعود تأسيسها إلى عام ٨٠٠ م،

---

[١] عبد الله، فيصل، مرعي، عيد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص٤٢٠.

[2] Fauvelle, Francois-Xavier, Op.Cit, p:4.

[٣] دافيدسون، باسيل، المرجع السابق، ص ٤٥.

اعتنق سكَّانها الإسلام، وهناك مدينة تيمبوكتو التي وصلت إلى ذروة ازدهارها بوصفها مركزاً تجارياً ودينياً، لكن على الرغم من ذلك عانت المملكة من صراع على الحكم، ومن خلافات أوصلتها إلى نهايتها، مما سهَّل سيطرة المغرب عليها في عام ١٥٩١م[١].

أخيراً تجدر الإشارة إلى أنه تتمتَّع مناطق الجنوب الإفريقي اليوم بمزيج حيوي من الشعوب والثقافات ذات الماضي المميز والخاص، وذات التاريخ الغني والحقيقي، الذي بيَّن كيف تنازعت الشعوب والثقافات من أجل السيطرة على ثروات المنطقة العظيمة (الذهب والماس والعاج والأرض)، ووضَّح كيف وصلت هذه الشعوب والثقافات إلى مستوى حضارة العالم من خلال الصمود والتحدي لإيجاد سبل تهدف إلى الازدهار والتعايش.

---

[١] دافيدسون، باسيل، المرجع السابق، ص ٤٨-٤٩.

الفصل الثاني عشر

معالم حضارات أمريكا القديمة

لا يمكن دراسة تاريخ أمريكا أو الخوض فيه –قبل اكتشافها ووصول الأوروبيين إليها– إلا بدراسة الحضارات الكبرى التي تقدَّمت وتطوَّرت في المكسيك وأمريكا الوسطى على طول الساحل المطلِّ على المحيط الهادي في أمريكا الجنوبية ما بين البيرو والأكوادور.

ظهرت في أمريكا حضارة موحَّدة عرفت صناعة الفخار، ووصلت إلى مستوى عالٍ في مجالي السياسة والدين، وامتدت على مساحة أمريكا الشمالية من الساحل الشمالي الغربي لكندا، عبر السهول، حتى البحيرات الكبرى، ثم على طول المنطقة الواقعة إلى الشرق من المسيسبي، مجتازة البحر الكاريبي، وواصلة إلى الشمال الشرقي من أمريكا الجنوبية.

قبل البدء بدراسة الحضارات الهندية في أمريكا، لابد من الحديث عن اكتشاف هذه القارة التي ظلَّت حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي غير معروفة، لكن حبّ المغامرة، وازدياد التقدم العلمي والمعرفة، والتقدم في مجال الصناعة، دفع الكثير من الناس إلى البحث فيما وراء البحار من أجل معرفة الأماكن المجهولة في العالم.

مثَّلت تجارة التوابل حلقة اتصال بين الشرق والغرب عبر العصور، وقد ازدادت أهمية هذه التجارة بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م، لأن العثمانيين، بعد أن هيمنوا على هذه المدينة، عرقلوا التجارة، وأغلقوا

طرقها البرية التي تمرُّ من وسط آسيا إلى أوروبا، ولهذا فكَّر الأوروبيون في إيجاد طريقة بديلة للوصول إلى مصادر تجارة الهند من دون الحاجة إلى وسيط، وقد سعت البرتغال وإسبانيا، اللتان كانتا في منأى عن الحروب الأوروبية، إلى الكشف عن طرق جديدة، فاستعانتا بالبحَّارة الإيطاليين لما لهم من خبرة كبيرة في هذا المضمار، فانطلق فاسكودى جاما على رأس بعثة كشفية برتغالية، ودار حول رأس الرجاء الصالح، وواصل مسيره إلى قالتيوت في الهند ١٤٩٨، وهكذا نجح البرتغاليون في الوصول إلى الهند، وإلى مصادر التوابل في جنوب شرق آسيا.

أما إسبانيا فقد أعدَّت بعثة كشفية تحت قيادة كريستوفر كولومبس عام ١٤٩٢، للذهاب إلى الهند بهدف البحث عن خلجان ومضائق وأنهار تُوصِلهم إلى جزر الهند الشرقية، وقد نجحت هذه البعثات الإسبانية في اكتشاف هذا العالم المجهول، وأطلقوا عليه اسم العالم الجديد، وتوالت البعثات الكشفية الإسبانية إلى العالم الجديد بهدف الحصول على الذهب والفضة.

كانت أمريكا موطناً لحضارات عدة، قامت فيها وازدهرت، وحقَّقت الكثير من الإنجازات المهمة قبل وصول الأوروبيين إليها، حتى إن الجنود الإسبان دُهِشوا بمشاهد الفن والنحت والعمارة التي شاهدوها. سوف نستعرض أهم تلك الحضارات فيما يأتي:

١- حضارة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية:

اشتُهِرت أمريكا الشمالية بخصوبة أرضها، وكثافة غاباتها، وغناها بالأنهار والبحيرات، مما جعلها بيئة مناسبة، لذا هاجر إليها الصيَّادون من آسيا عبر مضيق بيرينغ (Bering strait) -المضيق الفاصل بين سيبيريا في روسيا، وألاسكا في أقصى شمال غربي أمريكا- وذلك في

عصر البلايستوسين Pleistocene، عندما انخفضت الحرارة كثيراً، وتحوَّلت مياه مضيق بيرينغ الضحلة إلى جليد مكوِّنة جسراً برياً عبرته الحيوانات البرية ومطاردوها.

بنى القادمون من آسيا بيوتاً من طابقين، من الطين المجفَّف، وقطَّعوا أخشاب الغابات، واستخدموها في بناء البيوت وصنع القوارب، ومارسوا الصيد في البر والبحر.

ثم بدأت حضارتهم تتطوَّر وتزدهر بعد ممارستهم الزراعة، ولاسيما زراعة الذرة الصفراء، التي كانت مادة الغذاء الرئيسة، لذا زُرِعت على نطاق واسع، وتعود أقدم آثار لذرة زرعها الإنسان إلى نحو ثمانية آلاف عام، عُثِر عليها في إحدى المُغُر في جنوب غرب الولايات المتحدة.

عاش الهنود الحمر في بدايات التاريخ الميلادي في مدن بُنِيت بيوتها من الخشب، وقد عُثِر على بقايا لبعض هذه البيوت، وأساسات لمعابد وقصور في وادي نهر المسيسيبي الأعلى، وقد بُنِيت هذه البيوت في أعالي التلال حتى تسهل حمايتها من الأعداء، وأطلقوا على سكَّانها اسم بنَّائي التلال، عرف هؤلاء السكان عدداً من الصناعات، منها صناعة الغلايين المستخدمة للتدخين من الحجر، وأنتجوا الفخار، وأتقنوا فن صناعة السلال، ووسَّعوا بيوتهم التي كانت تتألَّف من غرفة واحدة، وأصبحت هذه البيوت مستوطنات، وزرعوا قربها الذرة الصفراء والتبغ.

وقد عرفت قبائلهم النظام الطبقي، حيث قُسِّمت إلى ثلاث طبقات:

١- الأحرار.

٢- العبيد.

٣- أسرى القبائل الأخرى.

كان الأحرار الأرستقراطيون يُعدُّون أنصاف آلهة، وعُدَّ المزارعون

والصيَّادون منهم "شموساً".

أهم قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية: ١- الهنود الناتشيز ٢- الهنود الكريك ٣- بوبيلو ٤- كومانشي ٥- أباتشي ٦- بيمان ٧- يومان.

حكم كلَّ مدينة من مدنهم زعيمان قبليان، هما رجل وامرأة يتبعان لزعيم أعلى، وقد ضمَّت مدنهم آلاف السكان.

حافظ هنود أمريكا الشمالية بعد استقرارهم على تنظيماتهم القبلية، ومارسوا الزراعة وتربية الحيوان، وعرفوا صناعة الفخار والفنون والحرف المختلفة، وبنوا القرى والمدن المحصَّنة.

٢- حضارات الهنود الحمر في أمريكا الوسطى:

عرفت أمريكا الوسطى حضارات عدة، نذكر منها:

أ- حضارة الأولميك:

تُعدُّ حضارة الأولميك من أقدم الحضارات التي قامت في غوتيمالا والمكسيك، حيث ظهرت مدينة قديمة في موقع مرتفع مكسو بالغابات، يُسمَّى اليوم سان لونزو، يُشرِف على وادي كولزا كولكوس، ويُعدُّ أقدم موقع مكتشَف، حتى الآن، لأقدم مدينة معروفة في القارة الأمريكية، وقد أطلق مكتشِفوها عليها اسم أولميك Olmec، عاشت مجموعات الأولميك في المنطقة الواقعة غرب المنطقة التي سكن فيها صانعو حضارة المايا.

ازدهرت حضارة الأولميك في المدة ما بين ١٥٠٠-٦٠٠ق.م، وقد برع سكانها في أعمال البناء والنحت، وأُقِيمت فيها مبانٍ لإقامة الشعائر الدينية، وعُثِر فيها على رؤوس بشرية نُحِتت من الحجارة البازلتية.

عرف سكانها عبادة الآلهة، ونحتوا تماثيل لآلهتهم على صورة هولة،

هي هجين بين الكائن البشري والنمر [١].

وضع الأولميك إشارات للكتابة، ونظاماً للعد يُعدُّ الأقدم في تاريخ أمريكا القديم، وقد أثَّرت حضارتهم في حضارة المايا، ولا سيما في تشييد الأهرامات، ونحت التماثيل الحجرية، وكان لحضارتهم تأثير كبير في حضارات المكسيك المتلاحقة، ولا سيما حضارة الأزتيك [٢].

ب- حضارة المايا:

١- نبذة تاريخية:

تُعدُّ حضارة المايا من أشهر الحضارات في أمريكا القديمة، وأكثرها تقدماً، يعود أصل شعوبها إلى الهنود الحمر الذين أسهموا في بناء حضارة أمريكا في العصور الوسطى، وقد وصلت حضارتهم إلى أقصى مراحل تطورها في منتصف القرن الثالث الميلادي، واستمر ازدهارها لأكثر من ستة قرون ما بين ٣٠٠-٩٠٠م، انتشرت حضارتهم في المنطقة التي تمتد حالياً شرقي المكسيك وجنوبها، وغواتيمالا، والسلفادور، وغربي هندوراس.

مثَّلت مقاطعة إلبتين (غواتيمالا الحالية) قلب حضارة المايا، وقد استقر المزارعون الأوائل في هذه المنطقة منذ ٢٥٠٠ ق.م بحثاً عن الأراضي الزراعية، وبحلول القرن التاسع قبل الميلاد كانت الأراضي المنخفضة للمايا مأهولة بالسكان، وفي القرن الثالث الميلادي أُسِّست أكبر مدنهم، وحقَّقوا إنجازات متميِّزة في مجالات الأدب والعلوم، وتشييد

---

(١) توينبي، أرنولد، تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، الجزء الأول، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) مجموعة من الباحثين، الموسوعة العربية العالمية، المجلد الأول، الطبعة الثانية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩، ص١٩٢.

النصب التذكارية تخليداً للأحداث المهمة في حياة قادتهم.

كما مثَّلت مدينة تيويتوا مركز إمبراطورتهم، وكانت المدة ما بين القرنين الثالث والعاشر الميلادي أوج حضارتهم.

٢-الحياة السياسية والإدارية:

حكمت كل مدينة المنطقة المحيطة بها، وربما كانت المدن الكبيرة تحكم عدداً من المدن الصغيرة، وكان الحكَّام من رؤساء القبائل، وكثيراً ما كان الحاكم يجمع بين السلطتين السياسية والدينية [١].

حمل ملوك المايا لقب كول أهو K'ul ahau، الذي يعني: الحاكم الأعظم والمقدَّس، وكان يساعد الملكَ في الحكم مجلس وراثي.

كما كان هناك مجلس للزعماء أو الشيوخ يحكم مجموعة من المستوطنات المتجاورة، ويتمتَّع بوظائف دينية وسياسية.

في المرحلة التي تلت الحقبة الكلاسيكية تطوَّر نظام الحكم، فحكمت ممالك المايا هيئة دينية عليا تمتَّعت بسلطات واسعة جداً، كانت مهمتها رسم السياستين الداخلية والخارجية، وتعيين الولاة الذين يديرون القرى والمدن المحيطة، وكانت هناك مجالس محلية مؤلَّفة من زعماء القبائل تساعد الولاة.

٣-الحياة الاقتصادية:

اهتمَّ شعب المايا بالزراعة، وزرعوا الحقول على نحوٍ جماعي مستخدمين عصوات خشبية مدبَّبة الرأس لحفر حفر لوضع البذور فيها، شملت محاصيلهم الزراعية الذرة الصفراء والفاصولياء واليقطين والأفوكادو والفلفل الحارّ والكاكاو، كما زرعوا البطاطا والبندورة وأشجار

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق، ص ١٩٠.

الكوكا، ومارس سكان المايا الصيد البري، مثل صيد الأرانب والغزلان والديوك الرومية التي كانت تُربَّى كحيوانات أهلية مع البط والكلاب واللاما، كما كان صيد الأسماك جزءاً من نشاطهم.

مارس شعب المايا التجارة، ولم يعرفوا في بداية حياتهم حيوانات الجرّ ولا العربات ذات الدواليب، بل كانوا يحملون البضائع للتجارة على ظهورهم عبر المسالك الضيقة بعد ربطها بحبل يُعلَّق فوق الصدر أو على الجبهة، أو كانوا ينقلونها بقوارب صغيرة مصنوعة من جذوع الأشجار المجوَّفة، لكنهم ما لبثوا أن كوَّنوا شبكة تجارية ربطت بين عدد من المجموعات في أمريكا الوسطى، صدَّر شعب المايا في الأراضي المنخفضة بعض المواد، من بينها مصنوعات يدوية، ومنتجات خشبية وبحرية، وفراء النمور، واستوردوا الزجاج البركاني، وريش الطيور الاستوائية، والأواني الفخارية، وجلود الحيوانات.

٤-الحياة الاجتماعية:

مثَّلت الأسرة أساس الحياة الاجتماعية في حضارة المايا، وأسهم كل فرد من أفرادها في العمل، فالرجال يقومون بالعمل الزراعي، مثل إعداد الحقول، وتنقيتها من الأعشاب، وزراعة المحاصيل، وأعمال القنص والصيد، بينما تقوم النساء بإعداد الطعام، وتربية الأطفال، وصناعة الملابس، وتزويد البيت بأخشاب الموقد والماء.

كانت الاحتفالات الدينية إحدى أهم المناسبات الاجتماعية عندهم، حيث أُقيمت المهرجانات في أيام محدَّدة خلال السنة، وكانت لديهم لعبة مقدَّسة تُشبه لعبة كرة السلة، تُلعَب في ملاعب صُمِّمت لها خاصة، حيث كان اللاعبون يحاولون ضرب كرة من المطَّاط من خلال دولاب

حجري بوساطة المرفق أو الخصر [١].

تطوَّرت الطبقات الاجتماعية، ومثَّلت عائلات النبلاء الطبقة الحاكمة وراثياً، حيث كان لكل مدينة ملك يحكمها وراثياً حسب تسلسل الذكور عمرياً، وكان يجمع في يده السلطات الدينية والعسكرية والمدنية كلها، ويختار من بين أفراد الطبقة الأرستقراطية رؤساء القرى الثابتة للمدينة، وكان النبلاء يحافظون على تواريخهم العائلية وأنسابهم، أما الكهنة فينحدرون وراثياً من عائلة واحدة، وأما أفراد عامة الشعب فيعملون بالزراعة وأعمال البناء، ويؤدُّون الخدمة العسكرية، ويدفعون الضرائب، ويقدِّمون الهدايا لأسيادهم، والقرابين للآلهة[٢].

وكانت هناك طبقة الأرقاء، وأسرى الحرب، والسارقين المحكومين الذين مارسوا الأعمال الزراعية.

٥-الحياة الدينية:

عبد شعب المايا عدداً من الآلهة، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من شعوب ذلك العصر، وكان للدين دور كبير في حياتهم اليومية، وكانت الاحتفالات الدينية تُقام لأجل آلهتهم في أيام محدَّدة خلال السنة، منها الاحتفال بالسنة الجديدة في شهر تموز، أو في حالات الأزمات، مثل المجاعات وانتشار الأوبئة والقحط والجفاف، حيث كانوا يجتمعون في ساحات مخصَّصة للطقوس والاحتفالات، ويمجِّدون الآلهة من خلال قرع الطبول والزمور، ورقصات الرجال والنساء، وكانت تُقدَّم أثناء هذه الاحتفالات الأضاحي للآلهة، حيث تُوضع فوق الأهرامات الحجرية

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٢) أندريه، إيمار، جانين، أوبوايه، تاريخ الحضارات العام: القرنان السادس عشر والسابع عشر، المجلد الرابع، بيروت، ١٩٩٦، ص٤٥٦.

الضخمة المشيَّدة في ساحات المدن، والتي لها أدراج تؤدّي إلى المعبد والمذبح الموجود في قمة الهرم.

وقد عُثِر على مخطوط يذكر أكثر من ١٦٠ من هذه الآلهة، منها هوناب كو خالق العالم، الذي عُدَّ سيد السماوات والأرض والنهار والليل، الذي يجلب المطر، ويرعى الكتابة والطب، ويليه ابنه "اتزاما" الإله الشمسي، الذي ابتكر الكتابة والكتب والرزنامة وعلم التاريخ، والإله شاك الإله الواحد في أربعة أقاليم تقابل الجهات الأربع، وهو إله المطر والرعد والبرق والإخصاب والزراعة، والإله أهمون إله الذرة، وهناك آلهة أخرى مثل إله الموت، والحرب، والانتحار، والحقول، والأشجار، وغيرها، وكانت النساء تعبد إله قوس قزح (إكس شيل) Ix Chel المختص بالشفاء وولادة الأطفال والحياكة.

٦-الحياة العلمية والثقافية:

حقَّق شعب المايا إنجازات مهمة في مجال الرياضيات والفلك، وكان أحد أهم إنجازاتهم وضع تقويمين متداخلين، الأول شمسي يتألَّف من ٣٦٥ يوماً، والثاني ديني يتألَّف من ٢٦٠ يوماً، يُستخدَم لمعرفة أيام السعد وأيام النحس.

كما ابتكر شعب المايا العد استناداً للمرتبة واستخدام الصفر، وهذا يعني قدرة كبرى على التجريد الفكري، وكانت أرقامهم أكثر من الأرقام الرومانية، واستخدموا الرموز، وعرفوا عمليات الجمع والطرح [١].

أما فيما يتعلَّق بالكتابة، فقد طوَّر شعب المايا شكلاً متقدِّماً من الكتابة مكوَّناً من رموز عدة، وهذه الرموز تركيبة من الأصوات والأفكار مثَّلت نوعاً من الكتابة الهيروغليفية.

---

(١) أندريه، إيمار، جانين، أوبوايه، المرجع السابق، ص ٤٥٤.

سجَّل شعب المايا كتاباتهم على النصب التذكارية الحجرية، وعلى المذابح، وعلى عتبات الأبواب، وعوارض السقوف، ورسموها على أوانٍ فخارية، وفي كتب مصنوعة من لحاء الشجر.

وقد استخدموا النصب لتدوين التواريخ المهمة والأحداث الكبرى في حياة حكَّامهم، وقد مثَّلت الكتابة لديهم خليطاً من صور رمزية تمثِّل كلمات وصوراً تمثِّل أصواتاً تُضمُّ إلى بعضها بعضاً لتكوِّن كلمات كاملة.

٧-العمارة والفنون:

أنتج شعب المايا فناً معمارياً مميزاً وفريداً، والأمر نفسه بالنسبة إلى التصوير التشكيلي والخزف والنحت، حيث بنى معماريون ذوو خبرة عالية أهرامات بالأحجار الكبيرة، وفوقها معابد صغيرة، وشيَّدوا نوعاً من الأقواس بواسطة بناء حائطين متواجهين عند القمة، وربط الهوة بينهما بواسطة صف من الأحجار المسطَّحة، كما بنوا بنايات كبيرة ومنخفضة ذات زخرفة مسطَّحة تُسمَّى مُشوط السقف، التي امتدت من النقطة العليا للسطح، وأعطت مُشوط السقف مثل أبراج الكنائس الانطباع بأن البنايات ذات علو شاهق.

زيَّن الفنَّانون الجدران برسوم ملوَّنة بألوان زاهية تصوِّر شخصيات تشارك في معارك واحتفالات، ورسموا الشخصيات بالتصوير الكفافي[١] (أي رسم الخطوط العامة لأجزاء الجسم)، ثم لوَّنوها بألوان مختلفة، ونادراً ما ظلَّلوا الألوان أو صبغوها بصور متدرِّجة، وهناك نوع مماثل من التصوير التشكيلي يظهر في خزف المايا، وصنع شعب المايا منحوتات صغيرة من الطين، ونحتوا منحوتات كبيرة من الحجر، وكانت

(١) الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق، ص ١٩١.

أغلب المنحوتات الكبيرة التي بلغ علو بعضها تسعة أمتار، من شخصيات الآلهة والأفراد المهمين.

ج- حضارة الأزتيك:

١-نبذة تاريخية:

تعود تسمية الأزتيك Aztic بهذا الاسم إلى جدهم أزتلان، الذي أسَّس مدينة تينوختيتلان في وادي المكسيك تبعاً لأساطير الأزتيك.

كان مركز حضارة الأزتيك في وادي المكسيك، وهو حوض واسع بيضوي الشكل، يقع على ارتفاع ٢٣٠٠م، مما جعل مناخها لطيفاً، وقد اشتملت إمبراطورية الأزتيك على عدد كبير من المدن والحواضر، كانت أكبرها العاصمة تينوختيتلان (تقع في مدينة مكسيكو الحالية)، وكان سكانها يسمُّون أنفسهم بأسماء مختلفة منها: كولهوا- مكسيكا-تينوخكا، بلغ عدد سكان هذه الإمبراطورية ما يقارب خمسة ملايين نسمة، واستمرت ما يقارب قرناً من الزمن (١٤٢٨-١٥٢١م).

تمكَّن الأزتيك من مد سيطرتهم إلى المناطق المجاورة، ففي عام ١٤٢٨م أسَّسوا إمبراطورتيهم التي امتدت من وسط المكسيك إلى حدود غواتيمالا بعد أن ضمَّت عدداً كبيراً من التجمعات البشرية[١].

٢- الحياة السياسية والإدارية:

حمل إمبراطور الأزتيك لقب هيوي تلاتوني (المتحدِّث الكبير)، وكان يختار من بين أفراد الأسرة المالكة مجلساً مؤلَّفاً من نبلاء ذوي مقامات رفيعة، وكان الإمبراطور يتمتَّع بسلطة كبيرة، لكن عليه أن يستشير مجلس النبلاء قبل أن يتخذ القرارات المهمة، وتمركزت في المواقع الرئيسة من أرجاء الإمبراطورية المختلفة وحدات عسكرية للمحافظة على

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق، ص٥٨٠.

الأمن، يقود معظمها أحد كبار النبلاء الذي يضطلع في الوقت نفسه بدور حاكم الإقليم. في المجمل كان يدير شؤون الإمبراطورية جهاز محكم من الدوائر الحكومية، وكان العدد الأكبر من المراكز العليا ينتقل وراثياً، لكن على الرغم من ذلك كانت خدمة الإمبراطورية السبيل الرئيس للحصول على منصب عالٍ [1].

٣- الحياة الاقتصادية:

كانت الزراعة عماد الاقتصاد عند الأزتيك، وعلى الرغم من خصوبة أرضها إلا أن إنتاجها لم يكن كافياً لتأمين حاجات سكان الإمبراطورية المتزايدة تبعاً لزيادة عددهم، وقد طوَّر الأزتيك أنظمة الري والسقاية، وشكَّلوا منحدرات على جوانب التلال، واستخدموا مخصبّات لإغناء التربة، واستصلحوا الأراضي المستنقعية حول البحيرات من أجل خلق جزر صناعية عُرِفت بـ (الحدائق الطافية)، وزرعوا فيها الذرة الصفراء والخضروات والبطاطا الحلوة والفاصولياء والطماطم، أما الأراضي المنخفضة فقد وفَّرت المنتجات الاستوائية، مثل القطن والمطَّاط وحبوب الكاكاو التي تُصنَع منها الشوكولا. كانت الآلة الزراعية الأساسية هي عصا مدبَّبة الرأس تُستعمَل للحفر، كذلك لجأ المزارعون في الأراضي المنخفضة المغطَّاة بغابات كثيفة إلى عمليتي القطع والحرق، حيث كانوا يقطعون جزءاً من الغابة، ويحرقونه، ثم يزرعون المحاصيل في الأراضي التي نُظِّفت، لأن الرماد يزيد خصوبة التربة.

اهتمَّ الأزيتك بتربية الحيوانات، مثل الديوك الرومية والبط والإوز والكلاب التي كانت تُؤكل من قبل الأغنياء.

أما بالنسبة إلى التجارة، فقد أدَّت دوراً مهماً، وكانت ساحة السوق

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق، ص ٥٨١.

مركزاً رئيساً في حياتهم، وكان التجَّار ينتقلون من مدينة إلى أخرى بموكب طويل من الحمّالين، الذين يحمل كلٌّ منهم نحو ٣٠ كغ على ظهره، وكانت التجارة تتمُّ عن طريقة المقايضة، لأن الأزتيك لم يعرفوا النقود المعدنية، وعُرِف التجَّار باسم بوشتيكا، وكانت المقايضة بمنتجاتهم من الكاكاو، والألبسة القطنية، والمطَّاط، وجلود نمور اليغور، وريش الطيور الجارحة، ويأخذون مقابلها سلعاً من الأراضي المرتفعة، منها الزجاج البركاني، الذي كان يُستخدَم في صناعة السكاكين، ومجموعة متنوعة من المنتجات المصنوعة[١].

٤- الحياة العسكرية:

عدَّ الأزتيك الحرب واجباً دينياً، فلم يقاتلوا من أجل توسيع إمبراطورتهم فحسب، وإنما للحصول على الأسرى لتقديمهم قرابين لآلهتهم [٢]، وكانت مكافأة الرجال الذين يحصلون على عدد كبير من الأسرى في المعركة، حصولهم على أرض زراعية، ومنزلة اجتماعية رفيعة، ومناصب حكومية مهمة، لذا كانت أساليبهم وطرق قتالهم تهدف إلى الأسر أكثر من القتل، وكان سلاحهم الرئيس هراوة خشبية ذات حواف حادة من حجر الزجاج البركاني.

كذلك استخدموا الأقواس والسهام والحراب، وكانت هناك أداة ترمي الحراب عُرِفت باسم أتلاتل، وكان المحاربون يحمون أنفسهم بالتروس، وكبس دروع محشوَّة بالقطن.

---

(١) أندرية، إيمار، جانين، أوبوايه، المرجع السابق، ص٤٦٠.

(٢) نوار، عبد العزيز سليمان، جمال الدين، محمود محمد، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية: من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٠.

٥- الحياة الدينية:

كان للدين أهمية كبيرة في حياة الأزتيك، إذ سخَّر الناس معظم أوقاتهم للعبادة، وعبدوا مئات الآلهة، وكانوا يزعمون بأن لكل واحدة منها سيطرة على جانب أو أكثر من الجوانب البشرية، وقد مثَّلت هذه الآلهة قوى الطبيعة، وكان أعظم آلهتهم إله الشمس يتزيلوبوشتلي Huitizilopochtli، الذي كان يُعدُّ إلهاً للحرب أيضاً، ولما كان اقتصاد الأزتيك يعتمد على الزراعة، اتخذ الشعب عدداً كبيراً من الآلهة الزراعية، منها آلهة الذرة سنتيوتل Snteotl، وإله المطر تلالوك Tlaloc، وإله الربيع وإحياء الأرض زايب توتك Zaibtotk ، وإله التعليم والريح كويتز الكوتل Quetzalcoatl.

كانت للأزتيك طقوس دينية كثيرة، أكثرها أهمية في أيام الزراعة والحصاد، وفي مناسبات أخرى خلال السنة الزراعية، وكان معظم هذه الطقوس الدينية يهدف إلى ضمان محاصيل وفيرة حسب ما كانوا يعتقدونه من عطف آلهتهم.

أدَّت القرابين البشرية دوراً مهماً أساسياً في معظم الطقوس الدينية، وكان الكهنة يشقُّون صدر الأُضحية الحية، وينتزعون منها القلب، لاعتقادهم أن آلهتهم تحتاج إلى قلوب ودماء بشرية كي تبقى قوية، وأن الآلهة الشريرة تمنع من تدمير العالم، لذلك قدَّموا الأضاحي البشرية من أسرى الحروب، تذكر إحدى الأساطير أن كهنة الأزتيك ضحُّوا بأكثر من ثمانين ألف إنسان من أسرى الحروب عند تدشين إعادة بناء معبد إله الشمس في تينوختيتلان.

وكان هناك مدرِّس لتعليم الطقوس الدينية، ولإعداد الكهنة الذين كانت إحدى أهم مهامهم تحديد أيام السعد للقيام بالأعمال المختلفة، مثل شنّ

الحروب أو التعميد.

٦- الحياة الاجتماعية:

كانت الأسرة أساس الحياة الاجتماعية عند الأزتيك، حيث تألَّفت من الزوج والزوجة والأولاد غير المتزوِّجين، ومن عدد من أقارب الزوج، مما جعل عدد أفرادها كبيراً، وكان يقع على عاتق الرجل إعالة الأسرة، والعمل بالزراعة أو إحدى الحرف، أما واجبات الزوجة فقد شملت حياكة ثياب أفراد الأسرة، وطهي الطعام لهم، وكان الأولاد يتعلَّمون على أيدي آبائهم منذ سن العاشرة، ومن ثمَّ يلتحقون بمدرسة يديرها أفراد الكالبولي[١]، أو بمدرسة ترتبط بالمعبد إذا كانوا من أولاد النبلاء.

اعتمد الأزتيك في طعامهم على اللحوم التي يوفِّرونها من الصيد، حيث كانوا يصطادون حيوانات مختلفة، مثل الغزلان والأرانب والبط والإوز، أما الحيوانات التي كانوا يربُّونها بقصد الحصول على لحمها، فهي الكلاب والديوك الرومية.

أما فيما يتعلَّق بالملابس، فقد كانت نساؤهم ترتدي قمصاناً خارجية فضفاضة من دون أكمام، وتتانير فضفاضة وطويلة، في حين يرتدي الرجل قطعة قماش يربطها حول خصره وعباءة معقودة فوق أحد الكتفين.

ضمَّ مجتمع الأزتيك أربع طبقات رئيسة هي:

١- طبقة النبلاء، ٢- طبقة العامة التي مثَّلت غالبية السكان، وقد عمل عدد كبير منهم في زراعة أراضي الكالبولي، ٣- طبقة الأتباع، ٤- طبقة العبيد.

---

(١) مجموعات أو تنظيمات سكانية تألفت منها حضارة الأزيتك.

على الرغم من هذا التقسيم، فقد ارتبطت عائلات من طبقة النبلاء بعائلات من طبقة العامة بصلات قربى وثيقة، وانتمت هذه العائلات كلها إلى مجموعات الكالبولي.

سُمِح لكل عائلة أن تزرع قطعة كبيرة من الأراضي تكفي لسد حاجاتها، وامتلك معظم النبلاء أراضي خاصة بهم إضافة إلى أرض الكالبولي، وأراضٍ كانوا قد حصلوا عليها من الدولة لاستخدامها خلال تسلمهم المناصب الحكومية، وقد عمل الأتباع في الأراضي التي يمتلكها النبلاء، وكان العبيد يُعدُّون ملكية خاصة، لكن أولادهم يُولَدون أحراراً، وكان عدد كبير منهم أسرى حرب، والعدد الآخر تم شراؤه من جماعات أخرى، وهناك عبيد استُرقُّوا لأنهم محرومون، أو عجزوا عن دفع ديونهم [1].

٧- الفنون والعلوم واللغة:

برع سكان الأزتيك في فن النحت، وكانت المنحوتات الأزتيكية تُزيّن المعابد وأغلب المباني، ولايزال أشهر أثر أزتيكي منحوت موجوداً حتى الآن، وهو حجر التقويم الدائري الضخم الذي يمثِّل مفهوم الكون عندهم، وفي وسطه وجه إله الشمس.

أنتج الأزتيك فنوناً متنوعة من الأدب المروي، مثل الشعر، وروايات متوارثة عن تاريخهم، وكان للموسيقا دور رئيس في طقوسهم الدينية، من الآلات الموسيقية الرئيسة عندهم الطبل والمزمار والخشخاشة.

أما فيما يخصُّ العمارة، فقد كانت البيوت مصمَّمة من حيث بناؤها على نحو متين، إذ ركَّزوا على المتانة أكثر من التركيز على المظاهر الجمالية فيها، وقد بُنِيت فوق المصاطب العالية من الطوب واللِّبن، أما

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق ص ٥٨١.

فـي الأراضـي المنخفضـة فقـد بنـوا سـقوفها مـن القـش، وجـدرانها مـن الأغصان، أو القصب المكسوّ بالطين، وكان يتوسَّط المبنى فناء واسع يضمُّ مستودعاً ومنزلاً صغيراً للحمامات التجارية.

عُرِفت لغة الأزتيك باسم ناهواتل، وهي تنتمي إلى مجموعة اللغات الهندية المعروفة بعائلة أزتيك – تانون أويوتو أزتكان– اللغوية، أما الكتابة فقد استخدموا شكلاً من الكتابة التصويرية تتألَّف من صور صغيرة، منها ما يرمز إلى معاني الأشياء المصوَّرة، ومنها ما يعطي أصواتاً لمقاطع لفظية.

ثالثاً: حضارة الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية (حضارة الإنكا):

سكنت أمريكا الجنوبية عناصر بشرية منذ ما يزيد عن خمسين ألف سنة، لكن أولى الحضارات التي قامت فيها تعود إلى نحو ١٠٠٠ ق.م، في أحد وديان جبال الأنديز، حيث أُسِّست المدينة المسوَّرة شافين Chavin.

ومع مرور الزمن أقام السكان مملكة، وحملوا فنهم ودينهم إلى الشعوب الأخرى التي كانت تقطن في السهول الساحلية في البيرو حالياً.

تأثَّرت، فيما بعد، القبائل القاطنة على ساحل البيرو الجنوبي بمملكة جبلية أخرى، كان مركزها تياهو أناكو Tiahuanaco، التي بقيت منذ القرن الأول قبل الميلاد حتى ٤٠٠م مركز المملكة القوية التي لم يُعثَر على أية مخلَّفات مكتوبة عنها.

من أشهر الحضارات في أمريكا الجنوبية حضارة نازكا Nazca، التي ازدهرت بين عامي ٢٠٠ق.م – ٦٠٠م، وتموقعت في وادي نهر نازكا على ساحل البيرو الجنوبي، وانتشرت على منطقة مساحتها ٤٠٠ ،٣٠ كم^{٢} على طول ساحل المحيط الهادي.

كما نشأت على ساحل البيرو الشمالي حضارة مملكة شيمو chimu، التي ازدهرت بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر ميلادي، وكانت عاصمتها تشان تشان Chan Chan، التي شغلت مساحة ٢٠ كم٢، وأحاط بها سور ارتفاعه تسعة أمتار.

حضارة الإنكا:

١- نبذة تاريخية:

تُعدُّ حضارة الإنكا من أهم حضارات الهنود الحمر وأعظمها في أمريكا الجنوبية، حيث ظهرت إمبراطورية الإنكا Inca، وامتدت على مناطق واسعة من جبال الأنديز.

تعني كلمة "الإنكا" حسب الأساطير: الطبقة الاجتماعية أو الابن الأوحد(١) ، وقد عُرِف شعب الإنكا بوصفه مجموعة صغيرة من محبي الحرب، عاشت قرب بحيرة تيتيكاكا Titicaca في جنوب شرقي البيرو قبل القرن الثالث عشر، وقد أسَّس حاكم سابا Sapa(٢) (الإنكا الأول) مانكو كاباك Manco Capac المملكة نحو ١٢٠٠م، وسيطر مع عشر قبائل من الإنكا على مدينة كوزكو(٣) Cuzco (لا تزال القرية موجودة حتى اليوم في شرق البيرو)، واتخذوها عاصمة لهم، وكوَّن مانكو كاباك سلالة ملكية حاكمة، وقد ازدادت قوة مملكته، واتسعت حدودها حتى شملت في عهد الحاكم الرابع وادي كوزكو كله، وفي عام

---

(1) Barbara A. S, Great Empires of the Past: Empire of the Incas, United States of America, 2009, p:9.

(٢) يُعرَف حكَّام الإنكا والقادة بلقب سابا، وقد حكم إمبراطورية الإنكا ثلاثة عشر سابا خلال تاريخها، للمزيد انظر:

Barbara A. S, Op.Cit, p:9.

(3) Ibid, p:8.

١٤٦٠م عُدَّت مملكة الإنكا إمبراطورية مترامية الأطراف، تمتدُّ من السفوح الشرقية لجبال الأنديز إلى المحيط الهادي، شاملة مناطق من الإكوادور الحالية، وبوليفيا، وشمال تشيلي، وشمالي غربي الأرجنتين، إضافة إلى مركزها الأساسي في البيرو[١]، وكانت تضمُّ أكثر من عشرة ملايين[٢] إنسان، وتسود فيها لغة واحدة، وعاصمتها كوزكو التي عُدَّت مركز العالم، وبُنِي فيها معبد الإنكا الشهير لإله الشمس، وكانت مُحاطة بسور كبير.

٢- الحياة السياسية والإدارية:

كان الملك رأس السلطة الإدارية، يجمع بيده السلطات جميعها، وكان ملوك الإنكا (سابا) يعدُّون أنفسهم منحدرين من نسل إله الشمس، لذلك جعلوا الحكم بسلطة إلهية [٣]، والسلطات كلها بيد الملك، ولأولاده وأقربائه حقوق خاصة بهم، ويقارب عدد هؤلاء ألف شخص من الطبقة النبيلة، يُعرَفون بكاباك الإنكا، وقد شغلوا الوظائف المهمة في الإمبراطورية، ولاسيما الدينية والعسكرية، وكان الملك يحمل صولجاناً ذهبياً ذا ثلاثة صقور، ويرتدي قناعاً ذهبياً على صورة قرص الشمس.

قُسِّمت إمبراطورية الإنكا، لتسهيل الإدارة، إلى مناطق عُرِفت بأركان العالم الأربعة، أي أربع حكومات يحكمها أربعة أشخاص يُعرَفون بلقب "أبوس"[٤] Apos، ويتبعون للملك مباشرة، وعادة ما يتم اختيار الأبوس من عائلة الإمبراطور، ويؤلِّف رؤساء الحكومات الأربع مجلس الدولة،

---

(1) Barbara A. S, Op.Cit, p:7.

(٢) مايكل أ. مالباس، عصر الإنكا، ترجمة فالح حسن فزع، هيئة أبو ظبي للثقافة والساحة، أبو ظبي، ٢٠١٢، ص ٣٩.

(3) Barbara A. S, Ibid, p72.

(٤) مايكل أ . مالباس، المرجع نفسه، ص ٧٩.

ويتولَّى السلطة في كلِّ ولاية حاكم يميل إلى جعل منصبه وراثياً، ويجمع في شخصيته الصلاحيات القضائية والإدارية.

قُسِّمت كل حكومة إلى ولايات تضمُّ مقاطعات، وكل مقاطعة تضمُّ عدة أيلوات، وقد بلغ عدد المقاطعات ما يقارب ثمانين مقاطعة، وكل مقاطعة تتكوَّن من عشرين ألف أسرة، وتحت إمرة كل حاكم مقاطعة مسؤولان اثنان يُسمَّيان كوراكا Curaca، يتولَّى كلٌّ منهما قسماً يضمُّ قرابة عشرة آلاف أسرة [١].

كانت زوجة الحاكم تُدعى كويا، وتُعدُّ مسؤولة عن عبادة إله القمر، وكان لها دور في الحياة السياسية في الإمبراطورية، وكان هناك عدد من الزوجات الثانويات اللواتي بلغ عددهن أكثر من مئة زوجة، وهنَّ من بنات كبار المسؤولين، ولاسيما حكَّام المقاطعات، وكنَّ يُنجبن مئات الأولاد الذين يختار الحاكم من بينهم كبار الموظَّفين والإداريين [٢].

٣- الحياة الاقتصادية:

قام الاقتصاد الإنكي على المقايضة، حيث كان الأفراد يتبادلون السلع فيما بينهم، وشملت تلك المواد المتبادلة الفائض من المواد الغذائية والمصنَّعة، مثل الأواني وأدوات الزينة الشخصية والمجوهرات.

من أهم الأنشطة الاقتصادية عند الإنكا:

أ-الزراعة:[٣] اعتمد اقتصاد الإنكا في الدرجة الأولى على الزراعة، حيث كانت كل أيلو تمثِّل وحدة زراعية مستقلة، يعمل أفرادها على نحو جماعي في الأرض التي تعود ملكيتها إلى الإمبراطور، لذلك يحقُّ للفرد

---

(١) مايكل أ. مالباس، المرجع السابق، ص ٧٩.

(2)Barbara A. S, Op.Cit, p72.

(٣) مايكل أ. مالباس، المرجع نفسه، ص ٨٨.

استعمال الأرض، وليس بيعها، وكانت تُنتج المحاصيل المختلفة، وكان إنجاز الأعمال الزراعية يدوياً، لأن شعب الإنكا يفتقر للأدوات التي تستخدم الدولاب وحيوانات الجر، فاقتصرت أدواتهم البسيطة على مجرفة خشبية ثقيلة، ومحراث قدم، وكسَّارات أحجار تُشبه الهراوة.

زرع شعب الإنكا الحبوب بمختلف أنواعها، والبطاطا، والقرع، والفاصولياء، والفول السوداني، والذرة الصفراء التي صنعوا منها شراباً مسكراً عند المراسم المهمة.

كذلك دجّنوا عدداً من الحيوانات، ولا سيما اللاما والألباكا، فالأول استُخدِم حيوان حمل، والثاني استُخدِم صوفه الناعم للباس، كذلك ربُّوا الخنازير الهندية والبط والكلاب والأرانب.

ومن أجل زيادة مساحة الأراضي المزروعة بنى شعب الإنكا المصاطب الحجرية في الوديان الضيقة، والمدرَّجات في المنحدرات، وحفروا الأقنية لجلب المياه إلى المدرجات والأراضي الأخرى الصالحة للزراعة، واستخدموا المخصِّبات الطبيعية، مثل مخلَّفات الطيور وبقايا اللاما المذبوحة.

وكان الرجال والنساء يمارسون الزراعة معاً، ويعملون في موسم الحصاد.

ب-الحرف والحرفيون:

برع الإنكيون وأبدعوا في عدد من الصناعات، وكان منهم صنَّاع متخصِّصون متفرِّغون كلياً للعمل في حرفهم، من المهن الحرفيَّة التي برعوا فيها:

- **الفخاريات:** لها أشكال متنوعة، لكن أكثرها شيوعاً الصحن، والإبريق الكبير ذو القاعدة المسنَّنة والعنق الطويل، وكانت التصاميم

الإنكية تكرارية بدرجة عالية، تشيع فيها الأشكال الهندسية، ولا سيما أباريق حفظ السوائل [1]، وقد أقام الإنكيون مجمَّعات حرفيين مهمتهم تأدية هذا العمل.

- **المنسوجات (الأقمشة النسيجية):**

مثَّل إنتاج الملابس الحرفة الثانية في الإمبراطورية من حيث الأهمية، وكانت الملابس تُصنَع من ثلاثة أصناف من النسيج، فالنسيج الخشن لصناعة الأغطية فقط، والنسيج المتوسِّط الملمس لصناعة الملابس، والنسيج الناعم لصناعة أفخر أنواع الملابس المعروفة بملابس الكومبي، حيث كانت تُنسَج بعناية، ومن نوعية رقيقة.

استخدم شعب الإنكا القطن في صناعة الملابس، وبألوان عدة، منها الأبيض والبني، وكان يُغزَل في خيوط قبل نسجه بوساطة مغزل بسيط وفلكة الغزل.

كانت المرأة تبدأ عملها بكرة من مادة مربوطة بعصا، وتفتل بعضاً منه خيوطاً، وتُسديه على المغزل، أما فلكة[2] المغزل المربوطة في طرفه، فتسهم في إبقاء المغزل يدور بوتيرة معينة كي تجعل الخيط متساوي السماكة، كما أن المغزل والفلكة يعطيان ثقلاً للإبقاء على الخيط مشدوداً [3].

كانت للأقمشة في مجتمع الإنكا استعمالات رئيسة هي:

١- استعمالها ملبساً، ٢- وشكلاً من أشكال الهوية التي يميَّز بها أهل

---

(1) Morris.C and von Hagen.A, The Inka Impire and Its Andcan Origins, Newyork, Museum of Natural History and Abbeville press, 1993, p:177.

(٢) قطعة مستديرة من الخشب تُركب في أعلى المغزل، وتُثبت الصنارة فوقها.

(٣)مايكل أ. مالباس، المرجع السابق، ص ٩٣.

الفرد، ٣- ومؤشراً على مقام لابسها الاجتماعي، ٤- واستُخدِمت في المناسبات الشعائرية بوصفها قرابين، ٥- وقُدِّمت بوصفها هدايا رسمية.

- **المعادن والتعدين:** استثمر شعب الإنكا مناجم الذهب والفضة الغنية التي كانت موجودة بكثرة نتيجة البراكين، واستخدموا هذه المعادن لأغراض شتى، وكان استعمال هذين المعدنين مقصوراً على وجهاء الإنكيين، أما الطبقة الدنيا فكانت تستعمل النحاس فقط، وقد استخدموه في أدوات الزينة الشخصية، مثل الدبابيس الكبيرة، كذلك استُخدِم البرونز في صناعة الأدوات المنزلية، مثل السكاكين والأواني، وقد أسهم غنى الإنكا بهذه المعادن في جلب الغزو الإسباني في القرن السادس عشر إلى أمريكا، واستخدامه في تقنياتهم.

جـ- **التجارة:** عرف مجتمع الإنكا التجارة، وقد أنشؤوا لأجل ذلك طرقاً عامة كانت واحدة من كبرى الشبكات التي عرفها العالم القديم، وكان متاحاً للناس داخل المقاطعات أن يقيموا أسواقاً يتبادلون فيها السلع المنتَجة محلياً [١].

كانت تلك البضائع استهلاكية، لأن الإنكيين احتكروا مواد الترف، كما عرف الإنكيون التبادل التجاري الخارجي، ولاسيما على حدودهم الشمالية (الإكوادور).

٤- الحياة العسكرية [٢]:

أسهمت القوة العسكرية في نجاح شعب الإنكا في بناء إمبراطورتهم، إذ كان جيشهم منضبطاً، مجهَّزاً بأسلحة لم تعرفها الشعوب التي

---

(2) Rowe, Tohn.H, Inca culture at the time of the Spanish conquestm In handbook of south American Indians vol 2, The Andean Civilization, 1946, p:27.

(٢) مايكل أ. مالباس، المرجع السابق، ص ٧٦.

عاصـروها، واسـتخدموا المقـاليع والصـولجانات والهـراوات والحـراب والتروس والدروع، وكثيراً ما كانت الحروب تحدث في الأنديز عراكاً بالأيدي، وكانت أسلحتهم الدفاعية تروساً ودروعاً قطنية، وقد ساعدت الطرق التي ربطت بين أرجاء الإمبراطورية شعب الإنكا في تسهيل حركة جيشهم، وتأمين الغذاء لأفراده في المدن الإنكية الكبرى التي بُنِيت بمحاذاة هذه الطرق.

٥- الحياة الاجتماعية (١):

كانت أساس مجتمع الإنكا وحدات تُدعى الواحدة منها أيلو Ayllu، وتضمُّ عائلة تعيش مع بعضها بعضاً في قرى صغيرة، أو بلدات كبيرة، وتتشارك في الأرض والمحاصيل والحيوانات، وكل فرد يُولد في أيلو ويموت فيها، حتى اختيار الزوجة يمكن أن يُحدَّد من الأيلو، فإذا لم يتزوَّج الرجل في سن العشرين، اختار زعيم الأيلو زوجة له، والهدف الأساسي من الزواج هو التكاثر لزيادة الأيدي العاملة الضرورية للحياة الزراعية.

وكان الرجل يتزوَّج بامرأة واحدة فقط، وعليها أن تساعد زوجها في أعمال الزراعة، وتعمل في نسج الثياب، وفي القطن والصوف.

كان غنى الإنكا يعتمد على البطاطا، ولا سيما في المناطق الجبلية، وقد سادت ثقافة زواج الرجل من أخته عند شعوب الإنكا، وقد عُرِفت هذه التقاليد ومُورِست عند فراعنة مصر أيضاً، والهدف من ذلك المحافظة على نقاء الدم الملكي.

تألَّف مجتمع الإنكا من طبقات عدة:

الطبقة العليا: تضمُّ الملوك، وأفراد الأسرة الحاكمة، وكبار قادة

---

(١) مايكل أ. مالباس، المرجع السابق، ص ٨١ وما بعد.

الجيش، والنبلاء.

الطبقــة الوســطى: تضـمُّ الحـرفيين، والعمـال، وصـانعي المجـوهرات (الذهب والفضة)، والفلاحين الذين يعملون في الأرض.

الطبقة الدنيا: تضمُّ الفقراء، وأسرى الحرب، والذين لا يملكون شيئاً.

عـرف شـعب الإنكـا عـدداً مـن الاحتفـالات العامـة مرتبطـة بتقـويم ومناسبات خاصة، وكانت تتمُّ فيها التضحية بالخشب والطعام والقماش عند النواح على ملك ما أو وفاته، وخلال شهور التقويم المتنوعة.

من أهم الاحتفالات الشهرية عندهم:

١- كاباك رايمي Capac Raymi: يجري في بداية موسم المطر، ويرتبط بانقلاب الشمس الصيفي الذي يؤشِّر إلى أطول يوم في السنة.

٢-إيموري Aymory: يقام في الشهر الذي يوافق شهر مايو في التقويم الحديث احتفالاً بحصاد محصول الذرة، حيث يُحضر الناس الذرة من حقولهم، وهم يرقصون ويترنَّمون بأغانٍ تناشد الذرة بألا تنفذ قبل موسم الحصاد القادم، ثم يضحُّون بعدد كبير من حيوانات اللاما، وتوزَّع اللحوم على الإنكيين صغاراً وكباراً.

٦- الحياة الدينية:

عبد شعب الإنكا آلهة عدة، أهمها فيراكوتشا viracocha الإله الخالق، الذي عثر الإسبان على تماثيل كثيرة له في المعابد، منها تمثال مصنوع من الذهب الخالص عُثِر عليه في مدينة كوزكو، وإنتي Inti إله الشمس، وإلَّابا Illapa إله الطقس والرعد، وماما كيلا Mam Quilla إله القمر.

كذلك آمن شعب الإنكا بحياة ما بعد الموت، وعبدوا أرواح أسلافهم،

وكانت أجساد الموتى وقبورهم تُعامل على أنها هواكا[1]، وكانت أضرحة الحكَّام المتوفّين أكثر المزارات قدسية في الإمبراطورية، وكان جسد الميت يُحنَّط، ويُوضَع في قبر على شكل خلية النحل مع أدوات الطعام.

وكانت معتقداتهم بحياة ما بعد الموت أقرب إلى المعتقدات بالنعيم والجحيم، فإما أن يمضي الإنسان الطيب للعيش مع الشمس، حيث تكون الحياة هي نفسها التي على وجه الأرض، باستثناء أن الطعام والشراب وفير دوماً هناك، وإما أن يذهب الأشرار للعيش تحت الأرض، حيث يعانون من البرد والجوع، فما من غذاء يأكلونه هناك.

عمل في خدمة الآلهة والمعابد عدد من الكهنة والكاهنات، وكانت لديهم تراتبية توازي هرم الدولة الإداري، وصُنِّف الكهنة طبقاً لرتبة الموضع المقدَّس الذي يعملون فيه، فكان أعلى الكهنة مرتبة هم أولئك الذين كانوا يعملون من أجل الشمس، وكان هناك تراتبية للأفراد في كل موضع مقدَّس، فالخدم بعد الكهنة في المسؤولية عن المراسم.

وقد عرف الإنكا المعالجين والسحرة، وهم أشخاص ادَّعوا اتصالهم بالأرواح، والتحدث إليها، وأنها تخبرهم كيف يكتشفون المرض، وكانوا يستعملون أسلوباً في الحديث مع الأرواح يُوهِم بأنَّ النار تتحدَّث إلى الشخص.

وكانت الأضاحي تُقدَّم للآلهة، وغالباً ما تكون من اللاما أو الخنازير البرية، ولا سيما في أوقات الكوارث والحروب وتتويج ملوك جدد، وكانوا

---

(١) ساد اعتقاد عند الإنكا بأن كثيراً من الأماكن والأشياء كانت تحمل في ذاتها قوة خارقة، وتُسمَّى هواكا، ومن غير الواضح ما إذا كانت الأشياء والأماكن هي الأرواح ذاتها، أم هي مواضع تسكنها الأرواح. للمزيد انظر:
مايكل أ. مالباس، المرجع السابق، ص ١٦٠.

يضحُّون بالأطفال والنساء، لكن تقديم الأضاحي البشرية كان يتمُّ على نطاق ضيق يحضره شخص واحد أو اثنان فقط.

٧- اللغة والعلوم:

تحدَّث الإنكيون اللغة الكيشوية Queshua، التي تعود تسميتها إلى مجموعة إثنية تُسمَّى كيشوا عاشت شمال الإنكيين، لكنها ما لبثت أن اندمجت بهم، وقد تحدَّثت بهذه اللغة مجموعات إثنية أخرى عاشت في منطقة الإنديز.

تطوَّرت العلوم [١] عند الإنكيين، ولاسيما في مجال الفلك والرياضيات، حيث طوَّروا مبادئ رياضية وعلمية عدة، ولا سيما تلك المتعلِّقة بمجال الهندسة، لأنهم شيَّدوا أبنية ضخمة لاتزال قائمة حتى اليوم.

وعرف الإنكيون نظام عدٍّ عشري، وأدركوا مفهوم الصفر، واستعملوا الكيبو مثل عدَّاد[٢] لإجراء عمليات جمع أو طرح أو ضرب، لذا كان محاسب الكيبو يستعمل لهذه الأغراض حصى أو حبوباً أو حجيرات مماثلة لما في العداد، وما إن ينتهي المحاسب من إجراء عملية الحساب، حتى يسجِّل الرقم على الكيبو، كذلك استعمل الإنكيون وحدات قياس موحَّدة لتخطيط أعمال البناء الكبيرة ولحساب المساحة وكمية الحبوب، عُرِفت بالتوبو Topo، وفي مجال الفلك قدَّموا مشاهدات فلكية للشمس والقمر وبعض الكواكب، ودرسوا حركتها، ونصبوا أعمدة على التلال حتى يتمكَّنوا من مراقبة الانقلاب الشمسي.

كذلك أوجدوا تقويماً لحساب الزمن قائماً على دورة القمر، وكانت لديهم

---

(١) مايكل أ. مالباس، المرجع السابق، ص ١٧٢ وما بعد.

(٢) إطار فيه صفوف أسلاك أو أخاديد على طولها تنزلق خرزات تستعمل للعد والحساب، وعادة ما تستعمل لتعليم الأطفال العد.

أساليب دقيقة في القياس والوزن، وبرز منهم مهندسون مهرة طوَّروا نظام الري.

٨- العمارة [١]:

استعمل الإنكيون الحجر في عمليات البناء، وكذلك اللِّبن والآجر الطيني، وكانت أشهر المباني الإنكية مشيَّدة من أحجار فاخرة مصقولة بعناية، تلتصق ببعضها بعضاً، وقد استخدم العمال أزاميل برونزية، ونحتوا الحجارة بأشكال مربَّعة أو مستطيلة، ثم استعملوها قرميداً، وكانوا يستعملون سلالم حجرية لرفع الحجارة الكبيرة.

صُمِّمت المباني تصميماً مستطيلاً، يحوي غرفة واحدة لها باب واحد في منتصف جدار عالٍ، وكان المبنى طابقاً واحداً، وأحياناً طابقين أو أكثر، وكانت السقوف شديدة الميلان كي تسمح بانزلاق مياه الأمطار.

أخيراً بدأت إمبراطورية الإنكا تضعف وتتراجع مع وصول الإسبان إلى أمريكا في أواخر القرن الخامس عشر، وقُضِي عليها نهائياً عام ١٥٧٢، عندما أحكم الإسبان سيطرتهم التامة على الإمبراطورية.

---

(١) مايكل أ. مالباس، المرجع السابق، ص ١٠٦ وما بعد.

المصادر والمراجع:

المصادر:

١–ابن خلدون، مطبعة الأفكار الدولية، الأردن.

١– الجوهري، الصحاح في اللغة والعلوم، المصطلحات العلمية والفنية للجامع والجامعات العربية، م٢، بيروت.

٢– الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢.

٣– الزركلي، الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٨ أجزاء، ٢٠٠٢م.

٥–الشهرستاني، أبو الفتح محمد من عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، صيدا– بيروت، ٢٠٠٣.

٦–المسعودي، مروج الذهب في معادن الجوهر، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ٤ أجزاء، ٢٠٠٥م.

المراجع الأجنبية:

1. . Archi,A. Die ersten zhen Kőnige von Ebla, in: ZA 76(1968).
2. Berthiaume G, Les rôles du mágeiros. Étude sur la boucherie, la cuisine et le sacrifice dans la Grèce ancienne, Leiden, 1982.
3. Belayche N, Jaccottet A, Media dossiers du Louvre «Dieux, cultes et rituels dans les collections du Louvre».
4. Bruit L, Llssarrague F, "Le banquet en Grèce I. Banquets des dieux C. Les Theoxenies", ThesCRA II, 2004.
5. Bryce T. R, The Routledge Handbook of the Peoples and Places of Ancient Western Asia, Abingdon: Routledge, 2009.
6. Chaniotis A, War in the Hellenistic World, A Social and Cultural History, Oxford, 2005.
7. Day J.W, "Interactive Offerings: Early Greek Dedicatory Epigrams and Ritual", HSPh 96, 1994.
8. - De Contenson Henri, Denise Schmandt-Besserat How Writing came about [review], Syria. Archéologie, Art et histoire Year 1998.
9. Dillon M, Girls and Women in Classical Greek Religion, London, 2003.
10. Fauvelle, Francois-Xavier, l'Afrique Ancienne de l'Acacus au Zimbabwe- 20000 avant notre ere- xviie siècle, belin, 2018.
11. GEBAUER J, Pompe und Thysia. Attische Tieropferdarstellungen auf schwarz- und rotfigurigen Vasen,Münster, 2002 (EIKON 7).
12. Ekroth G, 'Thighs or tails? The osteological evidence as a source for Greek ritual norms', in P.

Brulé (eds) , La norme en matière religieuse en Grèce ancienne, Actes du XIe colloque du CIERGA (Rennes، septembre 2007), Liège, 2009.

13. Heimple. W, Letters to the King of Mari: A New Translation with Historical Introduction, Notes, and Commentary, USA, 2003.

14. - Ignace Jay Gelb, A Study of Writing, University of Chicago Press, 1963.

15. Kramer S.M: "Le Rite de Mariage Sacré Dumuzi-Inanna", Revue de l'histoire et des religions, Volume (181), Numéro (20), 1972.
16. Lipinski, E. The Aramaeans: their Ancient History, Culture, Religion, Louvan, 2000.
17. Linders T,"Gods, Gifts, Society", in T. LINDERS, G. NORDQUIST (eds), Gifts to the Gods. Proceedings of the Uppsala Symposium 1985, Uppsala, 1987 (Boreas, 15).
18. Lonis R, Guerre et religion en Grèce à l'époque Classique, Recherches sur les rites, les dieux, l'idéologie de la Victoire, Ouvrage publié avec le concours du CNRS, Paris, 1979.
19. Lupu E, Greek Sacred Law. A Collection of New Documents (NGSL), Leiden, 2005 (RGRW, 152).
20. Mckenna, Amy,The History Of Southern Africa, Britannica Educational Publishing And Rosen Educational Services, 2011.
21. Margueron J.C, Mari - Métropole de l'Euphrate. Editions Picard et ERC, Paris. 2004.
22. Montserrat C.G," L'année des Grecs : la fête et le mythe", Université de Franche-Comté, Annales littéraires de l'Université de Besançon, 530, Besançon, 1994.

23. Morgan C, Early Greek States Beyond the Polis, London, 2003.
24. Mylonopoulos J.، "Greek Sanctuaries as Places of Communication through Rituals: An Archaeological Perspective", ritual and communication in the graeco-roman world, in Stavrianopoulou E (dir), Éditeur :Presses universitaires de Liège, Liége, 2006, https://books.openedition.org/pulg/1125.
25. Niehr.H, The Aramaeans in Ancient Syria, Boston, 2014.
26. Nilsson, M.P., Griechische Feste von religiôser Bedeutung mit Auschluss der attischen, Stuttgart 1906 (réimp.1957).
27. Osborne R., "Women and Sacrifice in Classical Greece",CIQ 43, 1993.
28. Parker, John, and Rathbone, Richard, African History, Oxford University Press, 2007.
29. Reisner, George, A History of the Giza Necropolis, 1 volumes, London, 1942.
30. Reisner George, Excavations at Kerma, parts I-III، Peabody Museum of Harvard University, Cambridge, U.S.A. 1923.
31. Robert L, "Un édifice du sanctuaire de l'Isthme dans une inscription de Corinthe", Helleni-ca 1, 1940.
32. - Schmandt- Besserat- Denise, the Earliest Uses of Clay in Syria, Expedition, the Magazine Archaeology Anthropology,Vol 19, Number 3-Spring 1977.
33. Themelis P, "Contribution to the Topography of the Sanctuary at Brauron", in Gentili B, Perusino F. (eds), Le orse di Brauron. Un rituale di iniziazione femminile nel santuario di Artemide, Pisa, 2002.

34. Thompson W.E, “The Golden Nikai and the Coinage of Athens”, NC 10 ,1970.
35. True M. et al, “Greek Processions”, ThesCRA I , 2004.
36. Tylor Edward B، Primitive culture, Two Volumes, London, John Murray, Albemarle Street, W.1920.
37. Vernant J.-P., “At man’s table: Hesiod’s foundation myth of sacrifice”, in M. DETIENNE, J.-P. VERNANT (eds.), The cuisine of sacrifice among the Greeks, Chicago & London, 1989.
38. Wiseman D.J: The Alalach toblets, London, 1253.
39. Willie F. Page, revised edition by R. Hunt Davis, Jr, Editor, Encyclopedia of African History And Culture، Volume I Ancient Africa (Prehistory to 500 CE), Printed in the United States of America, New York, 2005.
40. Woldeyohannes, Hiluf Berhe, Aksoum (Ethiopia): an inquiry into the state of documentation and preservation of the archaeological and heritage sites and monuments. Archaeology and Prehistory. Université Toulouse le Mirail - Toulouse II, 2015.

المراجع العربية:

١. أبو بكر، عبد المنعم، الصناعات، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الأول، مكتبة النهضة المصرية، د.ت.

٢. أبو بكر، عبد المنعم، النظم الاجتماعية، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الأول، مكتبة النهضة المصرية، د.ت.

٣. أبو السعود، عطيات، فلسفة التاريخ عند فيكو، مؤسسة هنداوي، نسخة عام ٢٠١٧.

٤. أحمد، محمود عبد الحميد، مروى، الموسوعة العربية، المجلد الثامن عشر، دمشق، ١٩٨١.

٥. الأحمد، سامي سعيد، المستعمرات الآشورية، سومر، العدد ٢٣، ١٩٧٧.

٦. الأحمد، سامي سعيد، الإدارة ونظام الحكم، حضارة العراق، الجزء الثاني، ١٩٨٥.

٧. إحميم، فيصل، شكمبو، عبد الكريم، النشاط الاقتصادي في المدن الفينيقية، مدينة صور أنموذجاً، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الشهيد حمه الخضر–الوادي.

٨. أديب، سمير، تاريخ وحضارة مصر القديمة، ١٩٩٧.

٩. إسماعيل، فاروق، معاهدات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول (نحو ١٣٨٠ – ١٣٤٠ ق.م) مع الممالك السورية، مجلة جامعة الملك سعود، م ٢١، السياحة والآثار ١، الرياض (٢٠٠٩م/ ١٤٣٠هـ).

١٠. ادزارد د.، بوب م.هـ، رولينغ ف.، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية)، في الحضارة السورية (الأوجاريتية والفينيقية)، تعريب محمد وحيد خياطة، ط١، حلب، ١٩٨٧.

١١. – اشفيتسر، ألبرت ، فلسفة الحضارة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٠م.
١٢. إمري، ولتر، مصر وبلاد النوبة، ترجمة تحفة حندوسة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨.
١٣. أمهز، محمود، في تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، ٢٠١٠.
١٤. امين، عثمان، الفلسفة الرواقية، مطبعة لجنة التأليف للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥.
١٥. باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، دار الوراق، ط٢، ٢٠١٢.
١٦. باقر، طه، موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الإسلامية، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٠.
١٧. بارندر، جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٣.
١٨. برغش، سعدون عبد الهادي، الطائي، غفران جعفر عزيز، الكواكب والنجوم ورمزيتها في الأدب العراقي القديم، مجلة كلية التربية–جامعة واسط، العدد الحادي والثلاثون، ٢٠١٨.
١٩. بدر، أحمد، ابن تاشفين، الموسوعة العربية، دمشق، المجلد الخامس،١٩٨١م.
٢٠. بروديل، فرنارد، تاريخ وقواعد الحضارات، ترجمة: حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩.

٢١. البني، عدنان، المدخل إلى قصة الكتابة في الشرق العربي القديم، دمشق، (٢٠٠١).
٢٢. بيار، بونت. وميشال، إيزار وآخرون، معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ط٢، ترجمة: مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، بيروت، (٢٠١١).
٢٣. بيرنيا، حسن، تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العصر الساساني، تر: محمد نور الدين عبد المنعم محمد السباعي، الطبعة الثانية، دار الثقافة، الفجالة، مصر، ١٩٩٢.
٢٤. البيطار، عبد الرحمن، اليعقوبي "أحمد بن اسحق، الموسوعة العربية، دمشق، المجلد الثاني والعشرين ١٩٨١م، ص: ٥٢٦.
٢٥. بيكمان، غازي، ديانة الحثيين، الحضارة الحثية، ترجمة صلاح رشيد الصالحي، بغداد، ٢٠٢١.
٢٦. بيكمان، غازي، معضلة القرون، أو الطبيعة الإلهية للملك الحثي، الحضارة الحثية، ترجمة صلاح رشيد الصالحي، بغداد، ٢٠٢١.
٢٧. بيطار، عبد الرحمن: الموسوعة العربية، المجلد الثالث عشر، دمشق.
٢٨. توفيق، حازم، العلوم والمعارف في حضارة وادي الرافدين ووادي النيل في العصور القديمة، آشور بانيبال للثقافة، ط١، ٢٠١٨.
٢٩. توينبي، أرنولد، تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، الجزء الأول، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨.
٣٠. جاكسون، دونالد، تاريخ الكتابة، ترجمة: محمد علام خضر، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ٢٠٠٧.

٣١. جاموس، بسام، مملكة إيمار في عصر البرونز الحديث: ١٦٠٠-١٢٠٠ ق.م، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ٢٠٠٤.
٣٢. الجبوري، علي ياسين، قاموس اللغة الأكدية – العربية، ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، دار الكتب الوطنية، ٢٠١٠.
٣٣. الجمل، شوقي عطا الله، وآخرون: الموسوعة الإفريقية ج٢، ١٩٧٠.
٣٤. الجمل، شوقي عطا الله، وآخرون: الموسوعة الإفريقية- لمحات من تاريخ القارة الإفريقية، م٢، ١٩٩٧.
٣٥. جيمس، فريزر، الغصن الذهبي المصور- دراسة في السحر والدين، تر: محمد كبة، ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ٢٠١١.
٣٦. جيورجيري، ماريو، مورا، سيليا، الملكية في حاتتي خلال القرن الثالث عشر، أشكال الحكم والصراع على السلطة قبل سقوط الإمبراطورية، الحضارة الحثية، ترجمة صلاح رشيد الصالحي، بغداد، ٢٠٢١.
٣٧. حداد، جورج، المدخل إلى تاريخ الحضارة، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٩٥٣.
٣٨. حزين، سليمان، البيئة والإنسان والحضارة في وادي النيل الأدنى، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الأول، مكتبة النهضة المصرية.

٣٩. حسن، سليم، الحياة الدينية وأثرها على المجتمع: الديانة المصرية القديمة وأصولها، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الأول، مكتبة النهضة المصرية.
٤٠. حسين، عبد الله، السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، الجزء الأول، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣.
٤١. حسين، طه، نظام الأثينيين دار المعارف بمصر، ١٩٢١.
٤٢. حمود، محمود، الممالك الآرامية السورية، روافد للثقافة والفنون، دمشق، ٢٠٠٨.
٤٣. الحيالي، فيحاء مولود، الآلهة والمشاهد الزراعية في فنون بلاد الرافدين، مجلة كلية الآداب، العدد ١٨، ٢٠١٦، ص٣٩٣ – ٤٠٨.
٤٤. الأخرس، محمد صفوح، (الإتنولوجية)، الموسوعة العربية، دمشق، م١، ١٩٨١م.
٤٥. دافيدسون، باسيل، إفريقيا القديمة تكتشف من جديد، تر: نبيل بدر وآخرون، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.
٤٦. دشّو، عبد الحميد، القارة السمراء.. التّطور التّاريخي والتّنوع الجغرافي، منبج، ط٢، ٢٠١٥.
٤٧. دوركهايم، إميل، الأشكال الأولية للحياة الدينية– المنظومة الطوطمية في أستراليا، تر: رندة بعث، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، بيروت، ط١، ٢٠١٩.
٤٨. دياب أحمد، التونسي علا، تموم جمال، آثار بلاد الشام، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١٥-٢٠١٦.

٤٩. ديفانبيه، بيير وآخرون، معجم الحضارة اليونانية القديمة، الجزء الأول (أ-ز)، ترجمة أحمد عبد الباسط حسن، المركز الوطني للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٢٠.
٥٠. ديورانت، ول وايرل، قصة الحضارة-حياة اليونان، الجزء الأول من المجلد الثاني ٦، ترجمة محمد بدران، بيروت، د.ت.
٥١. رشيد، عبد الوهاب حميد، حضارة وادي الرافدين، ط١، دمشق، ٢٠٠٤.
٥٢. - رمضان، شيرين، السيرة الذاتية لـِ د.حسين مؤنس، مكتبة الإسكندرية- قطاع المكتبات، د. ت.
٥٣. رو، جورج، العراق القديم، ترجمة وتعليق حسين علوان حسين، مراجعة فاضل عبد الواحد علي، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ٢٠١٩.
٥٤. زكريا، فؤاد، الإنسان والحضارة، الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي، ١٩٥٧.
٥٥. زكريا، فؤاد، التفكير العلمي، عالم المعرفة، العدد٣، الكويت، ١٩٧٨.
٥٦. سارة، خليل، تاريخ الوطن العربي في العصور الكلاسيكية، دمشق، ٢٠٠٨.
٥٧. سارتون، جورج، تاريخ العلم، ترجمة طه باقر وآخرون، الجزء الأول، دار المعارف، ١٩٩١.
٥٨. ساغونا، انطونيو، زيمانسكي، بول، النحت المعماري الحثي والنقوش الصخرية، الحضارة الحثية، ترجمة صلاح رشيد الصالح، بغداد، ٢٠٢١.

٥٩. ساكز، هاري، قوة آشور، ترجمة عامر سليمان، بغداد، ١٩٩٩.
٦٠. سترابون، الجغرافيا- سبعة عشر كتاباً في جزأين، ترجمة: حسان مخائيل إسحق، ط١، دار ومؤسسة رسلان، دمشق، ٢٠١٧.
٦١. السعدانى، محمود إبراهيم، حضارة الرومان: منذ نشأة روما وحتى نهاية القرن الأول الميلادي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، جامعة الزقازيق، ١٩٩٨.
٦٢. سلمان، عبد اللطيف، تاريخ الفن والعمارة، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١١.
٦٣. سليم، أحمد، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، ١٩٩٨، بيروت.
٦٤. سليمان، عامر، القانون في العراق القديم، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٩٢.
٦٥. السمنودي، مانيتون، الجبتانا أسفار التكوين المصرية، تحقيق علي الألفي، روافد، د.ت.
٦٦. السواح، فراس، موسوعة تاريخ الأديان، الهندوسية، البوذية، التاوية، الكونفوشوسية، الشنتو، الكتاب الرابع، الشرق الأقصى، ط٤، دار التكوين، ٢٠١٧.
٦٧. السيد محمد، فاروق، أضواء على الزراعة وتاريخها في مصر في العصر الفرعوني، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد ٧٠، العدد ١٠٢، ٢٠٢٠.
٦٨. الشاكر، فاتن، رموز أهم الآلهة في العراق القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، ٢٠٠٢.

٦٩. شبنغلر، أسوالد، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيباني، ج١، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
٧٠. شلقم عبد الرحمن، إفريقيا القادمة (دراسة في الفن والتاريخ الإفريقي)، اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، ليبيا، ط١، ١٩٨٢.
٧١. الشمري، هزاع بن عيد، مختصر جغرافية العالم، الكويت، ١٩٧٥.
٧٢. صالح، عبد العزيز، حضارة مصر القديمة وآثارها، ج١، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٢.
٧٣. الصالحي، صلاح رشيد، الصراع على السلطة في عهد المملكة الحثية القديمة، بغداد، ٢٠١٨.
٧٤. – الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط– تركي مصطفى، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٩ جزء، ٢٠٠٠م.
٧٥. طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة، ط٣، الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، (٢٠٠٦).
٧٦. العابد، مفيد، سورية في عصر السلوقيين، دار شمأل، دمشق، ١٩٩٣.
٧٧. العابد، مفيد رائف محمود، معالم تاريخ الدولة الساسانية: عصر الأكاسرة ٢٢٦–٦٥١م، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩.
٧٨. عبد الحق، حسان، رحلة إلى ماري: دراسة أثرية لمدينة ماري، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٢٢.

٧٩. عبد الرحمن، عبد المالك يونس، عبادة الإله شمش في حضارة وادي الرافدين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٧٥.
٨٠. عبد الرحمن، عمار، مملكة ألالاخ: ألق التاريخ على العاصي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، مشق، ٢٠٠٨.
٨١. عبد الحليم، نبيلة محمد، مصر القديمة تاريخها وحضارتها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٤.
٨٢. عبد الحميد، الصالح، الموسوعة العربية، المجلد الثاني عشر.
٨٣. عبد السلام، عادل، إفريقيا، الموسوعة العربية، دمشق، المجلد الثاني، ١٩٨١م.
٨٤. عبد الله، فيصل، مرعي، عيد، تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الرافدين)، جامعة دمشق، ٢٠١٣ – ٢٠١٤.
٨٥. عبد الله، فيصل، مرعي، عيد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، جامعة دمشق، ٢٠٠٧ – ٢٠٠٨.
٨٦. عرابي، بلال، (دوركهايم)، الموسوعة العربية، دمشق، م٩، ١٩٨١م.
٨٧. عكاشة، علي، الناطور، شحادة، بيضون، جميل، اليونان والرومان، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط١، إربد، ١٩٩١.
٨٨. العلان، أرواد، المملكة الفرثية (الإيرانية) منذ القرن الأول قبل الميلاد حتى نهاية القرن الثاني الميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، دمشق، ٢٠٠٨.
٨٩. علي، عبد اللطيف أحمد، التاريخ اليوناني، العصر الهيلادي ٢، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٤.

٩٠. علي، عبد اللطيف أحمد، التاريخ اليوناني، العصر الهيلادي ١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦.
٩١. علي، عبد اللطيف أحمد، التاريخ الروماني، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٩.
٩٢. علي، فاضل عبد الواحد، من سومر إلى التوراة، ط٢، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٦.
٩٣. العمر، بديع، الجيش الروماني البري في الفترة الإمبراطورية: ٣١ق.م-٢٨٤م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠١٠.
٩٤. فخري أحمد، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، مصر، ١٩٩٠.
٩٥. فرح نعيم، تاريخ وحضارات العالم القديم وما قبل التاريخ، د.ط، دمشق، ١٩٧٥.
٩٦. فرج، عباس، شمأل مملكة آرامية سورية قديمة ١٠٠٠-٧٢٢ ق.م، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٢٠.
٩٧. فرعون، محمود، العلان، أرواد، دراسات في تاريخ فارس وحضارتها حتى الفتح العربي، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١١-٢٠١٢.
٩٨. فرويد، سيغموند، الطوطم والتابو، تر: بو علي ياسين، ط١، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٨٣.
٩٩. فريدريش، يوهانس، تاريخ الكتابة، ترجمة سليمان أحمد الضاهر، دمشق، ٢٠٠٤.

١٠٠. فهمي، محمود، تاريخ اليونان، مكتبة ومطبعة الغد، الجيزة، ١٩٩٩.
١٠١. فيزهوفر، يزف، فارس القديمة ٥٥٠ق.م-٦٥٠م: التاريخ- الحضارة- العبادات-الإدارة- المجتمع- الاقتصاد- الجيش، تر: محمد جديد، قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩.
١٠٢. قابلو، جباغ، سمير، عماد، تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الرافدين – سورية – مصر)، جامعة دمشق، ٢٠٠٧ – ٢٠٠٨.
١٠٣. كحلة، نزار مصطفى، غزوات شعوب البحر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ٢٠١٧.
١٠٤. كعدان، صباح، إفريقيا تاريخياً، الموسوعة العربية، الجزء الثاني، دمشق، ١٩٨١.
١٠٥. كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة، المجلد الأول (اليونان والرومان)، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢.
١٠٦. كونتينو، جورج، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة سليم التكريتي، وزارة الثقافة والأعلام، دار الشؤون الثقافية، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٦.
١٠٧. كيتو، هـ، د، الإغريق، ترجمة عبد الرزاق يسري، بيروت، دار الفكر العربي، ١٩٦٢.
١٠٨. لابات، رينيه، الطب البابلي والآشوري، ترجمة وليد الجادر، سومر ٢٤، ١٩٦٨.
١٠٩. – لومبار، جاك، مدخل إلى الأثنولوجية، ترجمة: حسن قبيسي، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٧.

١١٠. الماجدي، خزعل، المعتقدات الإغريقية، دار الشروق، رام الله، غزة، ٢٠٠٤، ط١.
١١١. مارتن، ليفي، الكيمياء والتكنولوجيا في بلاد الرافدين، ترجمة محمود فياض المياحي وآخرون، بغداد، ١٩٨٠.
١١٢. مارتينز، فرناندو برادو، الفينيقيون من جبل لبنان إلى أعمدة هرقل، ترجمة: بشار مصطفى، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٢٣.
١١٣. متس، رودلف، الفلسفة الإنجليزية في مائة عام، ترجمة فؤاد زكريا، مراجعة زكي نجيب محمود، نسخة إلكترونية عن مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٤م.
١١٤. مختار، محمد جمال الدين، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الأول، مكتبة النهضة المصرية، د.ت.
١١٥. مجيب، محمد، تاريخ حضارة الهند، ترجمة محمد نعمان خان، الطبعة الأولى، مؤسسة الفكر العربي، بيروت، ٢٠١٦.
١١٦. محمد علي، محمد عبد اللطيف، المراكز التجارية الآشورية بوسط آسيا في العصر الآشوري القديم، (من أواسط القرن العشرين إلى أواسط القرن الثامن عشر)، جامعة الاسكندرية، ١٩٨٤.
١١٧. محفل، محمد، الزين، محمد، دراسات في تاريخ الرومان، الجزء الأول، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٥-١٩٩٦.
١١٨. محمد، هيفاء أحمد عبد الحاج، ألقاب حكام وملوك العراق القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، ٢٠٠٧.
١١٩. مرعي، عيد، تاريخ سورية القديم: ٣٠٠٠-٣٣٣ق.م، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٠.

١٢٠. مرعي، عيد، تاريخ سورية القديم وآثارها وحضارتها، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٢١.
١٢١. مرعي عيد، تاريخ مملكة إبلا وآثارها، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٥.
١٢٢. مرعي، عيد، تاريخ لغات المشرق العربي القديم، ط١، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١٩.
١٢٣. مرعي، عيد، رحلة في عالم الآثار، مطبعة روافد للثقافة والفنون، دمشق، ٢٠١٠.
١٢٤. مرعي، عيد، معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم، منشورات الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٨.
١٢٥. مرعي، عيد، عبادة آلهة الخصوبة في الشرق القديم، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٦.
١٢٦. معجم علم الأخلاق، إشراف: ايغور كون، ترجمة: توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٤م.
١٢٧. ممفيس، بيتر، ي، العلاقات المصرية الحثية في عهد رعمسيس الثاني، الحضارة الحثية، ترجمة صلاح رشيد الصالحي، بغداد، ٢٠٢١.
١٢٨. مؤنس، حسين، الحضارة، سلسلة عالم المعرفة ع١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨.
١٢٩. الناصري، سيد أحمد علي، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، من حضارة كريت حتى قيام الإسكندر الأكبر، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ط٢.

١٣٠. نعمة، حسن، موسوعة ميثيولوجيا الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٤.
١٣١. الندوي، محمد إسماعيل، الهند القديمة حضاراتها وديانتها، دار الشعب، ١٩٧٠.
١٣٢. نور الدين، عبد الحليم، الفلك في مصر القديمة، الموسم الأثري الثاني، مكتبة الإسكندرية، www.nureldin.com.
١٣٣. نيدهام، جوزيف، موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين، ترجمة محمد غريب جودة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٥.
١٣٤. نيقولا، جريمال، تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر حويجاتي، القاهرة، ١٩٩٣.
١٣٥. النجم، زياد، توينبي ونظريته التحدي والاستجابة، ط١، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠١٠.
١٣٦. نيهاردت، أ.أ، الآلهة والأبطال في اليونان القديمة، ترجمة هاشم حمادي، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٤، ط١.
١٣٧. الهاشمي، رضا جواد، دور نهر الفرات في الامتداد الحضاري لبلاد وادي الرافدين، بين النهرين، عدد ٤٤، ١٩٨٣.
١٣٨. هزيم، رفعت، تاريخ إثيوبية وحضارتها، الموسوعة العربية، المجلد الأول، دمشق، ١٩٨١، ص٣٥٤.
١٣٩. هيوم، ديفيد، رسالة في الطبيعة الإنسانية، ترجمة وتقديم: وائل علي سعيد، الجزء الثاني، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٠٨.

١٤٠. . الهذال، حصة تركي، المؤثرات الحضارية الفينيقية في الحضارة اليونانية، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٤٣، ملحق ٣، ٢٠١٦.

١٤١. هبو، أحمد ارحيم، تاريخ الشرق القديم ٢، بلاد ما بين النهرين (العراق)، دار الحكمة اليمانية، ط١، صنعاء، ١٩٩٦.

١٤٢. هوخام، هيلدا، تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين، ترجمة أشرف محمد كيلاني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢.

١٤٣. هينليس، جون ر، معجم الأديان، ترجمة هاشم أحمد محمد، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠.

١٤٤. اليافي، ثناء، "تروليوب أنتوني"، الموسوعة العربية، المجلد السادس، دمشق.

١٤٥. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، ط١، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٣مجلدات، ٢٠١٠م.

١٤٦. يونس، إياد، الحياة الاقتصادية في أوغاريت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠٠٠.

اللجنة العلمية:

الدكتور: إبراهيم توكلنا

الدكتورة: ميسون مرعشلي

الدكتورة: علا عطيه

المدقق اللغوي: الدكتورة ليال سعيد أبو العز

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات